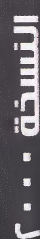


الكونت

بقواعدي سنلعب



عبد الرحمن جاويش





الكونت



الكتاب: الكونت

المؤلف: عبد الرحمن جاويش

تصميم الغلاف: إسلام جاويش

تدقيق لغوي: سارة صلاح

إخراج فني: سُكون

رقم الإيداع: 2191/2018

ردمك: 978-977-6549-53-1

الطبعة الأولى: 2018

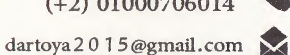


المدير العام: هالة البشبيشي

المدير التنفيذي: شريف الليثي



(+2) 01066444204
(+2) 01000706014


dartoya2015@gmail.com

دار تويا للنشر والتوزيع dar.toya

@Dar Toya

@Dar_Toya

٣٥ شارع النصر..
المعادي الجديدة نوفمبر ٢٠١٧

عبد الرحمن جاويش

الكونت

بقواعدي سنلعب..

رواية





إهداء:

- إلى «مالك جاويش».. ازداد العالَمُ نورًا بقدومك.

- إلى كل مُلهِم.



« - كيف يفرض الإنسان سلطته على إنسان آخر يا وينستون؟
- بأن يجعله يعاني.»

جورج أورويل
رواية ١٩٨٤



بداية غير موفقة..

أعلم أن هذه ليست البداية المُثلى لأسرد عليك ما أريدك أن تعرفه عني.. فأنا الآن في وضع لا يحسدني عليه إلا مختل؛ أقود سيارتي بسرعة فاقت مصطلح السرعة الجنونية بقليل، كانت هذه ثالث إشارة مرور أجتازها، في طريق كورنيش الإسكندرية، دون توقُّف وسط دهشة السائقين وإشارات المارة البذيئة من حولي. زدت من ضغط قدمي على دواسة البنزين غير عابئ بهم، كما لم أعبأ بالمطبات التي تخطيتها بكامل سرعتي ولا برائحة البنزين المحترق داخل سيارتي المتهالكة، ولا بهواء نوفمبر البارد الذي يرتطم بوجهي من نافذة السيارة.. أخرجتُ هاتفي المحمول محاولًا الاتصال بزوجتي، لكن -كما توقعت- لم يأتني الرد.

وصلتُ أخيرًا إلى محل إقامتي بـ«محطة الرمل».. لم أركض بهذه السرعة من قبل.. التهمت درجات السلم المؤدية للدور الثالث حيث أقطن، تعثرت قدمي في أحد الدرجات المتهالكة.. فتحتُ باب الشقة مناديًا بصوتٍ مبحوح على أغلى ما لديَّ: زوجتي غرام وابنتي مليكة.. لكنني لم أجد ردًا.

حاولت السيطرة على أعصابي بعد أن علت دقات قلبي، ظننت أنه سينخلع مني، بحثتُ عنهما في جميع الغرف دون جدوى.



حاولـت التفكـير فيـا حـدث منـذ أن تلقيـت تلـك الرسـالة مجهولـة المصـدر، والتـي أعلمتنـي بوجـود خطـر يهددهمـا. توجهـت إلى المطبـخ بعـد أن شـممتُ رائحـة غريبـة تنبعـث منـه؛ لأجـد الكثـير مـن الحليـب المسـكوب عـلى الموقـد بعـد أن فـار معظمـه وخـرج عـن الإنـاء، أغلقـت محبـس الغـاز سريعًـا.. ثـم توجَّهـت إلى غرفـة مكتبـي الصغـيرة، تعثـرت في إحـدى ألعـاب مليكـة الملقـاة عـلى الأرض بجـوار مزهريـة محطمـة وقـد تناثـر منهـا الـورد البلاسـتيكي.

فتحـت بـاب الغرفـة التـي تبعثـرت محتوياتهـا.. لم تتحملنـي أقدامـي أكثـر مـن هـذا فرقـدت عـلى الأرض مسـتندًا بظهـري إلى الحائـط المجـاور لبـاب الغرفـة.. أحطتُ وجهـي بكفـيَّ، عاتبـت نفسي عـلى فقـدان غـرام ومليكـة؛ كنـتُ عـلى يقـين أن لا ذنـب لي فيـا حـدث، لكـن لا بـد ممـن أصـبُّ عليـه سـخطي.. أعلـم أن الوقـت ليـس مناسـبًا للانهيـار؛ فشرعـتُ أتذكـر كافـة الأحـداث التـي أوصلتنـي إلى هـذه النقطـة.. وقـد قـررت أن أسـتعيدهما مهـما كان الثمـن.

***



١ - انهيار

الإسكندرية- نوفمبر ٢٠٢٣

خلاف معظم أبناء جيله؛ لم يكن «ياسر عبد الحي الطائي» يتشاءم من يوم الثلاثاء.. كان يراه كأي يومٍ آخر يُسلب من سنين عمره التي سيبلغ عددها اليوم خمسة وثلاثين. يقود سيارته عتيقة الطراز بسرعة أقل كثيرًا من المسموح بها على كورنيش الإسكندرية، ملتزمًا بالسير في الحارة اليمنى من الطريق الرطب بأمطار سقطت صباح اليوم.

تجاهل سخرية السائقين المارين بجواره من سرعة ومرأى سيارته، كانت من أقدم إصدارات شركة Fiat.. ابتاعها مستعملة من صاحب العمارة الذي يسكُن لديه في «سيدي بشر»، أجَّل إصلاح فراملها الثقيلة حتى اعتاد ثقلها، كما اعتاد ذلك الثقب الأسود الظاهر على المقعد المجاور له، خمَّن أنه قد نتج عن سقوط عقب سيجارة، حاول أن يخفيه بأكثر من طريقة لكنه فشل؛ ليترك هذا الثقب أثرًا سيئًا في نفسه التي اعتادت النظام، فحاول تجاهله وصرف نظره عن العناية بالسيارة، حتى امتلأت الكنبة الخلفية بمخلفات ابنته مليكة وألعابها.



اقترب برأسه من مذياع السيارة علَّه يميز الأغنية الصادرة عنه وسط الكثير من الأصوات المشوشة.. التقطت أذناه لحن «جَفْنُهُ.. علم الغزل» الشهير لمحمد عبد الوهاب.. فأغلق المذياع -الذي لم يكن حاله أفضل كثيرًا من حال السيارة- وراح يدندن الأغنية بنفسه معتمدًا على ذاكرته السمعية، طرق بدبلته الفضية المستقرة في يسراه على مقود السيارة صانعًا موسيقى خافتة، حاول تقليد «عبد الوهاب» مدندنًا: «كيف يشكو من الظمأ من له هذه العيون».

انصرف بتفكيره عن كل ما حوله، واستسلم لرائحة يود البحر التي لم يعتدها أنفه بعد، على الرغم من انتقاله للإقامة في الإسكندرية منذ سنين.. أثارت الرائحة بداخله الكثير من الخواطر والشجون؛ بدايةً من طفولة تعسة قضاها مع والده في القاهرة، مرورًا بدراسة لم يحبها بكلية الهندسة.. وبعثة جاءته عن طريق الصُدفة لاستكمال دراسته في أمريكا؛ حيث تعرف على زوجته غرام، وانتهاءً بعدم قدرته على خوض سوق العمل في مجال دراسته.. فاستغل حبه للرياضيات حتى امتهن تدريسها بإحدى المدارس الخاصة التي لا يدخلها إلا أبناء الأغنياء...

أفاق ياسر من ذكرياته على صوت ارتطام مقدمة سيارته بميكروباص، توقف سائقه أمام سيارة ياسر فجأة لالتقاط بعض الركاب، ساعيًا لجمع القليل من الجنيهات.. أطلق السائق الكثير من الشتائم معلنًا حسرته على تهشُّم «الإكصدام الخلفي».. اكتفى ياسر بعبارات الاعتذار غير المفهومة، دون أن يخرج من سيارته، لم يعترض حين خاض السائق في عرضه هو وأهله.. انسحب ياسر



بسرعة دون أن يعرض عليه تعويضًا ماديًا؛ فقد اعتبر أن الرجل قد أخذ حقه سبابًا.. تركه السائق يرحل حين استشف أن حالته المادية لن تفي بالتعويض، مودعًا إيّاه بالمزيد من السباب وبإشارة بذيئة من إصبعه الأوسط.

بعد دقائق توقف ياسر على جانب من الطريق، التقط أنفاسه محاولًا التخلص من الأثر الذي خلفته تلك الحادثة في جهازه العصبي، ضرب مقود السيارة براحة يده في غضب، أطلق صرخة مكتومة أقرب للأنين.. رنَّ هاتفه المحمول الذي ظهر على شاشته اسم «غرام» مرسومًا إلى جواره شكل القلب، قطع عليها محاولة الاتصال ليعلمها باقترابه من المنزل.. نظر في مرآة سيارته ليهندم شعره الذي تساقط بعضه وأصاب الشيب الخفيف بعضه الآخر.. طالع باقي الأثر الذي تركته خمسة وثلاثون عامًا على وجهه؛ كان على درجة من بياض البشرة، قصير الشعر حليق الوجه، حاد القسمات، برزت عظام وجنتيه بشكل زاده وسامة.. لم تكن ملامحه الجامدة تُغري من يراه لأول مرة بالتفرُّس فيها.

بعد أن هدأ قليلًا أدار محرك السيارة متوجهًا إلى المنزل، رنَّ هاتفه المحمول، هم أن يلغي الاتصال ثانيةً قبل أن يدرك أن مديرة المدرسة التي يعمل بها هي من تتصل. أجاب الهاتف بلهجته المتلعثمة قليلًا:

- خـ... خـخـ.. خير يا دكتورة أسماء؟

سمع على الجانب الآخر الكثير من الجلبة؛ ما بين أصوات رجال محتدة وصياح بعض السيدات الذي وصل حد الصراخ.. حاولت



المديرة إسكات من حولها، وجَّهت حديثها له قائلةً بصوتٍ عالٍ وبلهجة حاولت أن تبدو متماسكة:

- مستر ياسر لازم تيجي بكرة بدري عن ميعاد المدرسة.

ردَّ ياسر معتذرًا عن تنفيذ طلبها، أخبرها أنه يعمل يومي الأربعاء والخميس في مدرسة أخرى بالقاهرة، وأنه قد نظَّم جدول حصصه معها على هذا الأساس.. أخبرته بلهجة حازمة أن الموضوع لا علاقة له بالحصص، وأن جميع أعضاء هيئة التدريس يجب أن يحضروا صباح الغد، أمرته بصيغة الطلب أن يتغيب عن المَدرسة الثانية التي يعمل بها، وأن يعوِّض حصصه معهم في أي يومٍ آخر.. فوافق مضطرًا، سألها عن الأمر الجلل الذي يستدعي حضور الجميع.. ردَّت بلهجة لم تخلُ من الصدمة:

- مستر محمود صقر مدرس اللغة العربية اتخانق مع طالب من المرحلة الثانوية.

سألها ياسر وهو يقضم أظافره عما إذا كان قد أصاب الطالب مكروه، فردت أسماء باقتضاب:

- لا.. مستر صقر هو اللي توفى.

***

كان مكاوي قوادًا..

اتفق جميع من يعرفونه على احترامه الغريب لمهنته التي ورثها عن أبيه منذ أن كان اسمها «قُرَني».. قبل أن يطلق على نفسه لقب «صاحب البهجة».. طلبت منه زوجته أن يعتزل المهنة بعد أن جمع



منها ما يكفيهما حتى الموت؛ فاعتزل الزوجة وتزوج مهنته، احترم عمله وقرأ في تاريخ مهنته، عرف أنها قديمة قدم الإنسانية؛ حين كان يضيق الحال بأحد السادة فيسوق جواريه لباقي الأسياد، لكن مكاوي -على عكسهم- لم يطمع لنفسه في نسبة كبيرة من المال، ولم يغصب إحداهنّ يومًا على العمل تحت ظله.

اعتبر عمله خدمة للبشر الذين طحنتهم الحياة؛ فيأتي هو كفارس نبيل ليحررهم من قيودها، ويطلق العنان لأقصى شهواتهم.. لم يكن متصالحًا مع حقيقته، لأنه لم يدخل خلافًا معها من الأساس!

كان متيقنًا من أن جميع منتقديه مجرد كارهين له، حاقدين على مهمته السامية في إسعاد البشر، يتمنى أن يروا الحياة بعينيه.. فهو لم يرغم أحدًا على العمل، لم يسرق يومًا زبائنه من منافس آخر؛ لكنهم يأتونه من كل مكان، يترجونه كي يُنسيهم هموم الحياة، كان جيدًا في قراءة البشر؛ يعرف ما الذي يمتعهم ويوفره لهم، وما الذي يخيفهم فيبعده عنهم، حتى أوصل لجميع من حوله إحساسًا بقدرته على كل شيء..

وعلى الرغم من وفرة النساء واستقامة ميوله، إلا أنه لم يلمس إحدى العاملات معه، كان يؤمن بالحكمة التي تقول: «لا تخرج فضلاتك حيث تأكل».. كان يعلم أن عواقب الجنس تفسد كل شيء.

بدأ عمله على أنقاض الملهى الليلي الخاص بوالده الذي لم يكن يُدار بشكل احترافي؛ فبدأ في تطوير المكان وإجراء اختبارات لجميع المتقدمين للعمل فيه كأي كيان اقتصادي محترم، أطلق على نفسه لقب «مستر»، بدأ صغيرًا ووسَّع نشاطه ليشمل توفير المتعة للناس كافة



من ذوي الأهـواء المختلفـة.. شـطب كلمـة «لا» مـن قاموسـه؛ فكل شيء «ممكـن» متـى حضـرت الأمـوال.

لم تكـن الليلـة صاخبـة في الملهـى الليـلي كمعظـم ليـالي الثلاثـاء؛ كان مـكاوي يتطـير مـن مرتـادي الملهـى في هـذا اليـوم، عـلى غـرار ممثـلي المسـرح الذيـن يتشـاءمون مـن جمهـور يـوم السـبت الـذي لا يضحـك كجمهـور باقـي الأسـبوع.. تأمـل صورتـه المعلقـة عـلى الحائـط بإعجـاب شـديد؛ كان كهـلًا واسـع العينـين، شـديد السـمار، نحيـل الجسـد.. كان يحـب ارتـداء البـذلات باهظـة الثمـن، ويضـع عـلى رأسـه دائـمًا قبعـة سـوداء جعلتـه أشـبه بالفنـان «شـارلي شـابلن» مـع ملامـح أكثـر جديّـة وقامـة أكثـر طـولًا.

نظـر أسـفل صورتـه حيـث اسـتقر تمثـال لأفروديـت إلهـة الشـهوة في الديانـة اليونانيـة القديمـة.. وعُلِّـق في ركـنٍ آخـر مـن الغرفـة لوحـة الماجـا العاريـة، وبجوارهـا صـورة مثيرة لمارلـين مونـرو بالأبيـض والأسـود.

نظـر في هاتفـه بقلـق، كان ينتظـر مكالمـة مـن «سـيمون»؛ أقـدم «مبهجاتـه» كـما يحـب أن يطلـق عـلى العاهـرات الـلاتي يعملـن لديـه.. أحـب تفانيهـا التـام فيـما تعمـل، علـم منـذ أول لقـاء جمعهـما أنهـا ستسـتمر معـه، وقتهـا كانـت مجـرد «سـماح» لا تملـك إلا جسـدها وتجربـة بشـعة مـع أخيهـا الأكـبر الـذي هربـت مـن اعتدائـه عليهـا بكافـة الأشـكال.

ظهـر اسـمها عـلى هاتفـه أخيرًا، فابتسـم ابتسـامة خفيفـة كشـفت عـن فـمٍ واسـع وأسـنان بيضـاء، رد بلهفـة حقيقيـة:

- فينـك يـا بنتـي النهاردة؟ قلقتينـي.



- آسفة يا مستر.. لسه تعبانة من يوم الجمعة.. ولو شوفت شكلي دلوقتي مش هتعرفني.

- خلاص خدي باقي الإسبوع أجازة.. شكل الزبون إياه زودها معاكي المرة دي.

طلبت منه سيمون بضحكة خافتة أن يحاول الوصول لهوية ذلك الزبون؛ فلديها فضول لمعرفة شخصه الحقيقي، نهرها مكاوي قائلًا باستنكار:

- ونخسر الألف دولار اللي بيدفعهم لنا كل مرة؟.. انتي عارفة الدولار بكام دلوقتي؟

- مش القصد.. بس شكله حد تقيل في البلد.. وسره أغلى بكتير من الفلوس دي.

رد بحزم:

- مش شغلتنا.

نهض من مكانه متجولًا في مكتبه الواسع، سألها عما تظنه بشأن هذا العميل.. فأجابت بيقين تام أنه خائف من انكشاف أمره؛ فذلك الزبون الغامض يهاتفها من رقم مجهول، ويقابلها في أماكن نائية يحددها قبل اللقاء بنصف ساعة، زجاج سيارته معتم؛ فلا يمكنها أن تراه حين يصل إليها، لا يفتح لها باب سيارته إلا حين تضع قناع النوم الأسود فوق عينيها.. أكملت حديثها مستعيدة ذكريات آخر لقاء جمعهما في نهاية الأسبوع الماضي:



- ولازم يفتشني كويس ويتأكد إني قافلة الموبايل، وبيسيبني في مكان غير اللي خدني منه وبيكون طالب لي قبلها تاكسي من تليفونه.

سألها مكاوي عمَّا إذا كان قد طلب تحليل الإيدز كما يفعل كل مرة.. فأجابته بالإيجاب، وأضافت أنه تأكد من تاريخ التحليل أيضًا.. صمت مكاوي قليلًا ثم قال بحكمة قواد عتيد:

- متأكدة إنه مابيصوركيش؟

- بحكم خبرتي أقول لك إن مش دي دماغه.. الجدع ده هيبة كده وبيخوفني، بيحسسني إني خام زي أي عَيلة في ثانوي.

سألها مكاوي بفضول:

- كيفه إيه الجدع ده؟

ردت سيمون بصوتٍ خافت تخلله بعضٌ من الألم:

- مالوش في الكيف خالص.. لا حشيش ولا مية ولا حتى برشام.. بس شكله آلاتي غاوي مزيكا.

- حاسس إن ابن الحرام ده زودها معاكي المرة دي.

- بفلوسه يا مستر.. هو بصراحة إيده تقيلة وساعات بيتغاشم وبيستخدم حاجات عمري ما شوفتها، بس ما بيطولش وبيلم الليلة بدري.. بحس إنه عايز يذلني بأي شكل.

هزَّ مكاوي رأسه، قائلًا بلهجة حكيمة:

- عارفه المرض ده..

- بس المرة دي حصلت حاجة غريبة، أنا قلقت من النوم وطبعًا ما رفعتش القناع زي ما بينبه عليا، سمعته بيكلم نفسه..



- كان بيقول إيه؟

- ما ميزتش منه غير كلمة واحدة: الكونت.

***

توقَّع ياسر أن يحمل له اليوم مزيدًا من الكوارث، وكان توقعه صحيحًا..

بمجرد أن دخل شقته المؤجرة بمنطقة «سيدي بِشر» احتضنته طفلته مليكة مهللة لقدومه، وقابلته غرام بابتسامتها الصافية التي لا تدوم طويلًا، فقبل رأسها بتلقائية، كانت رائحتها زكية كعادتها..

بدا وكأنها نست شجار الأمس؛ حين جاءته رسالة نصية على هاتفه أثناء نومه، كانت الرسالة مرسلة من رقم غير مسجل لديه، كُتِبَ فيها: «وحشتني يا نصي التاني.. نتقابل قريب».. فجرت هذه الرسالة الكثير من الحمم المتراكمة داخل غرام؛ فذكرت ياسر بوضعهما المالي غير المستقر بسبب كثرة الأقساط المتراكمة عليهما، وإصراره على مكوثها في البيت حتى تعتني بغرام، وانشغاله الدائم عنها وسفره المستمر إلى القاهرة للعمل بإحدى المدارس الخاصة في النصف الثاني من الأسبوع.

لكن ياسر احتوى الموقف، اعتذر لها عن تقصيره، أقسم أنه لا يعلم شيئًا عن هذه الرسالة، حاول الاتصال برقم المرسل ليبرهن لها على براءته لكن الرقم كان مغلقًا، أخبرته غرام أنها قد صدقته، وبرغم هذا فقد أصرت على النوم بجوار مليكة لترفع سور الجليد بينهما درجات.



استثنت غرام هذا اليوم من الأكل الصحي الذي تحرص على الالتزام بتحضيره لأسرتها، فأعدت لياسر وجبته المفضلة: رُقاق باللحم المفروم. كانت تحب في ياسر رضاه عن الطعام الذي تعده مهما كان سيئًا؛ الأمر الذي أرجعته في قرارة نفسها إلى وفاة والدته حين كان طفلًا، فلم يجد من يطهو له خصيصًا قبل أن يتزوجها.. لم تصرح له بهذا التبرير من قبل؛ فياسر يتجنب دائمًا الحديث عن حياته الماضية.

كان قد أحضر معه الشيكولاتة التي تفضلها مليكة، لكن غرام أخبرته أنها مُعاقبة، وحين سألها عن السبب أجابته دون أن تنظر إلى مليكة:

- زهّقت الشيخ مجدي منها لحد ما طفش.. وحلف ما هو جاي تاني.

ضحك ياسر وعلق أنه لا يرتاح إلى مُحَفِّظ القرآن هذا من الأساس؛ فهو لا يساعدها على الحفظ بقدر ما يخيفها من كتاب الله.. تركتهما غرام بعد أن زفرت في ضجر مقطبةً جبينها، فتأكد ياسر أنه لن يرى بسمتها اليوم.. ركع على ركبتيه أمام مليكة، وأعطاها الحلوى، فاحتضنته بامتنان، أمرها أن تأتي بكتبها الدراسية وتلحق به في غرفة نومه.. طلب من غرام بصوتٍ عالٍ أن تؤجل الغداء وتجهز لهما كوبين من اللبن.

علّق ياسر معطفه بحرص، ورتب باقي ملابسه بعناية شديدة.. نظر إلى انعكاس جذعه العاري أمام المرآة التي تتزين فيها غرام، تأمل



بعضًا من الندوب القديمة، وخياطة جراحة ناتجة عن عملية استئصال للزائدة الدودية، كان جسده رياضيًا بالنسبة لسنه، لم يخلُ من بعض دهون البطن.. اقتحمت مليكة الحجرة بخطوات مترددة، لم يتجاوز عمرها الست سنوات ، كانت على درجة عالية من الذكاء الذي يسبق سنها كثيرًا، لكنها كانت تمل سريعًا من كتابة واجبات المدرسة التي تجبرها على كتابة كلمة معينة أو حرف معين لعدد كبير من المرات.. لكن ياسر أخبرها أن عليها الاعتياد على الواجبات الروتينية لإجادة الأعمال الاستثنائية.. قالت مليكة لأبيها في تأفف واضح:

- مش النهارده عيد ميلادك؟ فين هديتي؟

رد ياسر مازحًا:

- ده بدل ما كنتي تحوشي لي أنتِ تمن الهدية من مصروفك؟

هزت كتفيها وقالت بتلقائية مقلدة والدتها:

- المصروف هيكفي إيه ولا إيه؟ الحاجة غليت يا طائي.

ضحك ياسر وقال وهو يحتضنها ويجلسها فوق فخذه:

- بطلي لماضة، ويلا نخلص الواجب.

سألته مليكة بخبث طفولي:

- لو نجحت هتجيب لي قُط زي ما وعدتني؟

- أنا ما وعدتكيش، أنا قُلت لك لو ماما وافقت هجيبه.

سمع خطوات غرام التي أتت حاملة كوبي اللبن، فتعمد أن يرفع صوته قائلًا:



- واعملي حسابك هشوف لك شيخ جديد بدل الشيخ مجدي.

نظرت مليكة نحو اللبن بتأفف، وسألته بمكر:

- أنت هتشرب كوبايتين لبن لوحدك؟

ردت غرام بحزم وهي تضع الكوب أمام مليكة:

- كلمة كمان وهشربك أنتِ الكوبايتين.

وجَّهت مليكة حديثها لياسر متوسلةً ألا تشرب اللبن، أخبرته أنها قد ورثت عن أمها كره اللبن، ولم ترث حب اللبن منه.. لكن ياسر طلب منها أن تشرب اللبن، لاحظ وقوف غرام أمام خزانة الملابس المفتوحة تتأمل ما لديها، كان يشعر بالذنب تجاهها لأنها لا تطلب منه مالًا للبسها أو لشراء ما يعينها على أعمال المنزل كغيرها من الزوجات؛ قلصت احتياجاتها حين رأت أن الادخار لأجل تعليم مليكة هو الأولوية. سألها ياسر بحذر عن سبب وقوفها أمام الخزانة.. فردت بلهجة غاضبة:

- أختك اتصلت من شوية.. هتيجي تحتفل معانا بعيد ميلادك هي وجوزها.

لم يعلق ياسر على زيارة سلوى غير المتوقعة، والتي خمَّن سببها الحقيقي بعيدًا عن الاحتفال.. كانت سلوى أخت ياسر من أم ثانية، تزوج أبوهما أمها حين كان مقيمًا في الإسكندرية قبل أن يهجرها وينتقل إلى القاهرة ليتزوج أم ياسر.

لم ينجح في إقامة علاقة قوية بأخته، وبالتالي لم ينجح في التوفيق بين غرام وسلوى، لم تحب إحداهما الأخرى منذ أول لقاء رتبه ياسر



بينهما قبل قرانه بأسبوع. حين عرفت سلوى بجنسية غرام السورية أبدت توجسها لياسر واعتراضها على فكرة الزواج من أجنبية.. فلم يخبر غرام بما حدث، فقط أخبرها أن علاقته مع أخته ليست بالقوية، فليس مفروضًا أن تتجمل لتنال رضاها.

حاول ياسر أن يشغل بال زوجته عن الزيارة غير المرغوب فيها، والتي كان يعلم سببها الحقيقي.. فبشَّرها بموافقة مديرة المدرسة التي يعمل فيها على التحاق مليكة بالصف الأول الابتدائي، على أن يتم خصم المصاريف من راتبه في صورة أقساط لن تؤثر كثيرًا على دخلهم المتوسط.. لم تبدِ غرام سعادة برغم لهفتها لسماع هذا الخبر، قالت لياسر:

- كويس.. انزل اشتري لمبة عشان لمبة الصالون محروقة، واشتري جاتوه، لحد ما أحضر لك الغدا.. وخلي العدد على قدنا.

سخر ياسر في سره من غرام التي أصبحت زوجة مصرية بشكل لم يتوقعه.. طلبت مليكة من أمها أن تنزل مع أبيها، لكن غرام ردت بحزم:

- أنتِ هتقعدي تكملي واجبك.. واعملي حسابك مش هتقربي من الجاتوه لحد الضيوف ما يمشوا!

***

أبدت سلوى قلقها من حالة المصعد المؤدي إلى شقة ياسر، كان متربًا بطيء الحركة يصدر صريرًا مزعجًا، لم تظن في البداية أنه يعمل من الأساس.. نظرت في مرآة المصعد لتتمم على ملابسها وزينتها، لمحت انعكاسًا باهتًا يتخلله الكثير من الشروخ والبقع.. اقترب منها زوجها «رافي أبو الدهب» مقبلًا كتفها، أخبرها أنها تبدو في أحسن صورة، أبدى إعجابه بعطرها مقبلًا رقبتها، لكن سلوى أبعدته عنها بكياسة، وقالت ضاحكة:

- احنا مش كبرنا على موضوع الأسانسير ده؟

ردَّ رافي مازحًا أنه لن يتقدم في العمر أبدًا، رنَّ هاتفه المحمول بمكالمة تخص تجارته، فأسكته سريعًا.. توقف المصعد فانحنى رافي ليلتقط حقيبة بلاستيكية كبيرة الحجم، وفتح باب المصعد ولحق بزوجته متوجهين نحو باب شقة أخيها ياسر، همس في أذنها قائلًا:

- أنا جيت معاكي المشوار ده وأنا مش موافق عليه.. ممكن تيجي معايا بكرة؟

ردت سلوى بحزم وهي تعدل من وضع حجابها قبل أن تضرب جرس الباب:

- انسى.. مش هروح حفلات الدروشة بتاعتك دي يا رافي!

لم يعقب رافي، كان مهووسًا بالحضرات، منغمسًا في الإنشاد الصوفي وطرقه.. لم ينسَ الشجار الذي دار بينه وبين سلوى حين رفضت أن يعلق صورة منشده المفضل «أحمد التوني» في صالة بيت الزوجية الخاص بهما...



«شوفت أنا أجدع منك ازاي وفاكرة عيد ميلادك؟»

هكذا بدأت سلوى حديثها حين فتح لها ياسر باب شقته في تمام السابعة مساءً.. ردَّ ياسر ساخرًا أنها لولا الـFacebook لما تذكرت أن لها أخًا من الأساس.. فأطلقت سلوى ضحكتها المصطنعة واحتضنته حضنًا قصيرًا، لم يحب ذوقها في العطور، كانت تتعمد أن يسود عطرها أي مكان تدخله ككلب يتبول لفرض ملكيته.. صافح ياسر زوج أخته «رافي أبو الدهب» وعاتبه على إحضار كعكة عيد ميلاده.. فردَّ الأخير أن سلوى من اختارتها ودفعت ثمنها.. همَّ رافي أن يخلع حذاءه قبل دخول الشقة لكن ياسر أصر ألا يفعل.

ظهرت مليكة من وراء ياسر فاحتضنتها سلوى بحنان حقيقي، وأخرجت لها طوق شعر جديدًا من حقيبة يدها، ووضعته في شعرها.. شكرتها مليكة منادية إياها «سلوى» مجردًا من الألقاب، فداعبها رافي ساخرًا من حرف السين الذي تنطقه ثاءً.

رحب بهم ياسر، وحمل عن رافي الكعكة التي وضعها على السفرة، ناولته سلوى علبة صغيرة وأخبرته أن يفتحها بعد رحيلها.. شكرها بصوت خافت، سألها باهتمام مصطنع:

- أخبار مركز الدروس إيه؟

ضربته سلوى في كتفه قائلة:

- مستنيك تيجي تشتغل فيه يا مستر، تعالى احتك بالفئات الكادحة؛ بدل ما أنت قاعد تشرح لولاد الناس.



ضحك ياسر وأخبرها أنه سيتحول إلى ماكينة أموال لا تستريح إن انضم للعمل معها؛ فهو لا يريد إلا «الستر».. ردت سلوى أن بابها مفتوح له دائمًا.

مرت فترة قصيرة من الصمت والكثير من «شرفتونا» و«زارنا النبي» وغيرها من كلمات الترحيب الجوفاء.. تأملت سلوى أثاث المنزل البسيط كمًا وكيفًا وهي تلوي شفتيها.. على عكس رافي الذي أبدى إعجابه ببساطة وهدوء مملكة غرام.. ظهرت غرام بعد دقائق لتحيي رافي برأسها دون أن تصافحه، وتعانق سلوى في فتور متبادل، لم تحب غرام القبلات الأربع التي تصر سلوى على طباعتها فوق وجنتيها كلما رأتها..

سألتها سلوى عن أحوالها.. لم يكن لدى غرام الكثير لتحكيه؛ فمنذ أن هجرت أمريكا وجاءت إلى الإسكندرية مع ياسر لم تغادر شقتها إلا فيما ندر.. اقترحت عليها سلوى أن تخرج معها الأسبوع القادم.. فصممت غرام على الرفض، أخبرت سلوى بصدق أنها لا ترتاح خارج بيتها، ولا تفضل الجلوس على المقاهي لتدخين النرجيلة مثلما تفعل سلوى مع صديقاتها.. لم تلح عليها سلوى، واقترحت النهوض لإطفاء الشموع.

أبدت مليكة سخرية عفوية من صوت رافي الأجش، كان يغني «أبو الفصاد» وشبهته بصوت الحمار ليضحك الجميع عدا أمها التي نظرت لها محذرة، طلبت غرام من ياسر أن يتمنى أمنية عيد الميلاد في سره.. فتمنى أن تبقى حياته كما هي.



عاد ياسر للجلوس مع رافي في الغرفة الصغيرة المخصصة للضيوف، تاركًا أخته وزوجته تقطعان كعكة عيد الميلاد، طلبت مليكة من أمها أن تعطيها قطعة من الكعكة لكن أمها أخبرتها بحزم أنها لن تستطيع إكمالها بمفردها؛ لذلك سيأكلان سويًا من طبق واحد.. لمح ياسر من سلوى نظرة متأففة تجاه صورة أبيه المعلقة على الحائط أمامها..

استنشق رافي رائحة البخور التي أشعلتها غرام قبل وصولهما لإخفاء رائحة الطعام، ملأ أنفه منها مبديًا إعجابه بهذا النوع.. جلس أمام ياسر مخرجًا من جيبه سلسلة مفاتيح كبيرة الحجم وهاتفه المحمول، وضعهما فوق المنضدة الصغيرة التي تتوسط الحجرة وقد ثُبِت فوقها قالب رخامي، حرك دون قصد مطفأة السجائر المستقرة في ركن من المنضدة الرخامية.. أعاد ياسر المطفأة إلى منتصف المنضدة سريعًا كما كانت، وقال لرافي بحرج:

– OCD بقى معلش.

هزَّ رافي رأسه مبتسمًا في عدم فهم.. أخرج سيجارته الإلكترونية، لكن ياسر أوقفه قبل أن يسحب بعضًا من بخار زيوت التبغ مشيرًا نحو غرام ومليكة.. فأعادها رافي إلى جيبه في حرج، سأل ياسر مازحًا:

– مش ناوي تخاوي مليكة بعمّار؟

أبدى ياسر دهشته من اختيار رافي لهذا الاسم دون غيره، فرد رافي ضاحكة:



- معروفة أي ياسر لازم يجيب عمَّار.. تيَّمن بالصحابة يا أخي.

لم يعقب ياسر، اقترب من رافي، أمسك معصمه الذي يزينه سوار ذهبي رديء الذوق، همس في أذنه قائلًا بخبث:

- مبروك الجوازة الجديدة يا أبو نسب.

بدت الصدمة على رافي الذي حاول الإنكار بالكثير من الكلمات المبهمة التي لا رأس لها ولا ذيل.. ضحك ياسر هامسًا:

- ما تقلقش مش هأقول لسلوى.

زفر رافي باستسلام، وقال بلهجة لم تخلُ من حيرة:

- إنت عرفت ازاي؟

- مش محتاجة ذكاء.. احنا آخر مرة اتقابلنا كنت بتشتكي لي من سلوى وبتقول عليها «حيزبون».. ده غير طريقة لبسك اللي رجعت زي الشباب، وضحكتك المجلجلة دي، يا راجل ده أنت غنيت لي أبو الفصاد!

ثم أشار ياسر إلى سلوى برأسه مخبرًا رافي أنه لاحظ العقد الماسي الذي يزين رقبتها، وأن هذه الهدية مجرد صك غفران يحاول من خلاله إرضاء ضميره.. طلب رافي من ياسر بلهجة متوسلة ألا يخبر سلوى.. ردَّ ياسر أنها تعرف بالفعل.. سأله رافي بخوف واضح:

- تفتكر حست؟

- أي ست بتحس.. ده غير موضوع خِلفتكم اللي اتأخرت يخليها شاكة فيك طول الوقت.



ربَّت ياسر على فخذ رافي، طمأنه أن سلوى لن تواجهه بما فعل؛ حتى ولو اعترف لها بنفسه فلن تقوم بأي ردة فعل. قال له أن ما بينهم ليس زواجًا؛ فهو مجرد مشروع يشارك فيه رافي برأس المال..

لاحظ رافي أن سلوى تحاول التنصت على حديثهما، فالتقط هاتفه المحمول وقال لياسر:

- الشبكة عندكم كويسة؛ أصلها ضعيفة عندنا في البيت كله ما عدا البلكونة.

لم يفهم ياسر أن رافي يحاول تغيير الموضوع، فرد بتلقائية:

- اشتري قضيب نحاس، وركبه فوق السطح.. هيظبط لك موضوع الشبكة ده.

التقط رافي طرف الخيط الذي حوَّل مسار الحديث عن زواجه، بدأ يسأل ياسر عن سعر ذلك القضيب والمقاس المناسب.. ففهم ياسر وبدأ يجيب عنه إجابات عائمة.. تدخلت سلوى في الحديث مبديةً شكواها من رافي الذي لا يترك الهاتف من يده، قالت لياسر بلهجة خبيثة أن مكالمات زوجها لا تنتهي، مما يجبره على المكوث طويلًا في الشرفة لإنهائها.

حاول رافي تغيير مجرى الحديث ثانيةً، سأل ياسر عن موعد مباراة الأهلي القادمة، وموعد نزول فيلم أحمد حلمي.. فلم يجد لدى ياسر ردًا.. فجلسا صامتيْن حتى انتهت غرام من تقطيع الكعكة.

سمعا صوت مسيرة شبابية تمر من أسفل البيت هتف السائرين فيها ببعض المطالب السياسية.. علَّق رافي أن هؤلاء الشباب إن



وجدوا عملًا لن يخرجوا في مثل هذه المظاهرات.. فعلّق ياسر بلهجة مقتضبة: «ربنا يهدي الجميع».

لم يشعر ياسر بالشفقة تجاه أخته التي قلَّ جمالها بعد بلوغ الأربعين، كانت خمرية البشرة، محجبة إلا من بعض الخصلات المصبوغة الهاربة من قطعة القماش التي تغطي شعرها، ذات ذوق رديء في اختيار الملابس والزينة، كانت معظم زينتها عبارة عن أيقونات لمنع الحسد.. لم يختلف ذوقها كثيرًا حين اختارت زوجها.

لم تُكمل سلوى تعليمها بعد الثانوية العامة حين تقدَّم لخطبتها جارها وحب الطفولة «رافي» الذي يكبرها ببضع سنوات.. كان يعمل مع والده في تجارة السيارات.. تراجع الحب بينهما حين انشغل رافي في توسيع تجارته بعد وفاة أبيه؛ حتى أصبح من أكبر تجار السيارات في الإسكندرية.. زاد نفوذ سلوى داخل بيتها حين أدمن رافي الهيروين بعد الزواج بخمس سنوات، أدركت أن إدمانه سيضيع كل شيء، فنست الحب وأدمنت السيطرة، وحين تعافى من أزمته لم يعترض على قيادتها للأمور؛ فقد أثبتت استحقاقًا واضحًا.. استغلت سلوى صلاحياتها الجديدة وأزمة تأخر الإنجاب، وطلبت من رافي أن يفتتح لها مركزًا للدروس الخصوصية؛ فوافق حتى تنشغل بإدارته عن التحكم في كافة تفاصيل حياته.

ناولت سلوى ياسر طبقًا وضعت به قطعة كبيرة من الكعكة، وناولت رافي طبقًا ذا قطعة أصغر حجمًا، سألها عن طبقها فأخبرته أنها تحاول أن تسير على نظام غذائي يمنعها من تناول الكعكة، لم يلح عليها.



طلبت سلوى من أخيها أن يرافقها للشرفة، لتُدخِن بعيدًا عن مليكة.. أخبرها أن تعتبر نفسها في بيتها وتذهب منفردة.. ولكنها كررت طلبها بلهجة فهم من خلالها أنها تريد أن تحدثه على انفراد. استأذن ياسر من غرام ورافي اللذين سيواجهان دقائق من الصمت الحرج، قد تحرك مليكة ركوده.

استندت سلوى على سور الشرفة بمرفقها، أشعلت سيجارة لتنفخ دخانها في وجه ياسر.. أشار ياسر برأسه نحو العُقد الذي يزين رقبتها مثنيًا على ذوق رافي في اختيار الهدايا.. سألته عن الهدايا المفضلة لغرام.. فأجابها بصدق أنها لا تحب الذهب ولا التزين المبالغ فيه.. بدأت سلوى تتحدث عن بعض المصاعب التي تقابلها في العمل.. لكن ياسر قاطعها قائلًا:

- أنا عارف كويس سبب الزيارة دي.. وعارف إنتي عايزة إيه.

لم تبدِ سلوى دهشتها من مبادرة ياسر، وردت بهدوء أنها لا تريد إلا مصلحته.. سألها ياسر باستنكار شديد:

- مصلحتي إني أموت أبونا؟!

ردَّت سلوى ضاحكةً:

- أبوك ميت من زمان بس أنت رافض تعترف بده.

قال ياسر مصححًا:

- أبونا مختفي.. مسيره يرجع.

- أبوك كان سُكَري وباع كل أملاكه اللي في القاهرة، وأنت نفسك سافرت أمريكا عشان تهرب من قرفه وسيرته الزفت.. ولولا أهل أمي وقفوا له كان باع كل اللي ليه في إسكندرية.



أكملت حديثها بلهجة حنون:

- يا واد أنا عايزة مصلحتك.. هتيجي معايا تشهد إن أبوك مفقود بقى له أكتر من عشر سنين.. ونطلع له شهادة وفاة ونورث.

أطلق ياسر زفرة طويلة، وحرك سبابته بشكل دائري أمام فمه في ضجر.. أكملت سلوى حديثها بلهجة عملية:

- أرض أبوك اللي في العجمي معروض علينا فيها خمسة مليون جنيه.. احسب نصيبك بقى يا مستر.

ردَّ ياسر بهدوء:

- أنا راضي بنصيبي من الدنيا.

نظرت سلوى إلى الشرفة التي تشققت جدرانها من أعلى، وقالت متهكمة:

- بقى بتسمي ده نصيب؟

ردَّ ياسر مقلدًا طريقتها التهكمية:

- أنتِ خدتِ المال، وأنا خدت البنين.

ابتلعت سلوى تلميحه، وقالت بصوت عالٍ:

- يعني أنت عاجبك حالك...

قاطعها ياسر مكملًا حديثها الذي سمعه كثيرًا حتى حفظه ومل منه، أخبرها أنه يعلم ظروفه، يعلم أنه يعيش في شقة مؤجرة، ويدرك حجم مصاريف مليكة التي تكبر معها، وأن جميع مشاكله المادية ستحل إن اعترف بوفاة أبيه..

قاطعته سلوى لتترحم على أبيها.. ردَّ ياسر في حنق أن أباه لا يزال حيًا.. قالت سلوى بلهجة عملية لتنهي النقاش:

– أنا نضفت لك شقتك اللي في عمارة الرمل، حاسة إنك هتحتاجها قريب.. بس للأسف كل حاجة لسه مكتوبة باسم أبوك.. يعني لازم تورث عشان تعيش فيها.

– أنا مبسوط في الشقة دي.

ردَّت بلهجة خبيثة أن دوام الحال من المحال.. ردَّ ياسر بحزنٍ أن ثمن الشقة باهظ عليه.. قالت سلوى بلهجة لم تخلُ من شفقة:

– أنت حاسس بالذنب عشان أبوك اختفى لما أنت بعدت عنه وسافرت؟.. صدقني، عبد الحي الطائي عمره ما كان بيفكر كده، ولا بيفرق معاه غياب حد.

هربت دمعة من عين ياسر، نظر نحو غرام من خلال زجاج الشرفة، وحين تأكد من انشغالها عنه سحب سيجارة من علبة سلوى دون استئذان، استند على سور الشرفة ناظرًا إلى الشارع المطل على أحد جوانب «جامع سيدي بشر»، قائلًا:

– جيرانه كانوا بيسمعوه كل ليلة وهو بينادي عليا.. كان بيتخيلني لسه عايش معاه.

قالت سلوى بصوتٍ أشبه بالفحيح:

– حد في سن أبوك وفي حالته الصحية وكمان كان بيهلوس بسيرتك.. تفتكر هيفضل عايش طول السنين دي؟

لم يرد ياسر، كان يعلم أنها على حق.. أردفت سلوى بهدوء:

- أنت مش رافض فكرة موته، أنت رافض فكرة إنك كنت السبب في موته.

طلب منها ياسر بحزم أن تتوقف عن محاولات إقناعه، هددها إن سعت في إجراءات الميراث بمفردها فإنه سيذهب إلى المحكمة كما فعل منذ سنوات، ويحضر عددًا من شهود الزور ليخبروا القاضي أن أباه لا يزال حيًا وأنهم يرونه، وسيضع كلمته أمام كلمتها ليبقى الحال على ما هو عليه... قاطع حديثهما اقتحام غرام للشرفة، وجَّهت حديثها لياسر قائلة في جزع:

- الحقني.. فيه موظف برة بيطلب مننا نلم حاجتنا ونخلي البيت.

ضحكت سلوى، قالت بهدوء مشيرة برأسها إلى سقف الشرفة المشقق:

- طبيعي.. العمارة قديمة، وماحدش كان مأجر فيها غيركم، وباقية الشقق بتتأجر للمصيفين.. قرار الإزالة ده اتأخر.

نظر ياسر لسلوى نظرة كادت أن تحرقها؛ كان يعلم جيدًا أنها وراء هذا التصرف، حاول أن يكظم غيظه وقال بغضب ضاغطًا على أسنانه:

- فيه قرار إزالة طبيعي هيطلع الساعة تسعة بالليل؟

لم تفهم غرام تلميح ياسر، سألت سلوى فلم ترد الأخيرة.. غادرت سلوى الشرفة، ربتت على كتف ياسر وقالت ضاحكة:

- روح افتح هديتي.. هتلاقي جواها مفتاح شقتك الجديدة.

***



٢ـ رحلة

استيقظ الكونت من نوم مضطرب لم يدم طويلًا، أسكت منبه هاتفه من نوع Iphone.. حين نهض من فراشه وقعت عيناه على رواية (أيام سدوم المائة والعشرون)، والتي لم يستطع النوم قبل ان ينتهي من قراءتها.. خرج إلى حديقة فيلته ليسقي الورد البلدي الذي يحب زراعته ويُطعم كلبي الحراسة المربوطين بالقرب من البوابة الحديدية المُحاطة من الجانبين بسور خرساني قصير وسياج كثيف من الأشجار.

اشترى هذه الفيلا في موقع منعزل على الطريق الصحراوي من أحد رجال الأعمال بهوية مزيفة يستخدمها في تعاملاته الورقية التي نادرًا ما يلجأ إليها.. كان جيرانه في الفِلل المجاورة عبارة عن مجموعة من ذوي النشاطات المشبوهة، وقد اتفق جميع مُلاك تلك الفِلل ضمنيًا على ألا يعرف أحدهم هوية الآخر.

عاد الكونت إلى الفيلا مرة أخرى ليرتب فراشه بعناية، مارس رياضته الصباحية التي لا تتجاوز مدتها نصف الساعة، تناول فطوره ملحقًا بجرعة بسيطة من عقار البيراسيتام؛ كان لهذا العقار أثرًا في نفسه يحبه ويتناسب مع ما يريد أن يكونه.. حين أخذه لأول مرة لم

يشعر بفارق كبير.. ولكن بعد ذلك تطورت الأمور كثيرًا؛ أصبحت ذاكرته أكثر قوة، وذهنه أكثر حضورًا، تمكن من التركيز في جميع التفاصيل، زادت ثقته في نفسه كثيرًا واختفى شعور التوتر الذي كان يزوره حين يخرج لتنفيذ مهمة من مهماته، أصبحت أفكاره وردود أفعاله سريعة ومرتبة بسلاسة فائقة، تعاظمت قدرته على الإبداع في عمله عمَّا كانت في الأساس. كان يعلم أثناء وقوعه تحت تأثير العقار أن هذه ليست طبيعته وأن هذا الأثر لن يدوم؛ لذلك كانت جرعاته محسوبة بدقة حتى لا يقع في فخ الإدمان.

ارتدى قميصًا أبيض اللون بأزرار سوداء، أحكم ربطة عنقه الداكنة، ارتدى ساعته ذات السوار الفضي مكملًا هندامه ببذلة سوداء رسمية.. أحدث وقع حذائه على السلم صوتًا تردد صداه في فراغ الفيلا قليلة الأثاث، عَبرَ البهو الذي انبعث فيه الدفء من مكيفات الهواء الصغيرة المثبتة أعلاه، ودخله ضوء الشمس من أكثر من موضع. توجَّه نحو جانب من البهو وُضع فيه تمثال «اغتصاب بروزربينا»، وخلفها سلم مستتر يؤدي إلى الطابق القابع تحت الأرض.. أشرف على تصميم هذا الطابق بنفسه حين ابتاع الفيلا، فأقام لها نظامًا خاصًا لصرف المياه، كلفه الكثير من الأموال لاعتماده على مضخات المياه.. حرص على عزل حجرات هذا الطابق صوتيًا عما حولها؛ فأصوات الصراخ التي تنبعث من حناجر المقيمين فيها كانت تقلق نومه كثيرًا.

قسم الكونت الطابق الأرضي لثلاث حجرات؛ كل حجرة ملحق بها دورة مياه.. توجه إلى أحد الحجرات وكتب كلمة سر الباب الإلكتروني الخاصة بها، ثم فتح قفلها اليدوي.. كانت الحجرة بيضاء

تمامًا، مضاءة بالكثير من مصابيح النيون.. يقبع في أحد أركانها رجل مسن قصير القامة، ذو ملامح جامدة خالية من أي تعبير. كان يرتدي جلبابًا أبيض جعله يبدو جزءًا من ديكورات الحجرة، نائمًا على الأرضية المبطنة بكتل إسفنجية سميكة مغطاة بأكثر من ملاءة بيضاء، كان العجوز ينظر في شرود نحو السقف متأملًا أشياء لا يراها غيره، كانت نظرته خاوية تمامًا، لم يبدُ عليه أنه قد لاحظ دخول الكونت من الأساس.. اقترب الكونت منه مربتًا على رقبته من الخلف كمن يحنو على كلب حراسته الوفي، وأرغمه على الجلوس مسندًا ظهره إلى الحائط، استلقى الكونت واضعًا رأسه فوق فخذ العجوز في وضعية الجنين، وقال للمسن بصوتٍ هادئ بعد تنهيدة طويلة:

- اللي أنت فيه بقالك سنين ده اسمه «شكنجه سفيد»، لو ليك في الفارسي -وده مستحيل طبعًا- هتعرف إن الكلمة دي معناها «التعذيب الأبيض»..

لم يبدُ على العجوز أنه قد سمع الكونت من الأساس، فربت الكونت على فخذه بحنان قائلًا:

- عارف إني كل مرة بشرح لك.. بس أعمل إيه؟ أنت اللي ذاكرتك ضعيفة.

لم ينبس العجوز بحرف، فأكمل الكونت بعد ضحكة قصيرة ناظرًا في عيني العجوز:

- الطريقة دي ممنوعة في كل البلاد تقريبًا ما عدا إيران؛ بيستخدموها هناك في تعذيب المعارضين للنظام، بصراحة أول ما قريت عنها افتكرتها تهريج.. أصل يعني إيه أعذب واحد بإني أحطه في مكان

مفيهوش غير اللون الأبيض وأعزله تمامًا عن أي كل حاجة؟!

نزلت دمعة بسيطة من عين العجوز الذي بدا كأنه لم يفهم ما يُقال.. تجاهل الكونت دمعته، وأكمل كأنه يذكر نفسه:

- واحد في سنك وحالتك النفسية وقت ما خطفتك كان مستحيل يستحمل طرق التعذيب التقليدية، وبصراحة أنا نفسي ما بفضلهاش.. بس التعذيب الأبيض ده فكرة عظيمة؛ مع الوقت بيقتل كل حواسك، بيضيع هويتك وشخصيتك، بيخليك حيوان عايش تاكل وتنام، ماعندكش القدرة إنك تفكر في أي حاجة.. مفيش حالة واحدة استحملت الطريقة دي من غير ما يجيلها انهيار نفسي.

نظر الكونت في عيني الرجل من موضعه، وقال بعد أن تنهد طويلًا:

- بس أنت الوحيد اللي تعذيبك بالنسبة لي غاية.. مش مجرد وسيلة عشان أعرف منك حاجة.

نهض الكونت من مكانه بحركة مفاجئة متوجهًا نحو طبق أبيض كبير موضوع في ركنٍ من الحجرة، ملأ يده بقليل من الأرز الأبيض المسلوق؛ لم يأكل العجوز غيره منذ سنوات، وعاد للعجوز محركًا فكه السفلي بقوة، وضع في فمه الكثير من الأرز، ضغط على شفتيه حتى سعل العجوز وكاد أن يختنق، اقترب من أذنه، قال وهو يجز على أسنانه:

- أنت مشروع عمري، أكتر حد كرهته في حياتي.. تعرف إني قعدت كتير أحلم باللحظة دي؟ وكل مرة بشوفك فيها بالشكل ده بفرح زي ما تكون أول مرة.. طول السنين دي بستمتع وأنا بشوفك



بتموت بالبطيء، بشوفك بتتحول لمسخ مش عارف هو مين ولا عايش ليه ولا قادر حتى يفكر في أي حاجة.

استعاد هدوءه ثانيةً كأن شيئًا لم يحدث، أطلق ضحكة هادئة، نظر للعجوز في عينيه بحنان، أخبره معتذرًا بضرورة مغادرته الآن، ربَّت على كتفه قائلًا بابتسامة:

- ما تخافش.. ما تخافش طول أنا معاك.

***

توجَّه الكونت إلى الحجرة المجاورة.. كانت الأقفال الموضوعة فوق بابها أقل من سابقتها، حُبِس بداخلها عدد من الحيوانات التي سكنت تمامًا حين رأته، وتراجع معظمهم أمامه يلوذون بأركان الحجرة الخالية كسابقتها، امتلأت أرضيتها بفضلاتهم والكثير من بقع الدم، وبقايا الطعام المجفف المتناثرة من أطباق بلاستيكية، وبعض الكرات البلاستيكية الصغيرة التي لم تخلُ من آثار العض.. كان يستخدمهم في إجراء تجاربه لمعرفة أشد مواطن الألم النفسي والجسدي.

اقترب من كلب ضخم من نوع Pitbull شديد الشراسة، تفرَّس في عيني الكلب الذي كان يتجنب عيني الكونت في خوفٍ ويحاول التملص منه مطلقًا نباحًا مكتومًا.. ابتسم له الكونت مربتًا على مقدمة رأسه الجريح بعد صراع مع كلب آخر.. سكن الكلب قليلًا دون أن ينظر في عيني الكونت، أخرج الكونت من جيبه جرسًا صغيرًا، وحين رنَّ صوته جن الكلب ونبح بصوت حاد، وركض مبتعدًا عن الكونت في فزع شديد، نهض الكونت راضيًا، نهض من مكانه مصفرًا بشفتيه في استمتاع، وقبل أن يخرج من الحجرة وضع



على الأرض علبة كبيرة من الطعام المجفف ناثرًا محتوياتها، وأخرج من جيبه سيجارة ملفوفة بمخدر الحشيش، أشعلها ووضعها في فم أحد القرود القابعة في ركن الحجرة، ضحك حين رأى القرد يدخن السيجارة في نهم شديد.

***

كانت الغرفة الثالثة مظلمة تمامًا.. تحسس الكونت موضع مفتاح الإضاءة حتى أنار الحجرة بمصباح أصفر اللون خافت الإضاءة.. كانت هذه الحجرة المخصصة لمهاته التي يتلقى المال لأجل تنفيذها.. أثارت رائحة الغرفة بداخله القليل من الاشمئزاز، توجَّه إلى منتصف الحجرة حيث ينام أسيره؛ موضوعًا داخل برميل واسع لا يسمح له إلا بالركوع، بعد أن تم تقييد قدميه ويده اليمنى.. أخرج الكونت قطعة سميكة من القماش، ربطها بإحكام فوق عيني ضحيته، صفعه على وجهه قائلًا بهدوء:

- باش مهندس هشام.. ممكن تصحى؟

استيقظ الرجل على صوت الكونت، تلفظ ببعض الشتائم التي تليق بطفل في مدرسة ابتدائية، ثم قال بصوت شديد الوهن:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

نظر الكونت إلى الطعام والماء الموضوعين أمام البرميل في متناول يد أسيره المنهك، رفع رأسه إلى أعلى متنفسًا بعمق، بدت على وجهه نشوة حقيقية بما يفعل، قال مبتسمًا:

- مبدئيًا بعتذر لك إني ماجيتش أخطفك من البيت بنفسي وأجرت لك واحد مخصوص.. بس لو عرفت خد مني كام أكيد هتسامحني.



ذكَّره الكونت بتركه في الظلام لمدة أسبوع مع ما يكفيه من طعام وماء، تركه دون أن يذكر سبب اختطافه ولا موعد خروجه، تركه ينام واقفًا ويخرج فضلاته في ملابسه.. وجَّه هشام عينيه المعصوبتين نحو الكونت مستدلًا على مكانه من اتجاه صوته، وقال بثبات أدهش الكونت:

- أنت شغال عندهم، وهمَ اللي أجروك تخطفني..

ردَّ الكونت مصححًا:

- أنا ما بشتغلش عند حد.. تقدر تقول عليا جلاد محترف.. بس للأمانة اللي بعمله فيك ده لمصلحة سامح، ولمصلحتك أنت كمان.

عرض هشام على الكونت -متوسلًا- أن يدفع له ضعف ما سيدفعه سامح، في مقابل أن يتركه.. قاطعه الكونت بغضب:

- أنا لو كلب فلوس مكانش حد زي سامح و كتير غيره آمنوا لي على أسرارهم، وفلوس سامح دي أنا ممكن أصرف أضعافها عشان أخليك تعمل لي اللي أنا عايزه.

قال هشام متهكمًا:

- قصدك اللي هما عايزينه.

صفعه الكونت بقسوة قائلًا:

- أنا أعلى إيد في اللعبة دي.. هما فاكرين إني بنفذ إرادتهم، بس الحقيقة إنهم بيلعبوا بقواعد أنا موافق عليها، ولولا موافقتي دي ماكانش حد فيهم قرب لك.

شرع هشام يحكي قصة كفاحه للكونت علَّه يظفر بعطفه، أخبره أنه بدأ مهندسًا صغيرًا في مدينة المنصورة، اتسعت دائرة أعماله



وزادت خبرته في وقت قصير حتى أقام مكتبًا هندسيًا بشراكة مع أخيه الأصغر، وحين اتسع نشاطهما انتقلا إلى القاهرة لمنافسة شركات المقاولات الكبيرة على العديد من المناقصات؛ كشركة «سامح أبو خاطر» الذي أجر الكونت.. فاجأه الأخير أنه يعرف القصة كاملة، وقال:

- ماتخافش يا باش مهندس.. أنا متعاطف مع قضيتك فوق ما تتصور، بس السؤال هنا: هل تعاطفي ده هيفيدك، وهل لو أنا سيبتك تفتكر هما هيسيبوك؟

سأله هشام عن المبرر لما يفعله، ردَّ الكونت ببساطة أنه يحب ما يفعل، حوَّل مجرى الحديث تجاه هشام مرة أخرى شارحًا بهدوء:

- رأس المال في أي مكان في العالم ما بيسمحش للصغيرين اللي زيك إنهم يتخطوا حد معين من الثروة؛ حد بيكون هو راسمه لك من أول يوم ليك في الشغل.. في رأيي أنت الغلطان عشان حاولت ترفع سقف طموحك فوق المسموح لك، وفي حالتك دي كان لازم تخسر..

فك الكونت قيد يد هشام اليمنى، وأمسك بكلتا يديه محاكيًا بهما شكل الميزان المتزن، وقال:

- الوجود الإنساني قايم على معادلة بين كل حاجة وعكسها، ما ينفعش أخِل بنظام كامل عشان شوية مبادئ مش شرط تكون صح.

لم يرد هشام وأشاح برأسه بعيدًا عن الكونت، قال بثقة أنه لن ينسحب من المناقصة.. ردَّ الكونت أن انسحابه سيثير الشكوك حول تعرضه للتهديد من الشركة المنافسة، وأنه يريد فقط معرفة المبلغ



المالي الذي وضعه في مظروف العطاء؛ حتى يتسنى لسامح أبي خاطر تقديم مبلغ أقل منه بقليل والفوز بالمناقصة.. وقبل أن يرد هشام قال الكونت:

لا مش عايز أسمعك دلوقتي..

أكمل حديثه بنفس الهدوء:

- ماتخافش يا باش مهندس.. أنا عايز أساعدك، أنا سهل عليا أعذبك بالطرق القديمة بتاعت محاكم تفتيش العصور الوسطى؛ وجو خوازيق بقى، أو أحطك جوة تمثال رصاص وأولع فيه من برة وأسيبك تسيح جواه، أو أقعدك على كرسي يهوذا اللي مليان مسامير.. أو حتى أقطع لك أطرافك.

ارتجف هشام حين سمع حديث الكونت، لكن الأخير أشاح بوجهه مبديًا اشمئزازه من تلك الطرق، أشعل سيجاره مثيرًا سحابة من الدخان، اقترب من أذن هشام هامسًا:

- أنا حابب آخدك في رحلة؛ رحلة جوة نفسك.. ولما ترجع من الرحلة دي هتقول لي كل اللي محتاج أعرفه، وهتعمل لي كل اللي أنا عايزه، هتعمله وأنت حابب إنك بتعمله عشاني.. عشان «الكونت».

تحولت لهجة الكونت إلى اللين، قال لهشام بصوتٍ خفيض:

- أنا كنت ناوي أجرب فيك كذا نوع من الفوبيا؛ والفوبيا اللي هتطلع مريض بيها هستخدمها في تعذيبك، بس قولت حرام.. وقررت أخليك تجربهم كلهم مع بعض في نفس الوقت.. أظن مافيش عدل أكبر من كده!

أخرجه الكونت من البرميل، لم يعبأ برائحته الكريهة، وأدخله دون



مقاومة كبيرة داخل صندوق حديدي به ثقوب كثيرة للتهوية، كان الصندوق مستقرًا في أقصى الحجرة، أردف الكونت بلهجة عملية:

- أنا مجهز لك كل حاجة من قبل ما تيجي.. وأظن واضح من الصندوق إن أول فوبيا هي الأماكن الضيقة.. أما تاني فوبيا بقى فهتحس بيها حالًا.

أطلق هشام صرخة ألم.. فأكمل الكونت حديثه ضاحكًا:

- فوبيا الحشرات.. أنا كنت سايب لهم أكل في الصندوق بس واضح إنه خلص.. وسامحني عشان حبيت أحط لمستي، وزودت لك فران مع الحشرات.

سار الكونت بخطوات بطيئة إلى الحقيبة الموضوعة بجوار البرميل، وعاد إلى هشام بخطوات متمايلة وهو يصفر بفمه، أخرج من الحقيبة مقصًا كبير الحجم، وراح يقص ملابس هشام المتسخة حتى أصبح شبه عارٍ وقال:

- تالت فوبيا هي فوبيا التعري.. عارف إنها غالبًا مش عندك لأنك متجوز؛ بس أدينا بنجرب.

حاول هشام التماسك لكن صرخة قصيرة فلتت منه.. ارتسمت المتعة على وجه الكونت الذي مدَّ يده في حقيبته مرة أخرى، أخرج منها عظامًا آدمية كريهة الرائحة، وثلاثة أكياس ممتلئة بالدم، قال بهدوء:

- رابع فوبيا هي النيكروفوبيا؛ يعني الخوف من الأشياء الميتة.. كنت ناوي أجيب لك كفن أو أي عضو مقطوع، بس قولت إنك راجل محترم ما ينفعش أعمل معاك كده.



بدأ يثقب أكياس الدم بالمقص، ويصبها فوق وجه هشام وباقي جسده قائلًا بانتشاء:

- خامس فوبيا يا باش مهندس هي فوبيا الدم..

صرخ هشام صرخة طويلة، أكمل الكونت حديثه ضاحكًا:

- احمد ربنا إنك راجل، متخيل لو أنثى والفوبيا دي عندها كان هيبقى شكل حياتك ازاي؟!

أطلق هشام الكثير من الصرخات وحاول فك قيده، كان يتشنج كمرضى الصرع ويهذي بكلمات غير مفهومة.. ولكن الكونت أعاده إلى الصندوق بحزم، وأخرج آخر ما كان في الحقيبة؛ كيسًا بلاستيكيًا به الكثير من الإبر الطبية الفارغة، لكل منها سمك مختلف عن الأخرى، شرع يثبتها بأماكن مختلفة من جسم هشام الذي لم يكف عن الارتجاف، وقال بابتسامته التي لم تتبدل:

- سادس فوبيا: هي الخوف من الإبر.. ما تقلقش السرنجات دي مش هتسيب أثر في جسمك بعد ما يتشالوا.. مش قولت لك إني متعاطف معاك؟

بدأ الكونت يغلق الصندوق الحديدي ضاحكًا، وقال لهشام الذي لم يكن واعيًا لكلامه:

- أتمنى إن الحاجات دي تجيب معاك نتيجة.. عشان لو ما حصلش هنجرب حاجات أبشع بكتير.

صعد الكونت إلى غرفته ليستمع إلى بعض المعزوفات القديمة على آلة العود، راح يتصفح بعض المواقع الموجودة على الإنترنت المظلم Dark web .. لم يُبدِ اهتمامًا بأي من طلبات التعذيب المرسلة إليه حديثًا؛



إما لبُعد مكان الضحية، أو لمحاولة أصحابها تخفيض سعر المهمة، تجاهل أيضًا الطلبات التي يشك في جدية أصحابها.. أغلق حاسبه وراح يتمايل برأسه مستمتعًا بأنغام العود..

شرع في النزول مرة أخرى للاطمئنان على هشام الذي مضى على وجوده داخل الصندوق أكثر من ساعتين.. أخرج من درج مكتبه زجاجة صغيرة تحتوي سائلًا اشتراه عن طريق الـdark web.. كلفه الكثير من «البيتكوين» المتداولة هناك.. كسر الكونت مقدمة الزجاجة بحرص شديد وسحب السائل عن طريق إبرة المحقن، ثم أعاد مكبس الإبرة للأمام قليلًا للتخلُّص من الهواء الزائد، ونزل ليجهز على ضحيته..

فتح الكونت أقفال الحجرة وهو يدندن نفس اللحن الذي كان يسمعه في غرفته، أزاح خيط عنكبوت كان متدليًا أمامه، ووضع إبرة المحقن بحرص فوق منضدة صغيرة، فتح الصندوق المعدني؛ ليجد هشام في حالة شديدة من الإعياء.. حمله الكونت حتى ألقاه في حوض الاستحمام الموجود بدورة المياه الملحقة بالحجرة، فك قيوده وتأكد من إحكام العصابة حول عينيه ثم فتح الماء فوق جسده.. بدأ هشام يستيقظ وقد نال منه الضعف.. ساعده الكونت على النهوض وتركه ينظف نفسه بنفسه.. صدرت عن هشام مقاومة واهنة وأدها الكونت بلكمة قاسية في منتصف ظهره.. أجبره على الجلوس فوق المقعد الوحيد في الحجرة وأعاد تقييده قائلًا:

- أنا دلوقتي لو عايز أعرف منك أي معلومة هاعرفها، ولو أمرتك بأي أمر مش هتتردد تنفذه لي..



أخبره الكونت أنه رآه شابًا قويًا، فقرر أن يجرب فيه تركيبة جديدة.. أمسك إبرة المحقن، وبدأ يضخ السائل في أحد الأوردة البارزة من رقبة هشام.. أكمل حديثه بنفس الهدوء:

- من فترة مش بعيدة كان فيه أبحاث بتحاول توصل لمركب محفز للخوف، مركب بيزود إفراز هرمونات الشعور بالقلق عند الإنسان.

بدأ هشام يرتجف كأنه يرى خيالات مفزعة أمامه.. فأكمل الكونت أنه وجد شخصًا عن طريق الصدفة يعرض هذه التركيبة للبيع على الإنترنت، مدعيًا إنها إحدى تطبيقات هذا البحث.. قال بلهجة استعراضية كممثل مسرح يؤدي المشهد الرئيسي لشخصيته:

- ودلوقتي هخليك تجرب خلاصة الخوف النقي؛ الخوف من غير أي سبب.

سأله الكونت عن المبلغ الذي تقدم به للعطاء، أخرج هاتفه المحمول لتسجيل ما سيقوله هشام.. بدأ هشام يهذي بكلام غير مفهوم، ثم أجابه بكل ما يريد أن يعرف، سرد عليه تفاصيل العطاء كاملةً بمنتهى التفصيل.. أغلق الكونت التسجيل ونظر في ساعة يده قائلًا:

- دلوقتي مفعول التركيبة هيظهر عليك.. هتشوف أكتر حاجات بتخاف منها.

لم يستطع هشام المقاومة أكثر من ذلك، سكن جسده وراح يبكي كالرضع، فقد شعوره بكل ما حوله، راح يتحدث مع أمه وأبيه، يدبدب في الأرض كالأطفال، حرَّك جسده بشكل عشوائي حتى سقط من فوق الكرسي، نام على الأرض مرتجفًا..

اقترب منه الكونت وهمس في أذنه بصوتٍ كالفحيح:



- شايف إيه يا هشام؟

ردَّ هشام بكلمات مبعثرة لم يفهم الكونت أغلبها، فقط ميَّز: «أمي ماتت».. «البيت هيقع».. «حد يلحقني».. «سرطان رئة».. «الكلاب».. «الشركة فلست».. «هاموت».. «هاموت».

استغرق هشام في خيالاته لدقائق، لم يحتمل المزيد وفقد وعيه، أجلسه الكونت مرة أخرى فوق المقعد بعد أن قيَّد حركته بإحكام.. انتظر بجانبه طويلًا حتى استعاد تركيزه، وقال بلهجة مرحة بعد أن صفق بيديه محييًا:

- خلاص يا بطل الرحلة خلصت.. أظن أنت دلوقتي عرفت نفسك كويس.

أطلق هشام سبة شديدة البذاءة؛ خاض في عِرض الكونت.. رد الكونت دون أن يفقد هدوءه:

- تعرف إني حبيتك بجد، وقررت أعمل لك خدمة عمرك.. أنت راجل نضيف يا هشام، ملتزم ومتدين وفلوسك حلال.. ما ينفعش تعيش في العالم ده.

استمر هشام في سباب الكونت ذاكرًا أمه بأقذع الألفاظ.. وقف الكونت خلفه، وفك عصابة عينيه، أخرج مسدسًا صغير الحجم من جيبه، صوَّبه تجاه أسيره.. شعر هشام ببرودة معدن ماسورة المسدس الملامسة لمقدمة رأسه فبدأ يتلو الشهادتين باكيًا.. وضع الكونت سبابته فوق الزناد وقال مبتسمًا:

- فرصة سعيدة يا باش مهندس.. هتوحشني.

***



٣ـ جانب مظلم

شعرتُ بالعجز المطلق؛ فأنا لا أعرف حقيقة الخطر الذي يهدد زوجتي وابنتي، ولا أعرف هوية خاطفهما.. نظرتُ إلى آدم «الخواجة» بحزنٍ حقيقي، وطلبت منه مساعدتي في البحث عن غرام ومليكة.. ربت على كتفي قائلًا بلهجة لم تخلُ من تعاطف:

- ما تخافش يا أستاذ ياسر.. أنا معاك لحد ما يرجعوا.

قال مستدركًا:

- بس حضرتك ما قولتليش.. الراجل اللي كان بيحميك قبلي راح فين!

- اختفى تمامًا؛ كأنه ماجاش الدنيا أصلًا.

سألني بقلق:

- اختفى ليه؟

أجبته بصوتٍ خفيض:

- عشان كان بيحميني.



لم تشهد المَدرَسة حَدثًا مثل هذا من قبل..

كانت الأجواء متوترة في غرفة الاجتماعات الخاصة بمدرسة Better generation التي يعمل بها أستاذ ياسر الطائي؛ فقد ثار المدرسون لوفاة زميلهم محمود صقر بعد شجار شفهي خاضه مع أحد الطلبة، طالبوا مديرة المدرسة الدكتورة «أسماء رشدي» بفصل الطالب الذي افتعل المشكلة..

تكلم ممثل أولياء الأمور مهددًا أن جميع الطلاب يتعلمون بأموالهم وأن أي مدرسة أخرى تتمنى التحاق أبنائهم بها، فلا يجوز إلقاء الذنب على الطالب.. علت الأصوات المعترضة، ردَّ أحد المُعلمين أن زميلهم مات قهرًا بسبب عدم تطبيق نظام صارم للعقاب على هؤلاء المُدللين.. وقبل أن يرد عليه ممثل أولياء الأمور قالت دكتورة أسماء بصوتها الحاد وبلهجة حازمة:

- بعد إذنكم كل واحد يعرض رأيه باحترام..

أكملت حديثها لائمة المدرس الذي تطوع للمطالبة بحق زملائه، أخبرته أنه قدوة للطلبة، ولا يجوز له الكلام بهذه الطريقة أمام مديرته ولا مع ممثل أولياء الأمور، وأردفت قائلة بلهجة حكيمة:

- وموضوع العقاب ده أنا بنفسي هتابعه مع الأخصائي الاجتماعي، هنشوف وسيلة تعلِّم الطالب المستهتر الالتزام بدون ما تأذيه نفسيًا أو جسديًا.

خفضت صوتها ناظرةً في أعين طاقم تدريسها فردًا فردًا، وأكملت بلهجة لم تخلُ من حزن:

- أستاذ صقر اتوفى لأن ده قدره مش بسبب أي حاجة تانية،



وأكيد الطالب ما يعرفش إن المرحوم كان عنده مشاكل في القلب..

أكملت حديثها مشيرةً نحو الحائط المقابل لها، والذي عُلِّقت عليه صور المدراء السابقين للمدرسة:

- وصورة أستاذ صقر هتتعلق هنا تخليدًا لذكراه.

وقبل أن يرد نفس المُعَلِّم المعترض قاطعته بإشارة من يدها، ووجَّهت حديثها لممثل أولياء الأمور، أخبرته أن ما حدث لن يتم التساهل معه، وأن ولي أمر الطالب صاحب المشكلة ملزم باعتذار شفهي وبتعويض مادي كبير تجاه أسرة أستاذ صقر، وأن إدارة المدرسة ستدفع لأسرة الأستاذ مبلغًا مماثلًا، أنهت حديثها منذرة:

- وبلغهم لو ما نفذوش الكلام ده يعتبروا ابنهم مرفود من النهاردة.

وقبل أن يعترض ممثل أولياء الأمور.. أكملت أسماء حديثها بلهجة حازمة:

- وابقى شوف مين هيقبله لما يتعرف إنه اترفد من عند أسماء رشدي.

رد الممثل متهكمًا:

- ليه هو اترفد من الجنة؟

عاد للتلميح أن جميع الطلاب يتعلمون بأموالهم تعليمًا خاصًا، فردَّ عليه هذه المرة نائب المديرة الأستاذ نبيل إسكندر:

- أنتم ما بتمنوش علينا بحاجة مش حقنا؛ المدرسة فيها هيئة تدريس مش موجود زيها في مصر...



أكمل حديثه مشيرًا نحو دكتور أسماء والمعلمين الجالسين حولها على مائدة الاجتماع بيضاوية الشكل:

- المديرة معاها دكتوراه في علم نفس الطفل، والأساتذة بلا استثناء واخدين دورات تعليمية في مهارات التعامل مع الأطفال والمراهقين، وكل واحد فيهم متخصص في مجاله؛ عندك مثلًا ميس كريستين.. خريجة كونسِرفتوار، وأستاذ عصام جودة.. ماجيستير من كلية دار العلوم، ومستر ياسر الطائي اللي بيدرس Math.. بكالوريوس هندسة قسم ميكانيكا.

التفت الجميع نحو ياسر الذي كان منشغلًا بإزالة بقعة حبر زرقاء من خلف بِنصره، تفاجأ بذكر اسمه، قابلهم بابتسامة بلهاء لا تتناسب مع الموقف.. انتظر حتى أعرضوا عنه وعاودوا نقاشهم، راقب وجوههم دون أن يركز فيما يُقال، لاحظ أن أحد الأساتذة لم ينزل عينيه عن صدر أستاذة كريستين.. كما لاحظ نقر دكتورة أسماء بسبابتها على كوب الماء الموضوع أمامها؛ بدا عليها التوتر، خمَّن أنها تدرس موقفها من الطرفين المتعاركين محاولةً الخروج بأقل الخسائر.. فكر فيما حدث له بالأمس مع أخته سلوى، وكيف سيرد اعتباره بعد أن أُسريَ به ليلًا إلى شقة «محطة الرمل» بهذه الطريقة.

نجح ممثل أولياء الأمور في جذب انتباه ياسر للحديث حين أخرج هاتفه المحمول، وقرب شاشته من وجه دكتورة أسماء قائلًا:

- أنا كنت ساكت احترامًا للموقف.. بس عايزكم تشوفوا أستاذ محمود صقر كان كاتب إيه على صفحته في الفيسبوك، قبل ما يموت بكام أسبوع.



مرر الهاتف على الجالسين واحدًا تلو الآخر؛ كان المكتوب من قِبَل المُعلِم الراحل أنه يتمنى لو عاد نظام العقاب بالضرب للمدارس كما كان الوضع فيما سبق، ثم أردف قائلًا:

- أستاذ صقر مات مقهور عشان معرفش يمارس ساديته على أولادنا!

قوبلت عبارته بالكثير من صيحات الاستهجان، ردَّ عليه الأخصائي الاجتماعي معترضًا:

- الكلام واضح إنه متقال بصيغة هزار لأنه بيضحك بعد ما قاله.. بعدين وصف سادي صعب يتقال على أي حد.

قال بلهجة حاسمة أن أستاذ صقر -رحمه الله- ليس ساديًا؛ لأنه كان سيخفي حقيقته ليحمي نفسه ومن يحب، ارتشف رشفةً من كوب الشاي الموضوع أمامه وأردف قائلًا:

- وفي نفس الوقت ممكن أي حد يكون فينا مريض بالسادية.. حتى لو لسه ما اكتشفش الجانب المظلم ده من نفسه.

سأله ممثل أولياء الأمور ساخرًا:

- يعني بسهولة أي حد ممكن يطلع سادي؟!

ردَّ الأخصائي بلهجة مقتضبة:

- ممكن.

***

اقترب عسكري الشرطة من السيارة التالية في الكمين.. تظاهر أنه لم يلحظ شعار الشرطة الملصق فوق زجاجها الأمامي المعتم؛



تنفيذًا لتعليمات الضابط المسئول عن الكمين.. كان يعلم أن هذا اليوم لن يمر بسلام، قال بلهجة ريفية جامدة لقائد السيارة:

- رخصك يا بيه..

نظر قائد السيارة للعسكري بازدراء من خلف نظارته الشمسية، وقال مشوحًا بيسراه:

- مقدم حمزة درويش، وسع الطريق يا بني..

ردَّ العسكري بلهجة متوسلة:

- أمير باشا مشدد علينا نشوف الكارنيه.. وحضرتك ما ترضاليش أتأذي.

جزَّ المقدم حمزة على أسنانه وصاح فيه بغضب:

- روح انده لي الغبي اللي قال لك تمشي التعليمات دي على الرتب الأعلى منه!.. عشان أنقلكم الواحات أنتوا الاتنين.

ثم أردف بصوتٍ سمعته السيارات القريبة:

- فيه محامي اتقتل في المحكمة اللي على أول الشارع.. وأنا رايح أقابل القيادات اللي أهم مني ومن اللي بيأمرك عشان نشوف هنعمل إيه في الكارثة دي!

لم يرد العسكري وتحرك لينادي الضابط المسئول عن الكمين، ثم تراجع بعد أن سار خطوتين وفتح الحاجز المعدني مترددًا.. ضرب حمزة كفًا بكفٍ موبخًا العسكري الذي ظل يعتذر طويلًا، لوَّح لحمزة متمنيًا له السلامة وطالبًا منه العفو.. بعد أن ابتعدت السيارة بصق العسكري على الأرض لاعنًا حمزة بكل الألفاظ التي يعرفها، وكانت كثيرة.



ما لبث أن عبر حمزة من الكمين حتى زفر بارتياح، التقط أنفاسه ناظرًا نحو حقيبة الظهر الطويلة التي وضعها أسفل المقعد الخلفي من سيارته، كانت محتويات هذه الحقيبة كفيلة بخروجه من الخدمة والحكم عليه بالإعدام!

***

وصل المقدم حمزة درويش أخيرًا إلى منزله بالتجمُّع الخامس، بعد أن مرَّ بعدة كمائن أكثر تساهلًا من الكمين القريب من المحكمة.. ملأت أنفه رائحة العطن المنبعثة من شقته التي لم تنظف ولم تزرها الشمس منذ زمنٍ. وضع حقيبته الثقيلة بجوار باب الشقة، تحرك ببطء حتى وصل إلى حجرة نومه، ألقى بجسده على الفراش، لم يبالِ بصوت الصرير الذي أحدثه خشب السرير.

لم يتخيل يومًا أنه سيلتقط أنفاسه في نصف ساعة كاملة؛ افتقد جسده الرياضي كما افتقد العمل الميداني بعد سنوات طويلة من الجلوس في المكاتب وعمل المباحث الذي لا ينتهي.. نهض من الفراش متوجهًا نحو الحمام؛ تقاعس عن الاستحمام مكتفيًا بغسل وجهه وجانبي رأسه.. وضع القليل من «كريم» إزالة تجاعيد البشرة حول عينيه، ومرر يديه بين خصلات شعره بعد أن دهنهما بزيت يمنع تساقط الشعر؛ كان يحاول يائسًا إخفاء تأثير الزمن على مظهره الخارجي، خاصةً بعد أن وجد لحياته هدفًا جديدًا.

مشى عدة خطوات بملابسه الداخلية في طرقة بيته الواسع حتى وصل إلى المطبخ، صنع لنفسه كوبًا كبيرًا من القهوة وطبقًا من الشعرية سريعة التخضير.. لم يحب قط رائحة مكسبات الطعم التي



تضاف لها أثناء التسخين.. لكنه اضطر للتعوُّد عليها؛ خاصةً أن حالها لم يكن أسوأ بكثير من طبخ زوجته التي حصلت على الطلاق منذ شهور قليلة.. بعد أن فشل تمامًا في إصلاح ما تم إفساده بينهما.

عاد حمزة إلى غرفة نومه ثانيةً، جلس أمام حاسبه الآلي يتناول عشاءه ويشرب القهوة.. طالع وجهه في إحدى المرايا التي تغطي خزانة ملابسه كبيرة الحجم؛ لم يدرك متى غزا الشيب جوانب شعره، ولا متى ظهرت تلك الهالات السوداء أسفل عينيه.. قرر البحث لاحقًا على الإنترنت عما يخفي هذه الآثار جميعًا.

تأكد من ضبط جميع إعدادات الأمان التي تعلمها من صديقه الذي يعمل في مباحث الإنترنت التابعة لوزارة الداخلية، فتح موقعًا على الجانب المظلم من الإنترنت Dark Web.. كان الموقع يُسمى DarkEgypt خاص بتأجير المجرمين داخل مصر.. جلس معطيًا ظهره لحائط أبيض خالٍ من أي علامة مميزة، ارتدى قميصًا داكنًا كان في متناول يده، وأخرج من حقيبته قناعًا أسود اللون وبدأ يسجل لنفسه مقطعًا مصورًا ليبثه على الموقع مباشرةً، غيَّر صوته بأحد البرامج وقال بفخر:

- أنا ميزان العدل..

أخرج من حقيبته كاميرا مزودة بشاشة صغيرة وعرض ما فيها أمام مشاهديه:

- زي ما أنتم شايفين ده القصاص التالت ليا.. أنا قتلت النهارده دراع من دراعات الشيطان؛ طول ما هو واللي زيه عايشين كفة العدالة هتفضل مايلة.



كان الصوت مشوشًا في المقطع المُسَجَل الذي يعرضه بفعل الهواء، ظهر في المقطع أحد المحامين، كان خارجًا من المحكمة مرتديًا بدلة باهظة الثمن وعلى وجهه علامات السعادة، محاطًا بالكثير من المهنئين وبعض من الصحافيين الذي حاول المتدربون لديه إبعادهم، تجاهلهم جميعًا وتوجَّه نحو سيارته الفارهة، وقبل أن يركبها سقط، بعد أن اخترقت طلقة سلاح القناصة قلبه. أكمل حمزة حديثه قائلًا بلهجة مسرحية بعد أن فرد يديه بفخر:

- أنا ميزان العدل.. بعترف قدامكم إني المسئول الوحيد عن اغتيال المحامي ناجي الطحاوي..

أردف قائلًا بعد أن عرض سلاح القناصة غالي الثمن أمام المشاهدين:

- آخر قضية كسبها الراجل ده كانت قضية فساد بمليارات ضد مسئول كبير في الدولة.. الخاين ده كان السبب في هروب مجرمين كتير من أفعالهم؛ ستارة بتحمي الغيلان اللي بيخربوا في البلد دي؛ زيه زي الموقع ده بالظبط.

أنزل السلاح من أمام الكاميرا بحرص، قال بلهجة أقل حدة أنه قرر تطهير هذا الموقع بنفسه، سيصل إلى جميع المجرمين الموجودين عليه، ليطبق فيهم العدالة التي لم تطلهم بعد، أردف موجهًا حديثه لمشاهديه بصوتٍ عالٍ:

- وقصاصي القادم هيكون من الكونت.

***



بعد انتهاء الاجتماع الطارئ بالمدرسة اضطر ياسر لسماع عبارات المواساة الفارغة من بعض زملائه الذين سمعوا بخبر إزالة العمارة التي كان يقطن بها، رفض بعض عروض المساعدة الوهمية من مديرة المدرسة، أخبرها أن كل شيء على ما يرام وأن أخته لم تتركه حين علمت بأمر قرار الإزالة؛ فنظفت له شقته الموجودة بعقار أبيه في محطة الرمل، وظل زوجها معه طوال الليل حتى قام بنقل متاعه إلى الشقة ذات المساحة الأكبر.

ركن ياسر سيارته أسفل محل إقامته الجديد، رفع فرامل اليد التي أصدرت صوت صرير يدل على قدمها، أغلق باب السيارة ناظرًا لانعكاس وجهه على زجاج السيارة الجانبي؛ ليجد نظرة منهكة صادرة من عينين منتفختين اشتياقًا للنوم بعد ساعات مرَّت عليه كالدهر، ضبط من وضع ملابسه المكونة من قميص أبيض لا يظهر منه سوى ياقته، ارتدى فوقه «بول أوفر» أزرق من الصوف، وسترة سوداء اللون.

تعمد ألا يصعد إلى البيت باكرًا، كان يتجنب صدامًا حتميًا مع غرام التي لم تتوقف عن توبيخه بعد ما فعلته سلوى بالليلة الماضية.. لامته على ضعف الشخصية واتهمته بالعجز عن حماية أسرته.. أقنعها بالكاد أن تؤجل هذا الشجار حتى يعود من المدرسة فوافقته مضطرة. أكثر ما آلمه حين سمعها تهمس بدعاء «أعوذ بالله من قهر الرجال».. تجاهل تلميحها حتى لا يُصعِّب الموقف على نفسه، تأكد أنها ستتأقلم مع الوضع الجديد؛ كان يثق في حبها له، ورغبتها في «تمشية المركب»، علاوةً على أنها وحيدة في مصر من دونه، حتى أقاربها في سوريا تعمَّد أن يقطع صلتها بهم منذ زمنٍ بعيد.



بدأ يتجول في منطقته السكنية الجديدة؛ كان يعرفها جيدًا لكنه لم يرها بعين الساكن من قبل، اتخذ مقعدًا داخل مطعم «كبدة أولاد الفلاح» الشهير ليتناول غداءه بتمهُّل.. تكلَّم مع أحد الجالسين إلى جواره والذي عرف فيما بعد أنه يدعى «الحاج صالح»، موظف سابق بمصلحة الكهرباء، كان يرتدي وشاحًا صوفيًا تفوح منه رائحة المسك، عرف أنه يسكن في نفس الشارع.. تطوع الرجل وراح يشرح لياسر الكثير عن تاريخ المنطقة؛ كمقهى أتينيوس ومقهى ديليس الذي يعود تأسيسهما لأكثر من مئة عام، وبعض الأماكن التي كان يحب الملك فاروق زيارتها.. لم يبدِ ياسر اهتمامًا كبيرًا بما سمع وسأله عن الأماكن التي سيحتاجها كالمتاجر وورش السيارات والمسجد.. فأجابه «الحاج صالح»، وحذره من الاقتراب من الحانة الموجودة في نهاية الشارع مستعيذًا بالله ممن يرتادونها.. سأله ياسر إن كان يعرف «عبد الحي الطائي»، فأجاب الرجل بفمٍ ممتلئ بالكبدة:

- لما أنا نقلت هنا كان هو مشي.. بس سمعت إنه راجل ناقص؛ ساب مراته وبنته وسافر مصر اتجوز عَيلة صغيرة مش من سنه.

ابتلع ياسر الجملة الأخيرة ولم يخبره أن هذه «العيلة» كانت أمه، سأله عن سلوى ورافي.. فوضع «الحاج صالح» إبهامه أسفل شفته العليا، وأردف قائلًا:

- الجنيه ما بيطلعش من جيوبهم غير عشان يجيب أخوه، رافي تاجر سيارات كبير، والست سلوى فاتحة مركز دروس بعدينا بشارع.

عَصَر صالح نصف ليمونة فوق آخر رغيف أمامه، تجشأ أمام



ياسر دون حياء.. قاطع حديثهما مرور طفل صغير يبيع المناديل، فأعطاه ياسر آخر رغيف أمامه، ونهض ليحاسب على ما أكلاه، أقسم عليه «الحاج صالح» أن يدفع هذه المرة، فأبدى ياسر اعتراضًا ودفع لكليهما.. ساعده ياسر على النهوض والإمساك بعصاه التي يتكئ عليها، نظر «الحاج صالح»نحو حنطور متوقف بجوار المطعم، مبديًا تأففه من رائحة روث الحصان الذي يجره، أكمل حديثه عن سلوى قائلًا:

- كل سنة بتزود مصاريف الدروس على العيال لحد ما الأهالي قربوا يشحتوا.. حفيدي كان بيروح لها.

سأله ياسر عن مكان حفيده الحالي، فهزَّ «الحاج صالح» كتفيه وقال بصوتٍ متهدج:

- أبوه خده هو وأمه وهاجروا كندا.

بدا على «الحاج صالح» التأثر حين أتى ذكر أهله.. حاول ياسر تغيير الموضوع فأخبره ضاحكًا أنه أخو سلوى وابن «العَيِّلة» التي هجر عبد الحي الطائي أسرته لأجلها.. شعر صالح بحرج شديد، اعتذر محاولًا تقبيل رأس ياسر الذي منعه مبتسمًا، أخبره أنه يتفق معه في كل ما قال لتفلت ضحكة من «الحاج صالح» كاشفة عن عدد قليل من الأسنان الصفراء بفعل التدخين.. جلسا على مقهى صغير بالمنطقة، ليكتشف ياسر ولع جاره الجديد بالنرجيلة التي لم تفارق يده.. خرج الدخان من فم «الحاج صالح» حين تحدث قائلًا:

- المعسل ده ماركة مخصوص بتجيلي من الشرقية..

سعل بعدها «الحاج صالح» مباشرةً بقوة، بصق في منديله القماشي



لاعنًا الدخان.. لم يعلق ياسر مكتفيًا بالضحك، لم يحب يومًا أن يكشف عن ذاته من أول جلسة، أدرك «الحاج صالح» بذكائه الفطري طباع ياسر ولم يعلق.. دعا بعض أصدقائه من كبار السن لمشاركتهما الجلوس ولعب الطاولة، وبعد جلسة طويلة لم تخلُ من القهقهة والحديث في كافة أمور الحياة؛ بدءًا من الحسرة على زمنٍ جميل قد مضى، وسخرية من الأجيال الجديدة، والتغزل في مفاتن نساء المنطقة بصوت خفيض، وبعض النقاشات العابرة في كرة القدم والسياسة، وقد عرف ياسر أن «الحاج صالح» يحب الزمالك ويحفظ الأسامي الرباعية لكبار لاعبيه.. نظر ياسر في ساعة يده، اطمأن أن موعد نوم غرام قد فات عليه أكثر من ساعتين، فنهض معتذرًا من الجميع لأنه سيسافر غدًا إلى القاهرة حيث عمله الآخر.

فتح ياسر باب الشقة بحرص، لم ينجح في منع صوت الصرير العالي الذي صدر عنه، لمح ابنته مليكة على ضوء مصباح صغير في الصالة، كانت جالسةً في انتظاره؛ وقد غلبها النعاس فوق أحد المقاعد القريبة من الباب، محتضنة دميتها المفضلة التي اتخذتها صديقة وهمية.. كانت قد ورثت عن أمها عينيها الواسعتين كعيني الدمى، حين ينظر في عينيها الصافيتين كالسماء؛ فيرى من خلالها كل ما هو بريء في عالمه، ووجهها الأبيض دقيق الملامح.. لم تأخذ من شكله إلا الشعر الأسود، لم يعرف يومًا ما الذي تفكر فيه قبل أن تنطق به؛ دائمًا ما تقول غرام أن مليكة قد ورثت عنه هذه الملامح الجامدة.. وضع حقيبة يده على الأرض، حمل مليكته برفق حتى أودعها بجوار أمها، استيقظت مليكة قائلةً بصوتٍ ناعس:

- ممكن تصالح ماما؟



أشار لها واضعًا سبابته أمام فمه كي تصمت، ابتسم لها في حنان مقبلًا وجنتها اليُمنى، حاول ألا يوقظ زوجته التي تنتظره لتعلن ثورتها عليه.. نظر في قبضة مليكة ليجد سنًا جديدًا قد فقدته، فابتسم هامسًا في أذنها بلهجة مطمئنة:

- نامي دلوقتي مكاني وأنا هنام في مكتبي.. وبكرة الصبح هصالح ماما وهنغني للسِنة عشان يطلع لك غيرها.. اتفقنا؟

لم يعطها فرصة للرد، كان يعلم أنها تنتظره في الأساس لتفتح موضوع تربية القط ثانيةً، تسلل على أطراف أصابعه نحو الصالة حيث ترك حقيبة يده التي فتحها مخرجًا حاسبه المحمول منها.. شم رائحة طعام تركته له زوجته التي لم يمنعها الغضب عن واجبها تجاهه، لم يمس الطعام، وترك إلى جواره علبة من الشيكولاتة البيضاء التي تحبها غرام، توجه نحو أصغر غرف الشقة التي احتلت كتبه نصف مساحتها، واحتل مكتبه الصغير النصف الآخر منها. خصص هذه الغرفة لينعزل بداخلها وسط كتبه وأوراق العمل -كما كان الحال في الشقة القديمة..

حين فتح باب الغرفة شم رائحة قوية لمبيد الحشرات. قام بتشغيل حاسوبه المحمول بعد أن وضعه فوق المكتب ووصَّل شاحنه بالكهرباء.. جلس أمام المكتب ليبدأ في ممارسة عادة التجسس الإلكتروني على من يعرفهم، مع الوقت تحوَّلت هذه العادة هوسًا شديدًا لا يستطيع الإقلاع عنه..

لم يأخذ قرصي المنوم كعادته الليلية، كان يعلم أن تعب اليوم



سيضمن له نومًا هادئًا، نظر نحو مكتبته الكبيرة المرتبة بعناية خلف مكتبه، كان قد عزف عن مطالعة كتبها منذ فترة، كانت ثقيلة أثناء النقل لكنه حرص على إعادة ترتيبها طيلة الليل.

بدأ جولته شبه اليومية مقتحمًا حسابات التواصل الخاصة بالموجودين بدائرة معارفه؛ قرأ محادثة بين سلوى وبين أحد المراهقين الذين يترددون على مركز الدروس الخاص بها، بدأت المحادثة تقليدية يستفسر فيها المراهق عن مواعيد بعض الدروس، ثم اتخذت شكلًا حميميًا؛ فلم يكمل ياسر قراءتها، ضحك طويلًا في سره على زوج أخته «رافي» الذي يظن أنه الخائن الوحيد في بيته، والذي اكتشف ياسر خيانته لسلوى بنفس الطريقة.

كان ياسر على علم بمخطط سلوى كاملًا منذ أيام حين تجسس عليها، وقَبِل بدور الضحية فيه، كان يطمح في استلام ميراثه والانتقال إلى هذا المسكن منذ زمن؛ لكنه أراد لسلوى أن تعتقد أنها المتحكمة في كافة الأمور، وأن كل شيء يسير وفق إرادتها.

انتقل إلى هواتف زملائه في المدرسة فلم يجد منهم جديدًا؛ فهذا الأخصائي الاجتماعي مديون ببعض أموال القمار لجاره.. وهذه معلمة الموسيقى ترفض المزيد من المتقدمين لخطبتها، وتحلم بأحد أقباط المهجر لينتشلها من «الجحيم» على حد وصفها.. وذلك معلم اللغة العربية الدرعمي تبدو منه شماتة واضحة في وفاة زميله بالأمس.. وتلك معلمة أخرى تتصل بشخص سجلت اسمه على هاتفها «سعد الديلر»، وتطلب منه أن يحضر لها الحشيش.. وذلك موظف الخزينة الذي يبتاع من أحد المتاجر الإلكترونية مقتنيات باهظة لا تتناسب مع راتبه..



تصفح هاتف مديرته الدكتورة أسماء رشدي، كانت تعيش وحيدة بلا أهل أو زوج، وهبت حياتها المملة للعمل الأكثر مللًا.. كان متنفسها الوحيد يتمثل في حساب وهمي على موقع facebook تتحدث من خلاله مع بعض الفتيات من ذوات الميول المثلية، في البداية ظن ياسر أنها ستنصحهم بالعدول عما يفعلون.. لكنه وجد منها انغماسًا تامًا في الأمر، ورغبة منها في التقرُّب لإحداهن.

كان يحب غرام لأنها لا تخفي عنه الكثير.. حتى موضوع حملها الذي اكتشفَته صباح اليوم، ولم تصرح به إلا لصديقتها المقيمة في أمريكا أخفته لسبب رآه وجيهًا؛ فقد أخبرت صديقتها أنها لم تعد تثق في قدرات ياسر على حماية أسرته.

فكر ياسر أكثر من مرة أن يتوقف عن التجسس على هواتف المقربين منه؛ لم يعتد ذلك الهَوَس بدافع الفضول، فقط كانت تدفعه غريزة البقاء، أراد أن يتوقع تصرفاتهم حتى يأمن تبعاتها، كان يرغب في تغيير قدره المترتب على مخططاتهم.

علمه اختراق الخصوصية أن البشر مجرد خطايا نُفِخَت فيها الروح، وسوء الظن بهم فضيلة؛ فمهما تخيل فيهم من شر وجد منهم ما هو أسوأ.. فمن كان يصدق أن تصدر مثل هذه الأفعال من هؤلاء الأشخاص البرَّاقين كذهب زائف، خالٍ من العوج الخارجي، بل إن أحدهم إن رأى أسراره في شخصٍ آخر لتأفف منه..

أدرك مع الزمن أن بداخل كل بشري جانبًا مظلمًا؛ لا يخاف فقط من أن يراه الناس، بل يخشى أن يكتشفه في نفسه!

***



٤- جانب أكثر إظلامًا

« ثاناتوفوبيا؛ الخوف من الموت.. »

قالها الكونت ضاحكًا بعد أن ضغط زناد سلاحه الذي كان فارغًا منذ البداية.. انهار هشام عدلي مرة أخرى على الأرض، بكى أمامه بصوتٍ خفيض اختلط فيه النحيب بنطق الشهادتين، كان وجهه غارقًا في خليط من الدموع والعرق الغزيرين.. لم تتوقف ضحكات الكونت، كانت ملامحه تشي باستمتاع حقيقي، ووضع يده على كتف هشام الذي ظل يرتجف دون أن يفهم ما حدث له، وقال:

- ودي كانت آخر فوبيا حبيت أجربها عليك يا باش مهندس.

اقترب من أذنه هامسًا بابتسامة:

- ماظنش هتنساني بقية حياتك.. أنا علمتك درس غيرك عاش ومات من غير ما يفهمه، أو حتى يدرك وجوده.

حاول هشام أن يلتفت ليرى وجه الكونت، لكن الأخير بادره بضربة عنيفة على مؤخرة رأسه، أعقبها بإحاطة رقبة هشام بذراعه الأيمن حتى قطع عن رئتيه الهواء وسقط مغشيًا عليه.. حمله الكونت داخل سيارته الرياضية الفارهة، اتصل بنفس الرجل الذي كلفه من



قبل بخطف هشام من منزله، فأبلغه بمكانه الحالي، واشترط عليه أن يعيد هشام إلى أهله سالمًا قبل أن يعطيه النصف الآخر من أتعابه، شدد عليه أن يلقي بجسد هشام أمام بيته في ساعة متأخرة من الليل ويهرب سريعًا.

***

تجمَّع بعض من أهالي إحدى المناطق الشعبية المطلة على النيل لمشاهدة سباق سباحة رتب له مجموعة من شباب المنطقة، اعتادوا جميعًا السباحة في النيل حتى اقترح أحدهم هذا النزال الذي لم يحدث بهذه الصورة من قبل.. اصطف المتسابقون جميعًا منكمشين من برودة الجو، متخذين وضعية الاستعداد للقفز في المياه، كانت أجسامهم متشابهة؛ نحيلة سمراء، يبرز من خلال لحمها القليل عظام الضلوع والترقوة، ارتدى معظمهم لباسًا قطنيًا يستر عورة الجسد ولا يستر عورة الفقر.

راح أحد الشباب يعيد عليهم قواعد السباق؛ شرح لهم أن شوط الذهاب ينتهي عند بلوغ السبَّاح مركب الصيد الموجودة على بُعد خمسين مترًا تقريبًا، والفائز من ينهي شوطي الذهاب والعودة قبل منافسيه.

أشار أحد المتفرجين متسائلًا عن شاب يتوسط المتسابقين ويختلف عنهم كثيرًا، تعجَّب من حلاوة ملامحه وشعره أشقر اللون الملموم إلى أعلى على طريقة محاربي الساموراي، ورداء السباحة الذي يرتديه، أجابه شخص آخر وهو يتابع بداية السباق:

- ده عيل غريب عن المنطقة اسمه الخواجة.. مصاحب الواد «جمال شُكمان» والواد رضا النقَّاش.

- بس ده شكله ابن ناس.. إيه يخليه يمشي مع الأشكال الضالة دي؟

بعد دقائق قليلة أنهى «الخواجة» شوط الذهاب في السباق متفوقًا بفارق كبير على منافسيه الذين كانوا يسبحون بطريقة عشوائية لا تدل على أي تدريب.. سمع تحية صاحبه «جمال شُكمان» فازداد حماسةً، قرر أن يخوض شوط العودة سابحًا على ظهره مستعرضًا مهارته في السباحة حتى أنهى السباق لصالحه.. ارتدى نعلًا خفيفًا ومشى سريعًا مع جمال «شُكمان» ورضا، هاربًا من تزاحم الأطفال حوله، كانوا يحبونه لأنه يعطيهم الكثير من ماله، توجَّه نحو بيت شُكمان الذي صار يعرف مكانه جيدًا وسط البيوت والعشش الصغيرة التي ملأت المنطقة.. لحق بهما رضا صديق جمال، والذي ربت على كتف «الخواجة» قائلًا:

- أنت فيه حاجة مابتعرفش تعملها؟!

أضاف «شُكمان» أن «الخواجة» بدا كأنه لا يشعر بالبرد برغم نزوله الماء في الشتاء؛ عكس باقي المتسابقين من شباب المنطقة.. ضحك «آدم الخواجة» معلقًا في ثقة أن شتاء مصر ليس بهذا السوء، ذهب لتغيير ملابسه في غرفة نوم جمال الصغيرة الخالية من الأثاث؛ إلا من فراش بسيط وبعض الحُصر يدوية الصنع.. بدأ يجفف جسده مبديًا تأففه من رائحة جسده بعد السباحة في النيل، تأمل رضا جِذع الخواجة

بانبهار، كان جسده رياضيًا متناسقًا، أبدى رضا إعجابه بالوشوم التي لم يخلُ جذعه منها، توقف قليلًا عند صليب صغير أخضر اللون تم دقه على ساعد الخواجة الأيمن، تساءل رضا قائلًا:

- أنت فعلًا اسمك الحقيقي آدم؟

لاحظ الخواجة ما ينظر إليه رضا، فردَّ ساخرًا:

- وأنت فاكر إن مفيش آدم مسيحي؟ لازم أبقى مايكل يعني؟

حاول شكمان تغيير الموضوع فقال مازحًا:

- بس اتأخرت علينا المرادي يا خواجة.. فينك من آخر عملية؟

ردَّ آدم وهو يرتدي حذائه الرياضي أبيض اللون قائلًا:

- أنا باجي وقت ما فلوسي بتخلص.. أنا مش حرامي طفس زيك يا شُكمان.

ابتلع جمال الإهانة ولم يرد.. شعر الخواجة بالندم على ما قال، فحاول تغيير الموضوع ضاحكًا:

- بس تصدق ماعرفش ليه سموك «شُكمان» لحد دلوقتي.

ضحك رضا بصوتٍ عالٍ.. حاول «جمال شُكمان» أن يخرسه بلكمة قوية في ذراعه.. قال رضا موجهًا حديثه للخواجة وسط ضحكاته:

- أصله قبل ما يسيب المدرسة الإعدادي كان بييجي لنا كل يوم فطران بيض.. وعينك بقى ما تشوف إلا النور.

ضحك الخواجة وضرب كفه بكف رضا.. أكمل رضا حديثه عن ماضي «شُكمان» أنه كان بدينًا وكان الأطفال يتحرشون به لفظيًا وأحيانًا جسديًا، حتى تشاجر مع أحدهم وتمكن منه تمامًا؛ فاكتسب هيبته.



قاطع الخواجة استرسالها بلهجة عملية:

- بصوا عملية بعد بكرة دي سهلة جدًا.. هنروح نسرق لنا شوية مال سايب.

هزَّ جمال رأسه بفهم:

- الحكومة؟

- بالظبط كده.. أنا دخلت على الsystem بتاع شركة الكهربا، وعرفت إن خزنتهم فيها ربع مليون لسه ما اتحولوش للبنك.. أنا هاخد النص وإنتوا اقسموا النص التاني.

أشعل رضا سيجارة نفَّاذة الرائحة، رد معترضًا:

- بس احنا اللي بنخش نسرق كل مرة.. وأنت بتقعد في بيتك قدام الكمبيوتر مابتعملش أي حاجة.

حاول «شُكران» إسكاته.. لكن الخواجة نظر له في عينيه، وردَّ بهدوء:

- لولا يا كان زمانكم زي أي هجَّامين ماهمش أي تلاتة لازمة.. أنا صحيح ما بتحركش من قدام الكمبيوتر.. بس حضرتك بتخش أي مكان تلاقيني مظبط لك كل حاجة، ده أنا ناقص أخلي الفلوس تنط في جيبك!

أردف «شكران» ناهرًا رضا:

- ولا.. أنت نسيت إنه مارضيش يسلمني يوم ما مسكني وأنا بسرق بيته؟

اعتذر رضا بصوتٍ خفيض وبكلمات غير مفهومة، لم يبدُ أنه



اقتنع بحصول آدم على نصيب الأسد.. لم يعبأ به الخواجة، أكمل حديثه بهدوء:

- شركة الكهربا -زيها زي معظم مؤسسات الحكومة- بقت بتستخدم نظام تحكم إلكتروني اسمه SCADA.. السكادا دي بتتحكم في كل حاجة؛ من أول الكهربا والبوابات، لحد نظام الأمان وطريقة فتح الخزنة.

هزَّ رضا وجمال رأسيهما في عدم فهم فتجاهلهما آدم وأكمل قائلًا:

- البوابة الخلفية عليها حارس واحد.. أول ما تربطوه هتلاقوني فاتح لكم البوابة وقافل الكاميرات وجايب لكم كلمة سر الخزنة.

سأله شُكمان ضاحكًا:

- يعني أنت هتقطع الكهربا عن شركة الكهربا؟!

قال الخواجة بثقة:

- طالما التحكُّم إلكتروني.. ممكن أقطعها لك عن القصر الجمهوري نفسه.

قال رضا منبهرًا:

- أنت ساحر.

ابتسم آدم وأكمل خطته قائلًا:

- المهم تفضلوا فاتحين الخط طول العملية.. عايز أسمع كل حاجة بتحصل.

سأله شُكمان متعجبًا:

- ليه كده؟!



ردَّ الخواجة:

- عشان لما تخلصوا هأبلَّغ عنكم البوليس.

قبل أن يطلقا الكثير من الأصوات المعترضة، شرح لهما «الخواجة» أهمية إبلاغ الشرطة بحادثة السرقة؛ حتى لا يتورط فيها أحد الموظفين ويتم اتهامه بالاختلاس ظلمًا.. لم يبدُ على أيهما الاقتناع بما قال «آدم الخواجة»، لكنهما لم يجدا بدًا من موافقته؛ حتى لا يلغي العملية بأكملها.. سأله شكمان بقلق:

- هنبدأ ننفذ العملية الكبيرة امتى؟

ردَّ «آدم الخواجة» بحزم:

- قريب جدًا.

***

عاد الكونت إلى مقره بعد أن ابتاع لنفسه طعامًا من إحدى الاستراحات على جانب الطريق الصحراوي.. صعد إلى غرفة نومه المرتبة بعناية شديدة، جلس أمام مكتبه، نظر بفخر نحو قطع لعبة «ليجو» التي نجح في تركيبها على شكل رافعة معقدة التصميم، شغَّل على هاتفه المحمول معزوفة على آلة العود، فتح حاسبه المحمول، بعد أن تأكد من تثبيت قطعة من شريط لاصق فوق كاميرا الحاسب؛ كان لديه هوس بالحفاظ على هويته وتأمينها ضد أي محاولة اختراق محتملة، كان يعلم أن الكثير من مخترقي الأجهزة الإلكترونية يسعون للوصول إلى شخصيته الحقيقية.. فعمله على الإنترنت جعل ثمن رقبته ذهبًا، وجعل منه هدفًا للكثير من الأفراد والمؤسسات.



بدأ يتأكد من عمل برامج الحماية التي تقوم بتشفير بيانات دخوله للموقع، كانت إجراءات التشفير الخاصة به تتم على حوالي ستة مراحل حتى تؤمِّن ولوجَه على الجانب المظلم من الإنترنت Dark Web.

انتظر تحميل المتصفح الذي يدخل من خلاله على هذا العالم.. تذكَّر المصاعب التي واجهته حين بدأ عمله على هذا الجزء المخفي من الشبكة العنكبوتية؛ فكثير من الأشخاص والمنظمات الإجرامية في مصر لم تكن على علم بوجود هذا الجزء آنذاك، كانوا يفضلون إدارة أعمالهم بالطرق القديمة، حتى جاء الكثير من المبرمجين من دول شمال إفريقيا، فنجحوا في إقناعهم بأهمية الإنترنت المظلم..

كان الكونت آنذاك يعاني من نقص في الموارد، وقلة المشتركين المصريين في الـDark web، وانعدام ثقة الموجودين في قدرته على إنجاز ما يعدهم به، كانوا يشكون أيضًا في حفاظه على سرية المعلومات التي يحصل عليها منهم..

حتى تم تأسيس موقع Dark Egypt الخاص بالمصريين المشتركين على الجانب الأكثر إظلامًا من الإنترنت.. كانت فكرة الموقع قائمة على حماية خصوصية المشتركين فيه مقابل ضريبة سنوية عبارة عن نسبة من الأرباح التي يجنيها كل مشتركٍ على حدة، كان تصميم الموقع بسيطًا يغلب عليه اللون الأسود والصور المقبضة.

في البداية لم يصدق الكونت ما رآه في هذا العالم، شاهد أسوأ ما يمكن أن يخرج من النفس البشرية، حيث كل شيء مباح في عالم يحكمه قانون اللاقانون، أدرك قيمة وجود نظام يحكم الجميع، كما



فهم ضرورة إخفاء هذا العالم الذي يعج بالمختلين عن عامة الناس للحفاظ على ما تبقى من الخير بداخلهم، وعرف أهمية وجود رقيب يطبق العقاب على الجميع.

أراد الكونت وقتها أن يثبت نفسه في هذا العالم؛ فبدأ بقبول المهمات السهلة من الأفراد الذين وجدوا في هذا العالم متنفسًا عن شهواتهم.. راح يخطف أفرادًا بأعينهم ليعذبهم بطرقه النفسية المبتكرة، بدأ بتصوير أفلام قصيرة لا يظهر فيها إلا معاناة ضحاياه، لم يعرف أحد هويته حتى الآن، لم يفضح يومًا هوية من كلَّفه بالتعذيب.. بدأ يرفع سعره تدريجيًا، وبدأت تتكون عداوات له مع بعض المنافسين.. كان ما يميزه عن غيره أنه لا يلجأ للتعذيب الجسدي الخالص، كان يعرف جيدًا ما يفعل.

تذكَّر منافسته مع رجلين كانا يمارسان التعذيب مثله على نفس الموقع المصري، أطلقا على أنفسهما لقب «التوأم»، كانا يرتديان أقنعة كرتونية ضاحكة، استمدا شهرتهما من مقطع مصوَّر قطعا فيه ذراع سيدة وأجبرا زوجها على التهام الذراع بعد طهيه.. عرف الكونت فيما بعد أن ما فعلاه كان تطبيقًا حقيقيًا لمشهد من مسلسل إندونيسي، لكن «التوأم» كانا من الجنون كفاية لتحويله واقعًا.. كان لديهم هوس بنقل قصص الرعب إلى أرض الواقع، وبالأخص القصص التي تتحدث عن قتل الأطفال المخطوفين بعد مساومة ذويهم على فدية.

كانا -على عكسه- لديهما هوس بالتعذيب الجسماني وبالأذى الجنسي، كما أن سمعتهما لم تكن جيدة؛ لأن بعضًا من ضحايا التوأم قد ماتوا أثناء التعذيب.



حاول التوأم الإيقاع بالكونت حين كلَّفاه بمهمة خطف شخص معين، حين رأى الكونت السعر الباهظ الذي وُضِع له مقابل إنجاز المهمة شعر أن هذا التكليف مجرد فخ.. فاستأجر قاتلًا محترفًا وخبأ في ملابسه جهازًا للتتبع، كان التوأم ينتظران ذلك القاتل في موقع اللقاء، فقاما باختطافه ظنًا منهما أنه الكونت.. تتبعه الكونت حتى داهم مقرهما مستفيدًا من عنصر المفاجأة، نجح بعد معركة قصيرة في تكبيلهما.. ارتدى أحد أقنعتهما وصوَّرهما على الهواء مباشرةً في الكثير من أوضاع التعذيب والمعاناة، جعلهما يبكيان معترفين له بالسيادة داخل المقر الخاص بهما والذي عذبا فيه الكثير من الضحايا، فتح رصيدهما من العملات الإلكترونية Bitcoins وقام بتوزيعه على رواد الموقع، جعل منهما عبرة.. وبرغم هذه العداوة فقد رفض الكثير من الأموال التي عُرضت عليه ليكشف عن هويتهما الحقيقية، برر رفضه بأنه لا يطمع في المال ولا في إفساد النظام الذي يُدار به هذا الموقع، أكسبه هذا الرفض ثقة كبيرة من عملائه؛ فاتسع نطاق عمله وزاد سعره نتيجة لزيادة الطلب عليه، توقف عن تصوير أعمال التعذيب التي يقوم بها.. كان هدفه الوحيد أن يشبع رغبته في إيلام الآخرين وشعوره بالتحكم التام فيهم، وأن يحصل على المعلومات المطلوبة من الضحية كما هي دون تدخل منه أو مراجعة، ويسلمها لمن كلَّفه المهمة ليحصل على باقي أتعابه.

انقطع سلسال ذكرياته حين صدر صوت تنبيه يدل على وصول أمر تعذيب جديد، كان على وشك أن يرفضه، لكنه تراجع حين عرف أن الضحية تنتمي إلى الطبقة الوسطى، وهي الفئة المفضلة بالنسبة له، تعمل موظفة في أحد الكيانات الاقتصادية الكبرى والتي



كلفته باختطافها؛ لإجبارها على الاعتراف بالمكان الذي أخفت فيه مستندات شديدة الخصوصية للشركة، كما أن العرض المالي كان مناسبًا.. فوافق وطلب من بعض البيانات الخاصة بالضحية بعد أن تعهد لصاحب المهمة بالحفاظ على سرية التعامل، عرف فيما بعد أن ضحيته اسمها «داليا القاضي»، حاول الكونت -من باب الفضول- أن يعرف هوية رئيس هذا الكيان لكنه لم يجد عنه معلومة واحدة على الإنترنت.

بدأ يستعرض الصفحة الرئيسية لموقع Dark Egypt بلا هدف محدد؛ أراد فقط معرفة ما استجد في هذا العالم الذي أدرك أبعاده جيدًا، كان جميع رواد الموقع يهابونه سواء كانوا من عارضي الخدمات أو طالبيها، بعد أن أثبت قوة وسعة حيلة، وبعد أن اتسعت علاقاته وموارده..

وجد أحد مشاهير هذا الموقع والذي أطلق على نفسه لقب «الجراح» يقوم بعمل مزاد علني على أعضاء ضحية جديدة؛ كان زبائنه من الأطباء المتاجرين بالأعضاء البشرية، وبعض الأثرياء كبار السن الذين لم يجدوا أعضاء صالحة للتبرع بالطرق المشروعة.

فتح الكونت المقطع الذي يبثه ذلك «الجراح» مباشرةً لعملية البيع.. كان يرتدي رداء الجراحة كاملًا ويغطي وجهه بكمامة طبية تعلوها نظارة داكنة، بدأ بسرد التاريخ الطبي للجسد المعروض للبيع بمهنية شديدة.. كان صاحب الجسد كهلًا، ظهر ممددًا على ظهره، مكبلًا من جميع أطرافه وقد كمم «الجراح» فمه.. كان وجهه خاليًا من أي تعبير. خمن الكونت أنه واقع تحت تأثير مخدر معين.. بدأ المزاد على قرنية العين، مرورًا بالأوتار وباقي الأعضاء الصالحة للبيع،



والتي لم يكن الكبد من بينها؛ إذ أقر «الجراح» بوجود تليُّف كبدي في مرحلة متأخرة، انتهاءً بالكلى، والقلب الذي تم بيعه بسعر أعلى من باقي الأعضاء.

لم ينتظر الكونت حتى نهاية البث.. لمح مزادًا آخر على برنامج كمبيوتر من نوع خاص، تم سرقته من وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA.. يمكن لهذا البرنامج اختراق الكثير من المؤسسات الهامة حول العالم، وشارك في تصميمه الكثير من المبرمجين ومهندسي الحاسب، فكر الكونت في أن يشتريه لكن الثمن كان باهظًا، فعلى الرغم من ثرائه؛ إلا أن الثمن كان سيكلفه معظم ما يملك في حافظته الإلكترونية.

أكمل الكونت جولته، وجد مقطعًا مصورًا لمستخدم أطلق على نفسه لقب «ميزان العدل»، لم ينجح في جذب انتباه الكونت الذي كاد أن يتجاهل هذا المقطع، قبل أن يجد اسمه مذكورًا في أحد التعليقات الملحقة بالفيديو.. فتحه ليجد هذا «الميزان» قد أعلن عن قيامه باغتيال أحد المحامين مع وعيد بالانتقام من الكونت وسط الكثير من الكلام عن الأخلاقيات التي يجب أن تعود إلى المجتمع..

انتهى الكونت من المشاهدة ضاحكًا بصوتٍ عالٍ، أرسل لصاحب المقطع رسالة تهديد حذره فيها من الانغماس في معارك مع أشخاص مثله، وأن العدالة لن تتحقق في مكان مثل الإنترنت المظلم، أخبره أنه يخل بالميزان الكوني الذي لا يعتدل إلا بوجود الشر.. ردَّ «الميزان» قائلًا أنه سيحارب من أجل العدالة حتى آخر أنفاسه.. سخر الكونت من عباراته المبتذلة واسمه المستعار الذي لم يقل ابتذالًا، ذكَّره بما حدث منذ سنتين حين حاول أفراد الشرطة الوصول إلى بيانات أحد مرتادي الموقع.. فنُصِب لهم كمينًا إلكترونيًا.. وانتهى الأمر سريعًا



بكشفهم والتخلص منهم، واختراق جميع حواسب الوزارة وتسريب بعض من بياناتها.. حتى اضطروا إلى دفع الكثير من الأموال لتغير نظام حمايتهم بالكامل.. ردَّ الميزان أنه يستعين بنظام حماية أقوى من الشرطة.. اختتم الكونت رسالته مهددًا الميزان، أخبره أنه يستطيع الوصول إليه والتخلص منه في أي وقت يريد، وأغلق نافذة المحادثة دون أن ينتظر الرد.

تابع إعلانًا لبيع طابعة ثلاثية الأبعاد ٣D printer.. كانت هذه الطابعة متطورة إلى حدٍ كبير، وكان ثمنها مقبولًا مقارنةً لما يمكنها أن تفعله؛ فيمكنها أن تطبع أنواعًا كثيرة من الأسلحة عند إمدادها بالخامات المطلوبة، مما سيجنب الكثير من الأفراد التعامل مع مؤسسات تجارة السلاح أو الأسلحة سهلة التعقب، كما أن لها القدرة على خلط نسب معينة من المواد الكيميائية لتكوين بعض المركبات غير المتوفرة؛ كالمواد المتفجرة والسموم.

وجد بثًا آخر لمستخدم من حديثي العهد بالموقع.. كان يصوِّر طفلة يبدو من ملامحها أنها من أوروبا الشرقية، لم تتجاوز العشر سنوات، كان ينفذ فيها ما يطلبه منه مشاهدي المقطع المصور نظير مقابل مادي؛ فجردها من ملابسها وضربها في مختلف مناطق جسدها.. وقبل أن يقطع أحد أطرافها، أمره الكونت أن يقتلها عارضًا على صاحب المقطع الكثير من العُملات، فنفذ الأخير طلبه وأنهى البث.

كان كل شيء مباحًا على الإنترنت المظلم؛ بدايةً من تزوير الأوراق الرسمية؛ كالشهادات والبطاقات الشخصية وجوازات السفر، مرورًا بتجارة أنواع نادرة من المخدرات والسلاح والآثار والمعادن النادرة باهظة الثمن.. علاوةً على عمليات الاختطاف والتعذيب واغتصاب



الأطفال والبالغين بأبشع الطرق الممكنة، والتجارة في البشر مع ذكر مواصفاتهم كأي سلعة أخرى، وتأجير مخترقي الحواسب للتجسس على الأفراد والحكومات.

من الممكن لأي شخص يمتلك ثروة من عملة الـBitcoins أن يفعل ما يريد؛ كأن يغتال أي شخصية في أي مكان في العالم؛ باستثناء الطبقة الحاكمة لكل دولة، أو يبتز أي شخصية عامة، والحصول على أي خدمة مهما بدت غريبة.. كان الكونت يستأجر من وقتٍ لآخر من يقوم بإضرام النار في أي مبنى مهجور، أو قطع الكهرباء عن منطقة معينة، كان يجد راحته في مثل هذه التصرفات.

زادت قيمة هذه العملات الإلكترونية بعد أن زاد الاهتمام بالإنترنت المظلم؛ كانت العملة تضمن سرية تداول المدفوعات وعدم إمكانية تتبعها، علاوة على استحالة تزويرها.. أصبحت الواحدة من هذه الـBitcoins تعادل آلاف الدولارات.

ومع الوقت زاد عدد رواد الإنترنت العميق Deep web الذين لا يسعون لأي نشاط غير مشروع؛ فقط يرغبون في المزيد من الخصوصية والحرية.. وقد كان الإنترنت المظلم يعتبر الجزء الأكثر بشاعة من الإنترنت العميق.

لم يتوقف استخدام الـDark web عند المؤسسات والأفراد من ذوي النشاط الإجرامي، ولا حتى الديني كأصحاب الديانات المستحدثة وعبدة الشيطان.. بل اتسع ليشمل الحكومات التي نجح بعضها في تغيير أنظمة حكم الدول المعادية، وتسريب الكثير من المستندات الخاصة بمنافسيها.. مثل فضح شخصيات سياسية بعينها، وتسريب بيانات ولوج المواطنين على المواقع الإباحية في دولة قائمة على



أسس دينية وأخلاقية؛ فيهدم العصبة التي نشأت منها هذه الدولة. كما وجدت الجماعات الإرهابية الكثير من الدعم في هذا الوسط المزدحم بالمرضى، فاستطاعت من خلاله الدعاية لأهدافها ونشاطاتها، ووسَّعت من مواردها وتبرعاتها.

انتبه الكونت إلى وصول رسالة جديدة.. ظن في البداية أنه ذلك المستخدم الذي يُدعى «الخواجة» ويراسله بشكلٍ دوري مرتديًا قناع الأناركية الشهير ويترجاه أن يعملا سويًا.. لكنه فوجئ برسالة غريبة من مستخدم يراه لأول مرة، خمَّن أنه محترف اختراق من خلال بياناته المحجوبة بتشفير خاص.. كانت الرسالة مكتوبة بإنجليزية معربة أقرب للغة التي يستخدمها مخترقو شمال إفريقيا:

- أنا عايز أشكرك يا كونت؛ أنت السبب في ثروتي الجديدة..

لأول مرة منذ فترة طويلة يشعر الكونت بالقلق، حاول السيطرة على دقات قلبه وحبات العرق التي ظهرت من العدم فوق جبهته.. ردَّ باقتضاب:

- والمقابل؟

- أنا بقالي شهر بدور وراك.. لحد ما قدرت أوصل لثغرات في المتصفح الخاص بيك.. ثغرات تقدر تحدد مكانك وهويتك في أقل من كام يوم.

تردد الكونت قبل أن يرد عليه، فكَّر قليلًا ثم كتب له:

- ممكن أعرف سبب اهتمامك بكشف هويتي؟

- مش أنا اللي مهتم.. أنا اتعرض عليا الفلوس قبل ما أعرفك أصلًا.. ووافقت من غير ما أفكر.



حاول الكونت أن يكسب وقت فكتب له:

- اثبت لي إن الثغرات دي بجد.

- أنت عارف كويس إنها حقيقية..

وكأن المخترق قد فهم ما يدور في رأس الكونت فأكمل حديثه قائلًا:

- ما تقلقش أنت مارتكتبش أي غلطات في التصفح.. بس للأسف محدش بيتعلم من التاريخ، أنت ارتكبت تقريبًا نفس الأخطاء اللي وقَّعت «روس أولبريخت»..

ردَّ الكونت باقتضاب:

- عارفه.. مؤسس موقع تجارة مخدرات على الـDark web..

أكمل المخترق حديثه كأنه لم يكن ينتظر ردًا من الكونت:

- اللي ماتعرفوش إن الـFBI قبضت على «روس» عشان وقع في كذا غلطة؛ يعني كان ساعات بيسأل في مواقع تقنية باسمه الحقيقي، ده غير إنه كان مبين الـTimeZone؛ فقدروا يوصلوا للبلد اللي بيدير منها الموقع.. واتسوق إلكترونيًا ببياناته العادية..

قام الكونت بمراجعة حافظته الإلكترونية سريعًا؛ لحساب كل ما يملك من Bitcoins، كتب في محاولة أخيرة للنجاة:

- أنا هأدفع لك أكتر من اللي اتعرض عليك.

-ماينفعش لسببين؛ الأول إن كلمتي واحدة..

- والتاني؟

- إن البيع تم خلاص.

***



٥- الهروب إلى الواقع

كان «آدم الخواجة» مترددًا في إخباري بما توصل إليه.. طلبت منه بنفاد صبر أن يخبرني بتخمينه.. فقال بعد أن اكتملت الصورة في ذهنه:

- الخاطف دايمًا سابقنا بخطوات، كل مكان بنروحه بيكون هو سابقنا هناك، عارف حاجات مش سهل أي حد يعرفها، ده لازم يكون حد قريب منك زي الظل بالظبط.

صرخت فيه آمرًا:

- انجز يا آدم وقول قصدك إيه؟!

- أنا عرفت مين اللي خطف غرام ومليكة يا أستاذ ياسر.

كان أيمن عدلي ثائرًا لحق أخيه هشام..

انفجر المهندس أيمن غاضبًا في وجه عسكري الشرطة الذي منعه من مقابلة مأمور قسم قصر النيل.. حاول بعض أمناء الشرطة تهدئته فأكمل ثورته في وجوههم، أطلق الكثير من اللعنات، نادى على المأمور باسمه مجردًا من الألقاب حتى يسمعه فيخرج من مكتبه..



تحت أي ظروف أخرى كان سيتم الزج بأيمن في الحبس.. لكن أحدًا لم يتعرض له بالأذى؛ فجميعهم يعرفون قصة المهندس أيمن عدلي وتردده على القسم الذي بدأ منذ أسبوع تقريبًا ولم يتوقف بعد.

خرج المأمور لرؤيته، طلب منه الهدوء ودعاه لشرب القهوة في غرفة مكتبه.. أجلسه على المقعد المقابل لمكتبه، جلس أمامه، ربَّت على فخذه قائلًا:

- أنا مقدر قلقك على أخوك يا باش مهندس أيمن.. بس ما ينفعش كل شوية تيجي تشتم في الناس اللي وقفوا جنبك لحد ما رجع لك بالسلامة.

علق أيمن مستنكرًا:

- ساعدوني؟ ده أنا بقى لي أسبوع بآجي لكم كل يوم أحكي نفس الحكاية لنفس الناس ولا حد عبَّرني.. لحد ما اللي خاطفينه زهقوا ورجعوه لوحدهم!

طلب منه المأمور أن يهدأ، اعتذر لأنه لم يلم بكافة تفاصيل القضية، سأله عن كيفية رجوع أخيه هشام.. زفر أيمن بجزع، مسح بيده على رأسه الأصلع، وبدأ يحكي كمن حكى نفس القصة ألف مرة:

- أنا وهشام فاتحين شركة مقاولات على قدنا.. اتقدمنا بعطاء في مناقصة تبع الحكومة، ومن ساعتها ومكالمات تهديد بتيجي لهشام..

سأله المأمور باهتمام حقيقي عمن كان يهدد أخيه.. أجاب أيمن:

- سامح أبو خاطر.. رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب.

أومأ المأمور برأسه بعد تفكير قصير، بدا كأنه تعرَّف على صاحب الاسم، طلب من أيمن أن يشرب القهوة التي أحضرها العسكري..



رفض أيمن أن يتناول الكوب، طلب من المأمور أن يقوم بتحرير محضر يتهم فيه «سامح أبو خاطر» رسميًا باختطاف أخيه.. تردد المأمور قبل أن يوافق على طلبه، سأله عن حالة هشام الحالية.. رد أيمن:

- هو جسمانيًا سليم.. بس تقريبًا مبقاش عارفنا، جسمه ما بطلش رعشة، عينه مفتوحة طول الوقت، وبتيجي له نوبات صريخ زي مرضى الصرع، ومافيش على لسانه غير كلمة واحدة..

أردف بعد صمتٍ قصير:

- الكونت.

***

انتفضت سلوى حين فتحت باب شقتها ووجدت زوجها «رافي أبو الدهب» في انتظارها.. سألته عن سبب عودته المبكرة من معرض السيارات، أبدت دهشتها من جلوسه في غرفة الضيوف المكتظة بالأثاث والكراسي المذهبة، أخفت انزعاجها من عودته إلى تدخين التبغ، الذي ملأت رائحته وأعقابه الغرفة، لحين معرفة سبب ضيقه.

لم يرد على أي مما قالت.. وضعت حقيبة يدها وحقيبة الطعام الجاهز الذي أحضرته معها أرضًا.. وجلست إلى جواره وقصت عليه بعض المواقف التي واجهتها اليوم في مركز الدروس الخصوصية، أخبرته بنيتها في الذهاب إلى المحامي برفقة ياسر مساء اليوم، ليبدأ إجراءات المطالبة بميراثهما من «عبد الحي الطائي».. أشعل رافي سيجارة أخرى غير التي في يده، ألقى أمامها ملفًا طبيًا وقال:

- الدكتور اتصل بيا من شوية عشان يوريني تحاليل الخلفة.



أمسكت سلوى جانبي رأسها بحركة لا إرادية، خلعت غطاء رأسها كاشفةً عن شعر مبعثر، ركعت أمامه على ركبتيها مربتةً على فخذه بحنان، سألته بقلق:

- العيب طلع مني؟

أشاح بوجهه بعيدًا، وقال بصوتٍ مرتفع:

- عشر سنين مستحمل قعدتنا في بيت أبوكي، سايبك تاخديني من إخواتي وصحابي وكل اللي أعرفهم.. ماخليتش في حياتي غيرك إنتي والشغل.. مستحمل غرورك وطمعك في كل قرش أملكه أو حتى مأملكوش.. كل ده ساكت عشان كنت فاكر إن مالناش غير بعض.

نظرت له سلوى بغضب دون أن ترد، نهضت من مكانها، همَّت أن تغادر حجرة الضيوف.. لكن رافي أمسكها من ساعدها وقال بلهجة لم تخلُ من القهر:

- مستحمل الكلام الزبالة اللي بيوصل لي عن اللي بتعمليه في السنتر.

اتسعت عينا سلوى بدهشة، فأكمل رافي بنفس النبرة المقهورة:

- انتي فاكرة اللي شغالين عندك هايخبوا عني حاجة! أنا بيوصل لي كل حاجة بتعمليها.. وإشاعة الواد اللي انتي ماشية معاه دي لو اتأكدت منها مش هرحمك.. يا بنت الكلاب ده من دور عيالك اللي لسه ماجوش!

سألته سلوى بحزم وبصوتٍ عالٍ:



- العيب طلع في مين يا رافي؟

أجاب رافي وهو يقاوم إنحدار الدموع:

- كفاية تمثيل بقى.. أنتِ عارفة كويس إن مفيش عيب أصلًا!

واجهها رافي بامتناعها على الحمل منه.. لم تدافع سلوى عن نفسها، لم تبحث عن مبررات جوفاء لن تحسن من موقفها، فقط ستزيد الأمر سوءًا.. قالت بلهجة هجومية:

- ما تحسسنيش إنك ملاك.. أنا عارفة إنك متجوز أخت شريكك في المعرض.

صمت رافي لدقيقة، ثم سألها بغضب:

- مين اللي بلغك الكلام ده؟

- ياسر.

***

قبل الفجر بنصف ساعة تحرك «شُكمان» ورضا في سيارةِ الأخير من فئة PEUGEOT، والتي خرج منها صوت الأغاني الشعبية مدويًا، كانا قد تناولا الكثير من حبوب الترامادول.. بدأ سير العملية كما خطط له الخواجة، كان العمل معه سهلًا، تكاد نسبة خطورته تقترب من الصفر..

لم يعلم «شُكمان» عن «الخواجة» الكثير منذ أن تعرفا في بيت الأخير قبل بضعة شهور، حين ضبطه الخواجة يسرق بيته أثناء انتظار رضا له في سيارته، كان الخواجة قوي الضربات سريع الحركة، عرف كيف يسيطر على «شُكمان» الذي كان أضخم منه بكثير.. أمره الخواجة أن



يتصل برضاكي يصعد إلى المنزل.. خالف الخواجة توقعهما ولم يسلمهما للشرطة، كشف لهما عن رغبته في استخدامهما لسرقة بعض الأماكن التي يستطيع اختراق أنظمتها الأمنية.. كانت هذه العملية الخامسة لهم.

ظل الخواجة متابعًا لما يجري من خلال هاتفه المحمول الذي كان متصلًا بهاتف «شُكمان»، وحين أبلغه الأخير بانتهائهما من سرقة محتويات الخزينة.. أمره الخواجة بحمل حقيبة الأموال والفرار سريعًا، أخرج هاتفًا آخر لا يمكن تتبعه، واتصل ليبلغ الشرطة عن واقعة السرقة كأنه أحد القاطنين بجوار شركة الكهرباء، حين أغلق الخط اخترق أذنه صوت طلقات نارية قادم من هاتف شُكمان، صاح فيه مستفسرًا عما حدث.. فلم يتلقَ ردًا.

بعد دقائق ردَّ شكمان بصوتٍ مرتجف:

- فرد الأمن اللي واقف على البوابة التانية دخل يصلح عُطل الكهربا.. فشافنا واحنا بنهرب.

كان الصوت مشوشًا تخلله ضجيج محرك السيارة.. سأله الخواجة بسرعة:

- وحصل إيه؟

رد شكمان باقتضاب:

- زي ما سمعت: قتلناه.

***

قاد آدم الخواجة دراجته النارية من النوع فائق السرعة Race .. تشبث به من الخلف الطبيب النوبتجي الذي كان موجودًا في طوارئ



إحدى المستشفيات الخاصة، ذهب إليه آدم وأخبره أن أخاه يعمل موظفًا للأمن في شركة الكهرباء وقد تعرض لطلق ناري أثناء مناوبة حراسته ويجب إسعافه في الحال، لم يكلف الطبيب «آدم الخواجة» جهدًا في الإقناع بعد أن اتفق معه على الأتعاب؛ ففرك الطبيب عينيه الساهرتين واتبع «الخواجة».

أراد آدم أن يصلح ما اقترفه شريكاه، كان يعلم أن سيارة الإسعاف لن تأتي في الوقت المناسب لنجدة فرد الأمن المصاب؛ فارتدى غطاء رأس من الصوف أخفى معظم ملامح وجهه وقرر إنقاذ موظف الأمن بنفسه.. وصلا إلى شركة الكهرباء قبل وصول الشرطة، طمأنه الطبيب على حالة فرد الأمن الذي لم يتوقف جسده الممتلئ عن الارتجاف، كان سلاحه خاليًا من الرصاص، أشفق آدم عليه من هذه المهنة... طلب من الطبيب أن يقوم بالإسعافات الأولية ووقف النزيف حتى يتم نقله للمستشفى.. أعطاه آدم الأتعاب المتفق عليه، وركب دراجته النارية دون حديث إضافي، تاركًا الطبيب في حالة من الحيرة.

أنجز آدم مهمته في أقل من ساعة.. حين عاد إلى شقته وجد رسالة من «شُكمان» يبلغه فيها بميعاد استلام نصيبه من العملية، تعجب من طريقة تعامله هو وزميله مع فكرة قتل إنسان؛ انهال عليهما بالسباب في سره، لم يستطع أن يصرح لهما بحقيقة شعوره تجاههما؛ فقد كان يحتاجهما في الفترة القادمة.

فتح حاسبه المحمول ليطالع آخر ما استجد على موقع Dark Egypt الذي يعمل عليه مخترقًا بالأجرة.. كان ينفق ما يجنيه من



العملات الإلكترونية بشيء من السفه؛ إما يشتري بها برامج اختراق جديدة، أو يسافر إلى أي مكان يخطر على باله، أو يعطيها لأي محتاج بشكل عشوائي.

لم يتمنَ أن يعمل مع أحد مثلما تمنى العمل مع الكونت؛ أعجبته أفكاره التي كان ينشرها من آنٍ لآخر عن ضرورة وجود الشر، وأهمية وجود معادل لكل شيء في الكون حتى تستمر الحياة بشكل متزن.. حتى وإن كان هذا المعادل غير أخلاقي.

أرسل له الكثير من الرسائل يرجوه أن يشاركه بعض الأعمال، وأنه متنازل عن أجره فيها، أخبره أنه قد توقف عن الإعجاب بالتفكير الأناركي بعد أن اقتنع بنظرية الكونت عن أهمية النظام الذي يتم التحكم بكل عناصره، حتى في طريقة الخروج عنه.. لكنه لم يتلق ردًا.

فوجئ هذه المرة برسالة من الكونت.. خفق قلبه بعنف أثناء تحميل الرسالة.. كانت الرسالة مقتضبة:

- فيه هاكر بعت لي رسالة إنه كشفني.. أنا محتاجك معايا، لأني مش قادر أوصل للهاكر اللي كان بيحميني.

رد آدم مرحبًا بالفكرة، أخبره بعنوان بيته.. فضرب الكونت موعد اللقاء، اختتم الكونت رسالته بلهجة لم تخلُ من تهديد:

- بس قبل ما أسلمك رقبتي، لازم أعرف عنك كل حاجة.. أنا معادش عندي حاجة أخسرها غير سري، فلو طلعته برة أو فشلت في حمايتي هقتلك.

***



بالكاد وافقت غرام على اقتراح ياسر بالخروج للتمشية في محيط البيت بغرض التعرُّف على منطقة «محطة الرمل» أكثر.. لم تكن مرتاحة لفكرة ترك مليكة بمفردها، وبالطبع لم تمثل سلوى لها الخيار الأمثل لرعاية ابنتها.. وعدها ياسر بجولة قصيرة أمام البحر، والعودة إلى البيت قبل أن تستيقظ ابنتهما.

أعطت غرام ظهرها للبحر، جلست بجوار ياسر مسندة رأسها على كتفه.. وعدها ألا تتحكم سلوى في حياتهما ثانيةً، اعتذر لها كثيرًا عما بدر منه.. كانت طفلة نُفِخَت روحها في جسد امرأة مكتملة الأنوثة، فتجاوزت عن الموقف وقبلت اعتذاره سريعًا، أسرت له بإعجابها بمنطقة «الرمل»، وبارتياحها بسبب الخلاص من إيجار الشقة القديمة، ومساحة الشقة الجديدة..

نظر ياسر في عينيها الزرقاوتين كعيني مليكتهما، لم يكتفِ من النظر إليهما يومًا، ووضع يده على كتفها في صمت، أحاط يديها بكفيه ملثمًا ليبث الدفء في روحها.. التقطت آذانهما صوت «أم كلثوم» الصادر عن عربة تبيع «حمص الشام» بجوارهما. استسلم كلاهما للحن «ألف ليلة وليلة»، انتظر ياسر من غرام أن تصرح له بموضوع حملها، طال انتظاره دون أن يجد ما يقول، سألها عمَّا إذا كانت سلوى قد ضايقتها.. فهزت رأسها نفيًا، وأخبرته أنها سمعتها اليوم تجادل زوجها بصوتٍ عالٍ؛ ويبدو أنها أغضبته كثيرًا.. ردَّ بنصف وعي قائلًا بصوتٍ خفيض:

- يا ريت كل الناس زيك..

شعر أن لديها ما تقول غير موضوع الحمل، حاول تناسي الأمر وبدأ يشير لها على الجانب المقابل للبحر متحدثًا عن أهم معالم المنطقة؛



كمحطة الترام، وميدان سعد زغلول، وجامع القائد إبراهيم ومبنى القنصلية الإيطالية.. أخبرته غرام أن أي شخص يعرف هذه الأماكن حتى وإن كان غريبًا عن البلد، فأضاف لها بعض المعلومات التي قصها عليه رفيقه الجديد «الحاج صالح». هزَّت رأسها في شرود دون أن تنتبه كثيرًا لما يقول.. برر لها موقفه مما فعلته سلوى، أخبرها بإمكانية رفض عرضها والبحث عن بيت جديد في أقرب فرصة، لكنه فكر في كلام أخته ووجد فيه الكثير من الصواب، وأنه كان يفكر منذ فترة في المطالبة بميراثه من أبيه المتغيب، لكن سلوى أخذت المبادرة.. تجنبت غرام الحديث عن ماضيه، فسألته قائلةً:

- فاكر أول مرة اتقابلنا فيها؟

بدا على ياسر الارتياح لتغيير الموضوع، اعتدل في جلسته وقال بصوتٍ منخفض:

- أكيد فاكر.. كنت في بداية بعثتي لأمريكا، قابلتك في الجامعة هناك، وعرفتك بحكم اللغة والثقافة المشتركة، وشلة العرب.

تناسى ياسر أنهما في الشارع، فلثم كف يدها بصوتٍ مكتوم، وضع كفها فوق وجنته، أرجع خصلات شعرها الجانبية خلف أذنها، نظر مباشرةً في عينيها، وقال:

- أنتِ الوحيدة اللي فضلت معايا لما عرفت إني مدمن كحول.. كنتي بتيجي معايا جلسات التعافي لحد ما وقفت على رجليا، وساعدتيني في الدراسة عشان أعوض اللي فاتني..

سألته غرام بصوتٍ منخفض:

- فاكر لما اتقدمت لي في حفلة توديع الجالية العربية لينا؟



أومأ برأسه إيجابًا، وأكمل روايتها قائلًا:

- بعدها بكام شهر رجعنا مصر، ومعانا أحلى حاجة في الدنيا: مليكة.

أكمل حديثه ضاحكًا:

- شوفتي أنا مذاكر ازاي.. تحبي أقول لك التواريخ؟

فاجأته غرام بسؤالها:

- ياسر اوعى تكون انتكست وشربت تاني بعد ما اتجوزنا؟

ردَّ ياسر باستنكار:

- مستحيل طبعًا..

ضمها إليه بعد صمت طويل، قال بلهجة لم تخلُ من حنان:

- عشان بقى في حياتي شخصين أهم من أي شيء تاني.

ابتسمت غرام ابتسامة خافتة، وهمست في أذنه قائلة أن حياته أصبح فيها ثلاثة أشخاص مهمين وليسا شخصين.. زيَّف عدم الفهم.. فأبلغته بحملها.. استمر في تمثيله مبديًا اندهاشه، طلب منها ألا تخبر سلوى، قال مازحًا جملة الأفلام الشهيرة: «أخيرًا هأبقى أب!».. ضحكا طويلًا حتى قبَّل ياسر رأسها.

كانت هذه من المرات القليلة التي تطلب فيها غرام من زوجها أن يبتاع لها طعامًا من خارج البيت.. وافق ياسر على الفور، أنزلها من مجلسها ممسكًا خصرها، همَّ أن يفكر فيما سيأكلان...

- باشا باشا.. فُل يا باشا؟



فوجئ ياسر ببائعة فُل خمسينية، ذات قوام عريض مليء بالشحوم، ترتدي نعلًا باليًا تبرز منه أظافر متسخة، انبثت منها رائحة خبيثة، ترك الزمن على وجهها الكثير من العلامات وآثار الجروح، ربطت ساعدها بقطعة من الشاش الأبيض، ولُطِّخَت أظافرها بالطين.. دعا لها ياسر أن يسهِّل الله لها.. استمر إلحاح البائعة مع ادعاء المرض والكثير من الدعوات لهما أن يتزوجا.. أخبرتها غرام باقتضاب أنهم متزوجان بالفعل.. فراحت تدعي لهما بالذرية، استمر إلحاحها ثقيل الظل، حتى سألت ياسر بصوت عالٍ أن يدفع لها ثمن الفُل لتتركه.. أمسكت بذراع غرام التي أبدت اشمئزازًا واضحًا.. فقد ياسر أعصابه ودفعها بعيدًا، صاح فيها بغضب وقد أطلق العنان للسانه الذي لجمه لفترة طويلة، لم تعرف غرام أن قاموس ياسر من الشتائم كبير إلى هذا الحد.. لم تدرك أن لزوجها جانبًا مظلمًا يحاول الفرار منه.

***



٦- بداية الغيث

اقتاد الكونت ضحيته الجديدة «داليا القاضي» داخل مقره على كرسي متحرك، معصوبة العينين فاقدة للوعي كما طلب من خاطفها الذي استأجره من موقع Dark Egypt.. اعتاد أن يختار شخصًا مختلفًا في كل عملية خطف، طلب من المختطف -ككل مرة- أن يخدرها، ويقابله على جانب منعزل من الطريق الصحراوي، فيضع داليا في المقعد الخلفي في سيارته الرياضية ذات الزجاج المعتم.. كان يقبض على سلاحه الشخصي أثناء عملية التبادل تحسبًا لأي محاولة من المختطف لمعرفة هويته الحقيقية.. لكن الرجل كان محترفًا ورحل سريعًا دون أن يحاول رؤية وجه الكونت.

أنزل الكونت ضحيته الجديدة إلى الطابق تحت الأرضي بصعوبة شديدة.. كانت على قدر كبير من الجمال، ذات بشرة خمرية وأنف مستقيم، كان على علم بطبيعة عملها كسكرتيرة في الشركة التي أجرته؛ فلم يتفاجأ من اعتنائها بمظهرها الخارجي.. ارتدت زيًا رسميًا من اللونين الأبيض والأسود متعمدةً أن تبرز منحنيات قوامها الممشوق ذي البشرة الناعمة، كانت في نفس طوله تقريبًا، يتخلل شعرها البُني



القصير المصفف بعناية بعض الخصلات المصبوغة بدرجة أفتح من نفس اللون.

عدَّل من وضع بذلته السوداء الرسمية.. أدخل داليا في حجرة التعذيب الخاصة بضحاياه، تركها في الداخل وذهب ليتفقد الحجرتين الثانيتين؛ الحجرة البيضاء وحجرة التجارب.

عاد إلى حجرة التعذيب التي أعدها منذ أيام لاستقبال داليا، كانت الحجرة شبه خالية إلا من مقعد وثير كبير الحجم وبعض من الأصفاد وإناء بلاستيكي ضخم ممتلئ بالماء.

قيد الكونت «داليا» بالمقعد رافعًا رأسها لأعلى، بحيث لا ترى أمامها من الحجرة إلا سقفها، قيَّد رقبتها بإحكام في وضع يترك لها حرية التنفس لكنه يجبرها على عدم تحريك رأسها عن هذا الوضع.. ثبَّت الإناء الممتلئ بالماء فوق رأسها بحوالي متر، على حامل موضوع أمامها، ثم ثقب الإناء بحرص مستخدمًا مسمار صغير.

ضبط الكونت من وضع الإناء فوق الحامل؛ بحيث تتساقط قطرات الماء من الثقب فوق جبهة داليا مباشرة في نفس الموضع..

تأمل الخطوط المرسومة بالطباشير على الأرض، كان قد رسمها أثناء تجهيزه للحجرة قبل وصول داليا، حين جلس مكانها ورفع رأسه ناظرًا إلى أعلى في نفس وضعها الحالي؛ فعرف البقع العمياء في مستوى بصرها والتي ستجعلها عاجزة عن رؤية وجهه.. وخط لنفسه حدودًا لا يتعداها حين تستيقظ داليا.

اقترب منها مادًا يده نحو أنفها بمنديل مبلل بالعطر.. استغرق الأمر حوالي دقيقة حتى استيقظت داليا، كانت ساكنة تمامًا لم تدرك



ما الذي يحدث من حولها، حركت عينيها الواسعتين بنيتي اللون في جميع الاتجاهات، ابتعد الكونت عنها حتى التزم بالحدود التي رسمها لنفسه، وقال ضاحكًا:

– مبدئيًا بأعتذر لك إني ماجيتش أخطفك من البيت بنفسي وأجرت لك واحد مخصوص.. بس لو عرفتِي خد مني كام هتسامحيني.. وسامحيني إني فتشت شنطتك، بس الاحتياط واجب.

استنشق المنديل المعطر، وأكمل حديثه ضاحكًا:

– ذوقك حلو في العطور.. Chanel مرة واحدة!

لم ترد داليا، كانت قد بدأت تسترد وعيها.. أكمل الكونت حديثه بنفس الهدوء:

– الأسبوع اللي فات كان صعب عليا، وكنت هأعتذر عن مهمة تعذيبك.. بس للأسف أنا محتاج أعمل ده.

لم يخبرها أن شهوة السيطرة لديه تبلغ ذروتها حين يشعر بانسحاب بساط التحكم من تحت قدميه.. بدأت تدرك الموقف فصرخت مطلقة صيحات الاستغاثة.. أخبرها بصدق عن التجهيزات التي زود بها هذه الحجرة لتمنع الصوت، علاوةً على انعزال الطابق بأكمله؛ حتى لا تبدد مجهودها فيما لا طائل منه.. أكمل حديثه شارحًا حالته بصدق، أخبرها أنه لو توقف عما يفعله لفترة معينة فإن القلق يصيبه، ويفقد تركيزه، أخبرها أنه يحب أن يرى الألم بعينيه، فهذه هوايته الأعظم.. أكمل حديثه بهدوء:

– بس أنا أشطر منك؛ على الأقل حوِّلت هوايتي لشغل، ما طلعتش موظف زيك.



نعتته داليا بالسادي.. ردَّ عليها بنفس هدوئه أن ما يفعله أعظم كثيرًا من المفهوم الضيق عن السادية، قال لها بهدوء:

- ماتخافيش يا آنسة داليا.. أنا متعاطف جدًا مع قضيتك، بس السؤال هنا: هل تعاطفي ده هيفيدك، وهل لو أنا سيبتك هما هيسيبوكي؟

لم يبدُ على داليا انزعاجها من قطرات الماء المتساقطة فوق جبهتها، طلبت من الكونت أن يأتي بأقسى ما لديه من طرق التعذيب.. ضحك الكونت وأكمل حديثه مستعيدًا فحوى الرسالة التي وصلته منذ أيام على حسابه بالإنترنت المظلم:

- مزعلة الشركة اللي بتشتغلي فيها ليه يا داليا؟ ده أكل عيشك يا ماما.

لم ترد الأخيرة، اكتفت بصمت طويل.. أغمضت عينيها كأنها في كابوس تريد الخروج منه بأي ثمن.. أردف الكونت قائلًا:

- بيقولوا إنك سرقتي ملفات مهمة ومخبياها.. خمنت إنهم دوروا في بيتك وفي كل مكان ممكن تروحيه، ولما يئسوا كلموني قبل ما تتهوري وتعملي تصرُّف تندمي عليه.

بدا له أن جدران صمودها لم تتحطم بعد، قالت بثقة:

- أنا لو جرى لي حاجة الملفات دي هتبقى في كل حتة وهافضح الشركة اللي مشغلاك.

ردَّ الكونت ناهرًا:

- أنا ماحدش مشغلني، أنا اللي بختار شغلي بنفسي.. وملفات



بالسرية دي مستحيل تآمني لحد عليها؛ شخصية زيك مستحيل تثق في حد.

قالت بلهجة لم تخلُ من خنوع:

- أنت لو عرفت الملفات دي إيه هاتساعدني أعرف بيها كل الناس...

قاطعها الكونت بهدوء:

- الشركة اللي «مشغلاكي» أكبر شركة لحوم واستيراد معلبات في مصر.. أكيد معاكي ورق يثبت إنهم بيدفعوا رشوة عشان الجمارك، وتقارير وزارة الصحة.. وأكيد معاكي صور من قلب غرفة التصنيع؛ تلاقيه مكان قذر مليان فران، والعُمَّال مش واخدين احتياطات النضافة.. ده غير الحيوانات المريضة اللي بتترمي في المكن بدمها، وحاجة تقرف.

أكمل حديثه بصدق:

- بس هاتعملي إيه يعني؟ هما بيشتغلوا كده وناجحين.. خلاص: دعه يعمل دعه يمر.

بدأت علامات الانزعاج من قطرات المياه تبدو على ملامح داليا، فأكمل الكونت محاولًا إقناعها:

- أنتِ فاكرة لو فضحتيهم بالملفات دي حد هايهتم؟

أكمل حديثه ملوحًا بيديه في لهجة مسرحية:

- هايخرجوا للناس في البرامج اللي بيرعوها بفلوسهم، وهاينفوا كل كلامك، والناس هتصدق.. هيصدقوا عشان هما عايزين يصدقوا!



مش عايزين حد يقول لهم إن اللي بياكلوه ده مليان أمراض.. الناس عايزة اللي يطمنهم، حتى لو كداب، وحتى لو هما عارفين إنه كداب.

بدأ الألم يظهر على وجه داليا؛ راحت تعض على شفتيها وتحرك جانب فمها وعينها اليسرى في لزمة عصبية خرجت دون إرادتها.. توجَّه الكونت نحو باب الحجرة، أخبرها أنه سيعود بعد ساعتين ليحصل على إجابات ترضيه، أشار برأسه نحو إناء الماء، أخبرها أن الصخرة مهما بدت صلبة إلا أن قطرات الماء الصغيرة قادرة على تفتيتها.. لم ترد داليا، واستمرت في تظاهرها بالجلد.. تبدلت ملامح وجهه فجأة، ورفع صوته قائلًا بلهجة قاسية:

- فوقي لنفسك يا داليا.. انتي مجرد سكرتيرة متعينة بقالك كام سنة في قطاع خاص مابيرحمش، مرحلة العشرينات اللي فرحانة بيها دي هتعدي هوا، وهاتكتشفي إنك تور بيجر ساقية مافيهاش مية!

كاد أن يغادر لكنه التفت لها وقال مستدركًا:

- وماتعمليش عليا دور الشريفة.. لأن أكيد وراكي منافس عايز يوقع الشركة دي، هو اللي حاميكي وبيقبضك فلوس تشتري بيها «بيرفيوم» تمنه أكبر من مرتبك!

***

لم يتوقع آدم أن يستقبل أي رسائل من «فيروز»..

كانت هذه المفاجأة الثانية له بعد رسالة الكونت، كان خطاب فيروز ورقيًا مرسلًا عن طريق البريد بتاريخ مر عليه أكثر من ثلاثة أسابيع.. جلس في غرفة معيشته مقربًا وجهه من الورق الذي لم يخلُ



من رائحة فيروز، لم ينسها قط؛ كما لم ينسَ لمسة يدها وشفتيها.. بدأ يقرأ فحوى الخطاب بعينين متسعتين:

« آدم الذي لم أظلم أحدًا مثلما ظلمته..

لا أعرف ما الذي تمنيته لي حين أبلغتك قراري بقبول الزواج من «رمزي» والسفر معه إلى إيطاليا؛ بِناءً على نصيحة «أبونا»..

فإذا تمنيت أن أندم على ما اقترفت، فاعلم أن أمنيتك قد تحققت، ولا ألومك على ذلك.

بعد فترة قصيرة من السفر أدركتُ حقيقة ما اقترفته في حق نفسي وفي حقك، اكتشفت أن رمزي ليس ذلك الناسك الملتزم الحريص على زيارة الكنيسة في الإجازات بحثًا عن رفيقة عمر تشبهه.. تركتك يا آدم بسبب خطاياك، لأرتمي في أحضان إبليس ذاته.

لم أرَ مع «رمزي» يومًا حسنًا، لم أجد منه إلا كل قسوة وعنف، حتى بعد إنجابي لم أسلم من لسانه ويده، يغيب نهارًا في العمل ويسهر طيلة الليل يبدد ما جناه صباحًا.. وهكذا.

باع الكثير من ممتلكات الشقة ومن الذهب الذي اشتراني به قبل الزفاف.. لم يكن ليمانع أن يبيعني إن وجد لي ثمنًا، ولنفسه خادمة مطيعة غيري.

تحملت منه الكثير لأجل طفلنا الذي أصبح شَعرةً رفيعة تربطني به؛ فأرخيها حينًا وأشدها حينًا كي لا تنقطع. حتى ضاق صدري بأفعاله، فأنذرته بإبلاغ أهلي في مصر أو بالاتصال بأحد أفراد الجالية القبطية، هددني بتغيير عنوان المنزل وحبسني بداخله.. بعد أن أخذ هاتفي المحمول مستغلًا جهلي باللغة.

تركت هذا المظروف مع جارتي التي لم أفهم معظم حديثها، وطلبت منها بصعوبة أن ترسله إلى عنوانك في مصر.. قبل أن ينقلني رمزي من جوارها.

ستجد مع الخطاب بعض البيانات عن رمزي.. أعرف أنك تجيد التعامل مع الحواسب، فأرجو أن تنسى ما ارتكبته في حقك، وتحاول الوصول إلى مكاني في أسرع وقت ممكن، لا أريد منك إلا مساعدتي على العودة إلى مصر...»

لم يكمل آدم الرسالة، فقد لمح ظلًا منعكسًا خلفه مباشرةً من خلال شاشة التلفزيون المنطفئة أمامه.. انبطح آدم على الأرض في نفس اللحظة التي أصابت رصاصة هذا المجهول شاشة التلفزيون، لو تأخر ثانيتين كانت ستصيبه الرصاصة في منتصف رأسه.. تحرك آدم بسرعة جنونية متفاديًا أكثر من طلقة مكتومة الصوت، خمَّن أنه قاتل محترف فتجنَّب الاشتباك المباشر معه، استغل الثواني التي قام فيها هذا المأجور بتغيير خزينة مسدسه ودفعه بعنف من أمام باب غرفة المعيشة راكضًا نحو باب الشقة.. أثناء فرار «آدم الخواجة» من بيته تعثر في تمثال معدني يخص أباه المتوفي؛ كان عبارة عن تجسيد لأنبا لا يذكر اسمه يرتدي في رقبته صليبًا معدنيًا ثقيل الوزن، سقط الصليب أرضًا بعد ارتطام آدم به.

تغلَّب آدم على أوجاعه، وحمل التمثال، ألقاه تجاه هذا المأجور الذي صوَّب سلاحه تجاه آدم، نجح التمثال في إعاقة القاتل المأجور الذي صدرت عنه صرخة ألم، فخابت رصاصته مشتتةً عن هدفها، التقط آدم الصليب المعدني من الأرض، وخرج من الشقة مسرعًا.



لحق به القاتل المأجور بسرعة محاولًا اللحاق به.. وقف أمام السلم في حيرة؛ لا يدري هل هبط آدم مغادرًا العقار، أم فرَّ إلى السطح.

لم يجد أي أثر لآدم.. لم يعرف مكان اختفائه إلا بعد أن تلقى ضربة قوية فوق رأسه بالصليب المعدني أفقدته التوازن، فهم متأخرًا أن آدم زيَّف هروبه واختبأ بجوار باب الشقة مستغلًا اندفاع المأجور بحثًا عنه، حاول القاتل أن يصوب مسدسه تجاه رأس آدم لكن الأخير كان أسرع هذه المرة أيضًا؛ فعاود ضربه على رأسه بالصليب مهشمًا وجهه.

تحسس آدم رقبة المأجور بحثًا عن أي نبض، فلم يجد إلا سكونًا.. جثا على ركبتيه بجواره؛ عاري الجذع حافي القدمين، نجح في السيطرة على انتفاضة قلبه، حتى بدأ في التقاط أنفاسه، وحاول أن يستوعب الموقف، والتفكير فيمن يريد الخلاص منه.

***

- ماعادش فيه ضمير في أي حاجة يا آنسة داليا.. حتى التعذيب بقى صيني.

هكذا افتتح الكونت حديثه مع داليا التي تبدل حالها تمامًا عما كانت عليه منذ ساعتين، كانت قد دخلت في نوبة من البكاء الهستيري، وزادت حركة جانب وجهها الأيسر حدة، ونزف الدم من شفتيها.. أكمل الكونت حديثه شارحًا بلهجة تقريرية لم تخلُ من استمتاع، أخبرها أن التعذيب بالماء من أشهر أنواع التعذيب؛ فمن المُعذِّبين مَنْ يغرق ضحيته بالماء حتى ينقطع عنها النفس.. ومنهم من يجبر الضحية على ابتلاع كميات كبيرة من الماء حتى الموت، وهناك آخرون يقومون بإنشاء «السجن المائي»؛ وهو عبارة عن حجرة ممتلئة



عن آخرها بالمياه، إلا من بضعة سنتيمترات تسمح للضحية بالتنفس خلالها ملتصقة بالسقف..

حدثها أيضًا عن المدرسة النازية في التعذيب بالمياه؛ كانوا يوقفون ضحاياهم في مركز دائرة ممتلئة بالماء المثلج، فإن وقعت الضحية أو أرادت النوم سقطت في الماء البارد.

ظل يشرح لها باستمتاع حقيقي، لم يعبأ ببكائها ولا بالألم الشديد البادي على وجهها.. اقترب منها في الحدود التي رسمها لنفسه كي لا تراه، أكمل حديثه قائلًا:

- بس أبشع طريقة فيهم هي اللي بطبقها معاكي دلوقتي، ابتكرها جينرال صيني من حوالي خمس قرون.. للأسف مش فاكر اسم الطريقة ولا اسم صاحبها، أصل اللغة الصينية دي صعبة قوي..

أكمل حديثه قائلًا:

- كانوا بيربطوا الضحايا ويسيبوا المية تنقط فوق دماغهم في نفس الموضع من الرأس، شوية والضحية بتتحط في ضغط نفسي رهيب، كأنها صخرة بتتشرخ من جوة، بتجتاحها حالة رهيبة من التوتر والألم النفسي، وجع مالوش سبب واضح ولا مركز معين.. بالظبط زي اللي أنتِ حاسة بيه دلوقتي.

لم تستطع داليا الرد، فقط رفعت صوتها بالصرخات.. أكمل الكونت حديثه بلهجة حانية:

- لعلمك أنا عندي طرق أحسن من كده بكتير.. بس حالتي الصحية دلوقتي ماتسمحليش بأكتر من كده..



وصلت متعته إلى ذروتها، حتى تحول ألمها لشيء روتيني، وشعر بالسيطرة التامة عليها، فسألها بنفاد صبر:

-ملفات الشركة بتاعتك فين يا داليا؟!

أجابت داليا بلهجة مقتضبة:

- خزنة رقم ٠٣٧٣.. فرع بنك HSBC اللي جنب مقر الشركة.

فرح الكونت لانتصاره السهل، طلب منها ألا تخاف، وسألها بهدوء مربتًا على شعرها:

- فيه نسخ تانية؟

- لا.. وموضوع المنافس ده يا ريت ما يطلعش برة.. ده آخر فرصة قدامي عشان أهرب قبل ما يخلصوا مني.

وعدها الكونت ألا يخبرهم بقصة المنافس؛ فهي خارج إطار اختصاصه.. طلب منها أن تغمض عينيها، فعصَّبها وفكَّ قيد رقبتها، كانت منهارة تمامًا.. أعطاها حقنة مخدرة ووعدها بالاستيقاظ في منزلها، كان قد تحرى عنها وعرف أنها تقيم فيه بمفردها.

استغرقت داليا في غيبوبة طويلة، لم يسعفه الوقت ليبدي لها إعجابه باختيارها لمكان إخفاء تلكم الملفات؛ فهذا البنك هو الذي تدير الشركة من خلاله كافة تعاملاتها المادية.

صعد الكونت إلى غرفته بالأعلى، استأجر شخصًا يعيد داليا إلى منزلها دون أي يسأل عن أي تفاصيل أخرى، أرسل رسالة لمن كلفه بتعذيب داليا، أخبره بالمعلومة التي حصل عليها، ليتأكد من صدقها قبل أن يطلق صراح أسيرته.



رنَّ هاتف الكونت الشخصي، نظر فيه ليجد عبارة Private number التي تحجب هوية المتصل.. رد بقلق:

- آلو.. مين؟!

جاءه من الجانب الآخر صوت غليظ لرجل بالغ قائلًا بلهجة مقتضبة:

- فيه ست سورية مقيمة في الإسكندرية اسمها «غرام عزت».. مهمتك إنك تخطفها، وتعرف لنا منها كل المعلومات الممكنة عن جوزها.

ظهر الاستنكار على وجه الكونت ممتزجًا بشيء من الفزع، أبعد الهاتف عن أذنه ناظرًا نحوه بدهشة؛ فقد كان هذا هاتفه الأصلي، وليس الهاتف ذا الرقم المؤمَن، والذي يدير من خلاله كافة مهام التعذيب، ردَّ بعد صمتٍ طويل:

- النمرة غلط.

جاءه صوت المتصل المجهول ضاحكًا:

- آسف. شكلي اتصلت على التليفون التاني، سامحني يا كونت.. ولا تحب أنادي لك باسمك الحقيقي؟

لم يرد الكونت فختم المتصل حديثه قائلًا:

- أستاذ ياسر عبد الحي الطائي.. حقيقي اتشرفت بمعرفتك.

***



٧- الشيطان يكمن في البدايات

لم أشعر بانعدام السيطرة منذ زمنٍ بعيد..

كان وقع هذه المكالمة عليّ عظيمًا؛ كجبل ثلجي كنت أحتمي خلفه، فانهار أمام عيني في ثوانٍ.. لن تمر عواقب انكشاف أمري بسهولة؛ فهي كفيلة بتدمير كل ما استغرقني بناؤه سنين؛ أفنيت شطرًا كبيرًا من حياتي محاولًا الاختفاء أسفل هذا الغطاء الذي لم يدم، تذكرت كل محاولاتي للحفاظ على سرية ما أفعل. أغلقتُ الفيلا جيدًا؛ فلا أعلم متى سأعود إليها ثانيةً.

بدأت أقود سيارتي العتيقة عائدًا إلى الإسكندرية.. اتصلتُ بغرام لأخطرها بعودتي إلى البيت؛ تعجبت بلهجة قلقة من اتصالي في هذه الساعة المتأخرة.. تعللت أن المدرسة التي أعمل بها في القاهرة أعطتني إجازة طويلة الأمد، طلبت منها أن تغلق الباب بإحكام ولا تفتح لأحد حتى أبلغ البيت.. أجابتني بصوتٍ ناعس غير مكترث ألا أقلق عليها.

لم تشعر بشيء من النار المستعرة داخلي.. فكرت في الاتصال براغي لكنني لم أرغب في إثارة شكوكه، حاولت السيطرة على دقات قلبي والتركيز في الطريق، لتراودني ذكريات تعود لحوالي عشرين عامًا..

***



كان التقويم المعلق أمامي على الحائط وقتئذٍ يشير إلى عام ٢٠٠٥.. كانت الحانة -كالمعتاد- خالية في هذا التوقيت المتأخر، تفتح أبوابها من المساء حتى مطلع الفجر، لم يتغير معظم رواد الحانة منذ أن دخلتها لأول مرة منذ سنوات.. كانت مراقبتي لهم متعتي الوحيدة في هذه الحقبة السوداء من حياتي؛ عرفت جميع الزبائن وحفظت وجوههم وذوقهم فيما يشربون، سمعت هلاوسهم وأدركت منبع معاناة كل منهم، كنت أراهم ولا يرونني؛ فمن من السكارى كان سيهتم لوجود طفل مثلي، كان لكل منهم توقيت معين يزور فيه المكان، وبقعة معينة يفضل الجلوس فيها، وحده أبي من كان يرتاد الحانة يوميًا، لم يبرح عبد الحي الطائي مكانه أمام الساقي إلا فيما ندر، لم يغير طلبه المكوَّن من زجاجة بيرة رديئة النوع وبعض من الترمس والجرجير والسوداني..

وقعت الحانة في شارع جانبي من شوارع وسط البلد القريبة من ميدان التحرير، تقع في الطابق الأرضي لعمارة من بقايا المعمار الإنجليزي، كانت الحانة مرتفعة السقف ذات إضاءة خافتة لا تتغير، عُلِّق على جدرانها بعض الواجهات الزجاجية التي رُصَّ بداخلها زجاجات الويسكي المعتقة منذ سنين تجاوزت أعمار العاملين بالمكان، لا تُفتح هذه الزجاجات لأحد مهما كان الثمن؛ فهي دليل أصالة المكان وعلامة الجودة لرواده، احتلت أقدم الزجاجات وأكبرها حجمًا المساحة العلوية من الحائط خلف الساقي مباشرةً، يحدها من اليمين مجسم خشبي لباخرة بحرية، وعلى اليسار صورة مؤسس الحانة مع أحد رؤساء الجمهورية السابقين، كما امتلأت باقي الجدران بالكثير من الصور القديمة التي تمثل شخصيات



عامة كانت ترتاده فيما سبق، ونجح «عم كارم العوّاد» الذي يأتي الحانة ليطرب روادها، في دس نسخة من صورته مع الفنان «محمد فوزي» وسط هذه الصور. تمكن القائمون على المكان من الحفاظ على أصالته؛ فلم تطله يد الزمن التي شوهت كل ما حوله..

كانت السمة العامة للمكان هي صفاء الذهن والضحك العذب الذي يغلب على الزبائن، كأنهم يعرفون بعضهم البعض، دون أن يتبادلوا كلمة واحدة، جميعهم يبحث عما ينقصه، ويتوهم وجوده بين جدران الحانة.

أحببتُ كل شبرٍ في الحانة وطأته داخلها، دون أن أشتهي الخمر.. وأحببت من فيها باستثناء عبد الحي الطائي.. الذي قطع كل السبل التي أوصلها القدر بيننا.

في بقعة مستترة من الحانة يجلس مالكها، يراقب سير العمل من بعيد دون أن يتدخل فيما يجري؛ يتصرف كزبون عادي، ولا يبدي ملاحظاته إلا بعد انتهاء ساعات العمل.. سمعته ذات مرة أثناء الإغلاق يوبخ العاملين على بعض التصرفات، مثل السماح للزوار الأغنياء بالجلوس أمام الساقي؛ فلا يجلسون على مقاعد الصالة وبالتالي لا يدفعون ضريبة الخدمة، تعمَّد المالك الحالي أن يجعل مقاعد الصالة مريحة عكس المقاعد العالية أمام الساقي؛ فلا تنشغل هذه البقعة كثيرًا.. كان يخصم من رواتبهم إذا ما رفعوا أصواتهم داخل الحانة التي يحكمها قانون العزلة والهدوء.. وأذكر أنه طرد نادلًا بعد أن غازل إحدى العجائز المتصابيات ليحصل على زيادة في البقشيش.



وفي مقاعد الصالة يجلس «عاصم محمود» الذي كان يعمل في التمثيل، كان وجهه مألوفًا بعد أن ظهر في بعض الأعمال الدرامية في فترة التسعينات، لكن الزمن لا يرحم أحدًا، خاصةً أنصاف الموهوبين مثل «عاصم».. كان يفرح إذا ما ميز أحد رواد الحانة وجهه، فيجلس معه دون استئذان، ويحدثه عن أعماله السابقة، ورفضه للكثير من الأعمال الفنية المعروضة عليه؛ لأن الفن أصبح «سبوبة» دون مستواه، كما كان يحكي عن قصص الحب الوهمية التي جمعته مع فنانات الصف الأول.. كان الجميع يتعامل مع حديثه كنوع من أنواع الكوميديا السوداء؛ لكنني أحببته وحاولت تصديقه.

أحببت أيضًا «الهوانم».. أو هكذا لقبهن العاملين بالمكان؛ ثلاث صديقات في مقتبل العشرينات يبدو عليهن الثراء، يزرن الحانة يوم الأربعاء من كل أسبوع، تجلس كل منهن في حالة من التوحد التام مع ما تشربه، فتنعزل وتكتفي به عمن حولها.. أذكر يوم عرض أحد الرواد على إحداهن أن يدفع لها ثمن ما تشرب مقابل مرافقته، فوبختته ببرودة فعل حادة حتى أهدرت كرامته، قالت له صديقتها بصوتٍ عالٍ مخاطبة جميع الرواد حتى لا يتكرر نفس الموقف: «إحنا بندخل المكان ده تلاتة وبنطلع منه تلاتة».. فاضطر مدير الصالة أن يطرد ذلك الزبون حتى يحتوي غضبهن، عرض عليهن تخفيضًا في الحساب كنوع من التعويض، لكن عرضه قوبل بالرفض.

كان «كارم العوّاد» الوحيد المسموح له بالجلوس مع «الهوانم»؛ كان هَرِمًا يأتي الحانة كل يوم بالاتفاق مع المدير، يدور بين الموائد بقامته المنحنية وخطواته البطيئة، راضيًا بما يجود عليه الزبائن.. كانت ضرباته على العود واهنة لا تتقن اللحن بحكم السن، امتاز بصوتٍ أجش لم



يخلُ من حشرجة محببة.. كان يفضل الغناء لمحمد عبد المطلب وسيد درويش ومحمد فوزي، أذكر حين طلب منه أحد الزبائن أغنية لعبد الحليم حافظ فأبدي تأففًا قبل أن يغني «على حزب وداد قلبي».. كان يحتفظ بصورة مهترئة حين كان صغيرًا وهو يصافح «محمد فوزي».. حرص دائمًا على تلقيبه بـ»العظيم فوزي».

لكن «زبون الحمام» كان أكثر من شعرت بالشفقة تجاهه، أطلقتُ عليه هذا اللقب لأنه حين يسكر يغادر الصالة متوجهًا إلى الحمام، فيغلق على نفسه الباب ظنًا منه أن أحدًا لا يسمعه، يخرج هاتفه المحمول ويتصل بطليقته، يبكي شوقًا لها ولابنتيه، يعدها أن يعود إلى عمله، وألا يعاود الشرب ثانيةً، يتوسل إليها من أجل فرصة ثانية، يرجوها أن تعود إليه.. وفي كل زيارة تتكرر المكالمة، ويزداد البكاء، ويتجدد الوعد.

ووسط كل هؤلاء كان يطوف «علاء الدين» مدير الصالة، بقامته القصيرة وقميصه الواسع المخطط بالطول الذي لا يغيره تقريبًا. أذكر حين سألته عن مهنته الأصلية.. فهز كتفيه مجيبًا أنه يعمل هنا منذ شبابه ولا يعرف لنفسه مكانًا آخر..

كان يعتبر نفسه «مسئول السلام النفسي للزبائن».. يمر على جميع الرواد ليبث ابتسامته بين الجميع، ويلقي مزاحًا خفيفًا يساعد السكارى على النسيان، كان يُشعر كل منهم أنه أهم زبون في المكان.

كان «علاء الدين» أقرب الناس لقلبي في هذه الفترة، لم أنسَ أنه توسط لي عند صاحب المكان حتى يسمح لي بدخول الحانة قبل بلوغي السن القانوني لذلك؛ حتى أراقب أبي وأصطحبه للبيت إن أفرط في الشرب،



ولم أنسَ أنه حال بيني وبين بطش «الطائي» في الكثير من الأحيان دون أن يفقد ضحكته أو يفقد «الطائي» كزبون دائم للمكان.

أتذكر فترة غيابه عن الحانة، تحوَّل المكان لما يشبه المقابر، سألت عنه أحد العاملين فأخبرني أن ابنه قد مات في حادثة سير.. لم يتوقع أكثر المتفائلين أن يعود «علاء الدين» للعمل بعد يومين من رحيل ولده، بنفس الضحكة ونفس الروح التي اعتدتها منه.

لم يكن « علاء الدين » شاربًا للكحول، أخبرني ذات مرة أنه لا يحب تأثيرها على العقل، كان يفضل الحشيش، وقال لي رأيًا لم يصرح به لأي من الزبائن: «الخمرة بتصحي الوجع، مع إنها بتنسيك سببه.. إنما الحشيش بيحسسك إنك أكبر من أي وجع».

هكذا كانت مراهقتي.. أقضي صباحها بين الكتب وليلها وسط أشباه البشر من رواد الحانة.. أتحرك بخفة مراقبًا الجميع الذين اعتبروني مع الوقت جزءًا من ديكور المكان، حتى يناديني أبي لينهرني أمامهم؛ فيتعكز عليَّ ونعود للمنزل..

- ياااااسر.. أنت يا زفت.. تعال هات لي سجاير.

كانت هذه إحدى الدقائق القليلة الذي أمقت فيه الحانة وأتمنى لو أنها لم توجد من الأساس.. تحولت أنظار جميع العاملين ورواد المكان من السكارى والباحثين عن الهدوء تجاه ذلك المراهق الذي لم يتم السادسة عشرة بعد.. قمت على مهلٍ من مكان منزوٍ في الحانة متوجهًا نحوه، ناظرًا في الأرض متمنيًا أنَّ تبتلعني، لكن أمنيتي لم تتحقق.. لمحتُ «علاء الدين» يقترب منه قائلًا:

- صوتك يا طائي.. الناس بتيجي البار عشان تروق.



ردَّ أبي بصوتٍ عالٍ:

- الولد ده لازم يتربى..

لفت «علاء الدين» نظر «الطائي» -الذي كان على مشارف الكهولة آنذاك- إلى بنياني النحيل وملابسي القديمة البالية التي لم أجد منه غيرها لأرتديه، ونظرة الانكسار التي لم تفارق عيني، قال بلهجة لم تخلُ من شفقة:

- اللي بتعمله ده مايرضيش ربنا.. أنت ما بتصرفش على ياسر مليم..

ردَّ عبد الحي بفم تساقطت أسنانه، ولم يفارقه الكحول لسنين:

- عايز فلوس يروح ياخد من أمه، ولا يهرب زيها أحسن.

رمى أبي في وجهي ورقة بخمسة جنيهات، وأمرني أن أذهب إلى الكشك المجاور للحانة لأشتري له السجائر.. أخبرته بخوف الخمسة جنيهات لن تكفي طلبه.. فصفعني على وجهي أمام الجميع، سال الدم من أنفي ونظرت له في عينه بثبات دون أن أذرف دمعة واحدة.. تدخل مالك الحانة طالبًا من الجميع عدم الالتفات لما يحدث، أمسك يد أبي في حزم وقال:

- أنت كده زودتها يا طائي..

رد عبد الحي الطائي بكلمات مبعثرة جمعها بصعوبة من عقله الغارق في التيه:

- أنا بأقعد هنا بفلوسي.

- فوق لنفسك بقى.. واحد غير ياسر كان زمانه طفش وسابك لوحدك.



صاح عبد الحي الطائي مُطلقًا سبة في حق أمي بصوتٍ عالٍ، وبعد لحظات مسح دموعه في كُم سترته البالية وعاد إلى شرابه ثانية متجاهلًا وجودي.. جذبني مدير الصالة «علاء الدين» من يدي نحو زقاق مجاور للحانة التي حفظت كل شبرٍ فيها.. سرتُ ببطء خلف «علاء الدين» حتى وصلنا إلى الزقاق المجاور للحانة، كان يرتاده العاملون لاختلاس دقائق الراحة وشرب السجائر باتفاق غير معلن مع «علاء الدين»..

نظر «علاء الدين» نحو عنقي ووضع يده عليها قائلًا بأسى:

- إيه اللي على رقبتك ده؟

تأوهت بألمٍ واضح، ولم أرد.. سألني بحزن:

- أبوك ضربك تاني؟

أجبته باقتضاب:

- خلاص اتعودت، وماتقولش «أبوك».

- الراجل ده لولا سنه ودماغه اللي فكت منه كنت خليت الجارد يضربه لحد ما يبان له صاحب.

كنتُ أعلم أن علاء الدين يشفق عليّ، لم أخبره بالسبب الذي يجبرني على البقاء رفقة ذلك السكير المجنون، حتى لا أخسر تعاطفه؛ فلم أرد أن يموت الطائي قبل بلوغي سن الرشد حتى أرثه؛ فلا يظهر لي قريب من تحت الأرض طامعًا في الوصاية عليَّ، فينهب ما سيخلفه الطائي ورائه من بقايا أملاك أبيه. كنت أعلم أن الدافع الحقيقي وراء شفقة «علاء الدين» حبه الشديد لأمي، أسر إليَّ من قبل أنه قد أحبها منذ الصغر، لكن أموال الطائي فرقت بينهما.



نظر علاء الدين إليَّ، تفحص هيئتي من أعلى إلى أسفل، زم شفتيه قائلًا بلهجة جادة:

- أنت داخل على جامعة، ولازم يبقى معاك فلوس تلبس وتتعلم زي الناس.

- شغلني في البار.. إن شا الله أمسح الحمامات.

- أنا مستحيل أرضى لك بحاجة زي كده.. ده غير إنك ما تستحملش وقفة ١٢ ساعة جنب المذاكرة.

ثم أردف بعد تفكير:

- بعدين أنت مش فقير..

طأطأت رأسي في حزن مؤمنًا على كلامه.. قلت له بحسرة:

- والله أكون فقير يا عم علاء أرحم من إني أكون ابن الراجل ده.

أردفت أن أبي قد باع كل ما يملكه لينفقه على مزاجه، فرد بهدوء:

- أبوك له أملاك كتير في إسكندرية، بس أهل مراته الأولانية مانعينه يتصرف فيها، هو اللي حكى لي الموضوع ده.

- طب أنا كده هستفيد إيه.

تذكر علاء بعض مما كان يفلت من لسان الطائي أثناء سكره، وقال:

- اللي ماتعرفوش إن أبوك باع شقق العمارة لصاحب البار، ما عدا الشقة اللي أنتوا قاعدين فيها.. وفتح بالفلوس دي حساب في البار يكفيه شُرْب باقية حياته.

لم أجد ما أقوله فأردف مقترحًا خطته:



- الحساب ده أنا اللي بخصم منه تمن اللي بيشربه الطائي، فلو كل يوم سجلت مبلغ بسيط زيادة عن اللي أبوك بيطفحه..

أومأت له برأسي حتى لا يكمل خطته التي نالت موافقتي، فلم يكن أمامي خيار آخر سوى الاقتطاع مما ينفق عبد الحي الطائي على مزاجه، وأنقذ به ما تبقى من مستقبلي.

لم يكن الطائي مجرد أب شديد؛ كان يتفنن في إيلامي، لم يمر عليَّ يومًا برفقته إلا وقد أخذ من روحي جزءًا.. اعتاد أن يوقظني كل يوم ليسبني أنا وأمي وينهال على وجهي بالصفعات، ولا يجد حرجًا من إخراج فضلاته على ما تبقى من ملابسي، أدركتُ أن صفعاته وركلاته التي تمطرني أهون عليَّ من الإهانة أمام رواد الحانة، فضلتُ أن تترك ضرباته أثرها على جسدي على أن أفقد احترامي لذاتي يومًا بعد يوم؛ حتى أصبحتُ مسخًا لا حول له ولا قوة، لا أستطيع أن أقاومه؛ فقط أنتظر معجزة اعتقدتُ لفترة أنها لن تحدث.

***

أفقت من خواطري على صوت موظف «الكارتة» الذي طالبني بتعريفة المرور، فانتبهت من شرودي ونقدته الأموال، عاودت التحرك على الطريق الصحراوي، نفخت في كفي يدي وفركتهما ببعض بحثًا عن دفء لن يدوم، وقبل أن أسبح في المزيد من ذكرياتي رن هاتفي الأصلي، كان المتصل ذلك المخترق الملقب بـ«الخواجة»، بعد أن كتبت له رقمي وطلبت منه سرعة التواصل معي لبدء العمل.. كنت أعلم أن معرفته لهويتي الحقيقية مغامرة.. لكنني لا أملك سواها. قلت له بهدوء:



- هاه مشيت ورا الرقم وعرفت شخصيتي الحقيقية ولا لسه يا خواجة؟

- أنا وعدت حضرتك إني مش هاحاول أعرف عنك حرف زيادة عن اللي أنت عايزني أعرفه.

- ياسر عبد الحي الطائي..

- ده القناع اللي عايش وراه الكونت؟!

- دور على اسمي بطريقتك عشان نختصر المسافات.. ولما تعرف عني اللي يطمنك اتصل تاني.

سألني قبل أن أنهي المكالمة:

- حضرتك قولت لي إن فيه خطر بيهددك.. ممكن تديني فكرة عنه؟

قبل أن أجيبه جاءني اتصال من رقم سلوى على نفس الهاتف، فأنهيت محادثتي مع الخواجة سريعًا لأرد على أختي التي بادرتني بصوتٍ خائف:

- إلحقني يا ياسر.. غرام ومليكة اتخطفوا.

***



٨- لقاء..

لم أكره الانتظار مثل الآن، خاصةً وإن كان السبب فيه «أم أشرف»..

جلستُ في غرفة نوم الخواجة الذي عرفتُ فيما بعد أن اسمه الحقيقي «آدم حبيب».. كان يومئ لي محييًا بهزة رأس خفيفة كل بضعة دقائق، اتفقنا دون إعلان على تأجيل الحديث لحين مغادرة الخادمة التي تقوم بتنظيف شقته.. بدا على وجهه الترقب للحديث معي، ظل ينظر نحوي بإعجاب وهو يهز قدميه في توتر، يضع سماعات أذن كبيرة حول رأسه، وقد وصل صوتها إليَّ خافتًا، بدا لي اللحن الذي يسمعه أغنية من نوع الـHeavy metal..

بدا «آدم الخواجة» قويًا؛ برزت عضلاته المستديرة اللامعة من خلال ملابسه الصيفية غير الملائمة لبرودة الشتاء.. لفت نظري أيضًا سوار قماشي ملفوف حول قدمه.

ظل يلعب حولنا طفلٌ صغير عرفتُ فيما بعد أنه «أشرف» ابن الخادمة.. نظرتُ حولي متأملًا غرفة «الخواجة»، رأيت بعض الأدوات الرياضية كالأثقال الحديدية وجهاز صغير للركض في المكان، بحثتُ



عن أجهزة الكمبيوتر التي تصورت أنه يستخدمها فيما يعمل فلم أجدها.. لمحتُ الكثير من الأقنعة التي ترمز للأناركية، والقليل من الكتب حول نفس النهج الفوضوي.

لفت نظري مرآة بدت لي باهظة الثمن، لمحتُ فيها وجهي الذي بدا عليه الإرهاق من كثرة السفر وقلة النوم، تذكرت ما حدث منذ أن عدت إلى بيتي في الإسكندرية لأجده خاويًا، قررت أن أبحث عن خاطفهما بأسلوب «الكونت»؛ فعدت إلى القاهرة مسرعًا لأقابل «الخواجة» حتى يساعدني في تعقب أثر «المجهول» من خلال المكالمة الوحيدة التي أتتني منه.

وأثناء تحركي اتصلتُ بسلوى، كانت تبكي كأنها فقدت حبيبًا، أخبرتني أنها سمعت جلبة في الطابق السفلي، فظنت أن رافي قد عاد ليصالحها بعد أن تشاجرا، أو أنني قد عدتُ من القاهرة باكرًا.. لكنها فزعت حين طرقت الباب فلم تجد ردًا، فاستنتجت أن زوجتي وابنتي تم اختطافهما واتصلت بي لأحضر.. حاولتُ تزييف الطمأنينة، وعللت اختفاء غرام كاذبًا حول غضبها مني، وسفرها للمكوث لدى إحدى صديقاتها بصحبة مليكة حتى تهدأ من ناحيتي.. أمَّنت على كلامي بذهنٍ شارد، كان صوتها مرتعدًا، لم أعتد منها هذا الخوف.. حاولتُ تغيير الموضوع كي لا تدقق في حديثي وتكتشف ثغراته، فسألتها عن شجارها مع رافي...

- أنت بقى عندك كام سنة دلوقتي يا أشرف؟

قطع الخواجة حبل تفكيري حين سأل الطفل الصغير الذي



رفع أصابع يديه جميعها بفخر.. قال لي آدم أنه أكبر من مليكة بأربع سنوات.. استنتجتُ أنه قام ببحث شامل عني لتقصير المسافات.. التقط آدم قناعًا من أقنعته وأعطاه للصغير قائلًا:

- أوعى تقطعه زي اللي فات.

أومأ الطفل برأسه مبتسمًا؛ كان أسمر الوجه مجعد الشعر، يرتدي ملابس بسيطة لم تلائم قناع الأناركية الذي ارتداه على الفور ونظر لنفسه في المرآة.. أوصاه آدم بالمواظبة على الذهاب إلى المدرسة، بدا على أشرف الانزعاج لكن آدم وعده بمكافأة إن واظب على الحضور.. نقده آدم رزمة سميكة من الأموال، وطلب منه أن يعطيها لأمه ويغادرا الآن.. شكره أشرف محاولًا التعلق في رقبته ليعانقه، فرفعه آدم ولثم وجنتيه مودعًا..

- مش كتير الفلوس دي على طفل صغير؟

رد آدم بهدوء بعد أن سمع صوت إغلاق باب الشقة:

- أمه ست غلبانة وأشرف ده له أربع إخوات بنات، أبوهم مات بالكبد من ٣ سنين...

أشرتُ له كي لا يكمل حديثه، قلتُ له بهدوء:

- الفلوس الكتير دي ممكن تضرهم مش تفيدهم.. هتعلي سقف طلباتهم من الحياة، ووقت ما الأم تكبر ومتقدرش تجيلك هايحسوا بالعجز الحقيقي.. ده غير إن أشرف ده ممكن ينحرف أو يتأذي خصوصًا إنه أكيد عايش في عشوائيات..

رد مبررًا:

- الأسرة دي احتياجاتها نقية ومباشرة ماتلوثتش بأي تقدم



بيحصل حوالينا، الغلاء مصابهمش لأن اللي نفسهم فيه تحت مستوى الرخص.

نهضت من مكاني وجلست إلى جواره قائلًا:

- مش دايمًا الخير بيكون صح يا خواجة.. ومش دايمًا الصح نفسه واضح.

طلب مني أن أناديه «آدم»، سألني إن كنت قد مارست أفعال «الكونت» على أطفال من قبل فأجبته بصدق أنني قمت بذلك ثلاث مرات ولم أشعر بمتعة؛ وأن فتوري جاء من دافع ذاتي غير أخلاقي.. أومأ برأسه دون تعليق. أخبرني بحماسه للعمل معي، وبما أننا قد قررنا التعاون وكشف جميع الأوراق، فيجب أن ينادي كل منا الآخر باسمه مجردًا.. وأن نتشاطر ما يدور بداخل كل منا كاملًا دون زيف أو إخفاء للحقائق.. أمّنت على كلامه، وقبل أن أخبره بمهمته ناولني رزمة من الأموال أكبر قليلًا من تلك التي أعطاها لأشرف، قال:

- وعشان أبقى سددت ديوني كلها، اتفضل دول.

- إيه الفلوس دي؟

- دي الفلوس اللي حضرتك دفعتها للراجل اللي أجرته من الـ Dark web عشان يحاول يقتلني هنا في البيت.. أنا فتحت موبايله وعرفت سعره.

ابتسمت قائلًا في خجل:

- آسف.. الاختبار كان صعب شوية، بس كان لازم أتأكد إنك هاتستحمل.

- أستحمل إيه؟



- إحنا بنتعامل مع شخص مجهول ومعاه فلوس كتير قادر يأجر بيها محترفين، ده دفع ملايين عشان بس يعرف أنا مين.

عقب آدم ساخرًا:

- ده لو كان دفعهم لك كان زمانك مسلم له نفسك.

لم أضحك لتعليقه، أكملت قائلًا أن هذا المجهول لديه خلل نفسي.. سألني عن حقيقة الكونت، فهمت ما يرمي إليه فأجبته صادقًا أنني لست مصابًا بالفصام، وأن الكونت مجرد هوية أخرى صنعتها لنفسي حتى أفرغ من خلالها شهوة التحكم والسيطرة التي لديَّ، وأنني أكون واعيًا ومدركًا تمام الإدراك متى أكون ياسر ومتى أصبح «الكونت».. سألني باهتمام عما إذا كان ياسر هو اسمي الحقيقي أم أنه مجرد هوية مزيفة، وستار صنعته ليغطي على هوية ثالثة.. أجبته بصدق:

- لا طبعًا.. مافيش هوية مزيفة هتكون محكمة بالشكل ده؛ بس هو فعلًا مجرد Cover للكونت.

سألني عمن أفضله عن الآخر.. فأجبته أن الاثنين عندي سواء، فكلاهما أنا.. صمت قليلًا، وسألني عن السبب الحقيقي وراء بحثي عن غرام ومليكة.. لم أتعجب من فضوله، فأجبته بتلقائية أنهما آخر ما تبقى لي في هذا العالم.. نظر إليَّ مباشرةً كأنه يحاول قراءة أفكاري، وسألني بصوتٍ خفيض:

- قصدي بتدوَّر عليهم عشان هما مراتك وبنتك اللي بتحبهم، ولا عشان هما مجرد جزء من Cover ياسر اللي الكونت مستخبي وراه؟!

- تفرق معاك؟



- أكيد.. لو هما مجرد جزء من الهوية فأنا ممكن أصنع لك مليون «ياسر» تاني، بس صعب نخاطر بهوية «الكونت».

لم أرد عليه، شعرتُ بالعجز المطلق؛ فأنا لا أعرف حقيقة الخطر الذي يهددهما، ولا أعرف هوية خاطفهما، ولا أثق في آدم.. نظرتُ نحو آدم بحزنٍ حقيقي، وطلبت منه مساعدتي في البحث عن غرام ومليكة.. ربت على كتفي قائلًا بلهجة لم تخلُ من تعاطف:

- ما تخافش يا أستاذ ياسر.. أنا معاك لحد ما يرجعوا.

قال مستدركًا:

- بس حضرتك ما قولتليش.. الراجل اللي كان بيحميك قبلي راح فين!

- اختفى تمامًا؛ كأنه ماجاش الدنيا أصلًا.

سألني بقلق:

- اختفى ليه؟

أجبته بصوتٍ خفيض:

- عشان كان بيحميني.

طلب «آدم» مني أن نبدأ في العمل، وألا نضيع المزيد من الوقت فيما لا يفيد.. فاصطحبني إلى ما أسماه «غرفة العمليات»؛ كانت غرفة متسعة تحتوي على العديد من أجهزة الكمبيوتر ومعدات أخرى لم أعرف فائدتها، شغَّل مكيف الهواء كبير الحجم الذي سبب برودة شديدة في المكان.. اعتذر أنه يستعمل أجهزة معظمها غير متطور لكنه يعوض هذا بخبرات اكتسبها منذ بدايته في عالم الاختراق وحتى هذه اللحظة، أخبرني أن «حالته المادية» لا تسمح بشراء أجهزة أحدث..



فلم أتطرق ثانيةً للتعقيب على المبلغ الذي أعطاه لابن الخادمة منذ دقائق.

تناول هاتفي الذي تلقيتُ منه مكالمة «المجهول»، وأوصله بأحد أجهزته، أخبرني أنه سيحاول تتبع المكالمة حتى يعرف هوية المتصل.. طلب مني الاسترخاء لأن الأمر سيأخذ وقتًا، فجلست مربعًا يديَّ من البرودة، فتح ثلاجة صغيرة لم ألحظ وجودها من قبل، سألني إن كنتُ أشرب البيرة فهززتُ رأسي نافيًا، فأحضر لنفسه زجاجة وناولني زجاجة من المياه الغازية..

- أنا آسف في السؤال.. بس هو حضرتك تعتبر سادي؟

ابتسمت ابتسامة خافتة، وقلتُ له بهدوء:

- وصف «سادي» غير دقيق في حالتي، اللي أنا بعمله أرقى بكتير من التعذيب؛ الألم بالنسبة لي مجرد وسيلة لغاية أعظم بكتير: للسيطرة.

نظر إلى شاشة الكمبيوتر الذي وصل به هاتفي.. أخبرني أن المتصل قد حجب موقعه بتقنية حديثة، لكنه سيحاول اختراقه، أخبرني آسفًا أن الأمر قد يأخذ أكثر من ساعتين، لم أملك إلا الانتظار والوثوق فيه.. طلب مني أن أتناول مشروبي، سألني عن أعداء محتملين أشك فيهم.. أجبته بصدق أنني لا أعرف.

سألته مجددًا عما استجد في بحثه عن المختطف، فطلب مني الصبر، وعدني أنه سيساعدني مهما كلف الأمر، حتى وإن لم أرغب في العمل معه بعد عودة غرام ومليكة..

أبديت دهشتي من مساعدته غير المشروطة.. أخبرني أنني قد



علمته الكثير، وأن تجربتي ألهمته في تحويل ما يجيده إلى عملٍ يتقاضى عليه أجرًا، وأنه كان يتبع التفكير الأناركي -الذي لم يحتفظ منه إلا بالأقنعة- حتى قرأ أحد مقالاتي التي تحدثت فيها عن ضرورة وجود النظام، حتى وإن حكم عالمًا فوضويًا من الأساس.

سألته عن مدى تعلقه بديانته التي وجدت الكثير من أيقوناتها في الشقة، عدا غرفة نومه، فأجابني بحزن:

- أنا مؤمن عادي بس مش ملتزم يعني.. دي كلها حاجات أبويا وأمي.. استشهدوا في حادثة تفجير كَنَسي من عشر سنين، كان معاهم «ملاك» أخويا الصغير، بعدها على طول أختي الكبيرة اتجوزت وهاجرت أستراليا..

أرجع رأسه للخلف ضاحكًا في أسى:

- متخيل تصحى الصبح متلاقيش عيلتك كلها؟

- وأتخيل ليه؟ ما هو بقى واقع آهه.

حدثني عن حبيبته السابقة فيروز التي تواصلت معه منذ أيام حين تصاعدت مشاكلها الزوجية، أخبرني أنه نجح في مساعدتها، وأنها ستصل مصر خلال يومين؛ بعد أن اخترق حساب زوجها «رمزي» على موقع facebook ووجد عليه الكثير مما يمكن فضحه وإذلاله به.. فساومه على عودة فيروز وابنها الذي أسمته على اسم أخيه «ملاك»، فطلقها الزوج دون تردد.

أخبرني أن فيروز هجرته حين شعرت باليأس من استعادة «آدم حبيب» الذي عشقته، آدم المتسامح الذي لا يتجاوز في الخطأ ويحاول



دومًا تحسين نفسه.. لم تجد منه بعد رحيل عائلته إلا شبح إنسان.. مسخًا لا يفعل شيئًا إلا التنفس واختراق الحواسب للحصول على المال الذي يغنيه عن أي عمل يرهق روحه الخاوية.. ذكرتني تفاصيل آخر لقاء جمعه بفيروز بالجلسة التي ودعتني فيها أمي حين كنت في العاشرة من عمري..

قلت لآدم أنني لا زلت أذكر نظرتها المنكسرة، ولهجتها التي حاولت أن تجعلها عادية:

- ياسر يا حبيبي أنت عارف كويس إني بحبك..

- وأنا كمان بحبك يا ماما..

- طيب أنا هسافر لفترة طويلة، وماعرفش هرجع امتى.

- كل ده عشان مابروحش المدرسة؟

- لأ يا حبيبي الموضوع أكبر من كده.. بس أنا وبابا ماينفعش نعيش مع بعض تاني.

نظرتُ إلى وجهها الممتلئ بالجروح والندوب، لم أملك ردًا أو دفاعًا عن عبد الحي الطائي الذي تجسد الشيطان في صورته.. لم أعرف حتى الآن مبررًا لما يفعل.. فهمتُ بعد هذا اللقاء بسنين أن صراخ أمي الذي سمعته قبل جلستنا الأخيرة بيومين كان جراء اعتداء جنسي من «الطائي» الذي لم أعرف كيف ومتى فقد عقله ولا متى امتلك عقلًا من الأساس.

- ممكن تاخديني معاكي؟

- أنا لسه ماعرفش هروح فين، وخايفة أخدك معايا يحصل لك حاجة.



لم تترك لي فرصةً للرد، ولا مجالًا للرفض، منحتني عناقًا طويلًا يليق بوداعٍ أخير.. لم تثنها دموعي عن قرارها ولا تشبثي بقدمها أيضًا.. لم أشعر بسخط تجاه عبد الحي الطائي مثلما شعرتُ في ذلك اليوم، كنت على استعداد أن أغفر له كل ما فعل معي، لكنني لم أسامحه على رحيل أمي إلى اليوم.. حتى بعد أن حبسته في حجرتي البيضاء وحولته إلى مسخ يلائم حقيقته.

حاول آدم تغيير الموضوع بعد أن شعر بالأسف تجاهي، سألني أن أخبره المزيد عن تفاصيل بداية عملي كـ»كونت»، فوجئت أنه كان متابعًا لمسيرتي المهنية منذ بدايتها حتى لحظة الانهيار على يد ذلك المجهول.. فأوجزت له حديثي عن البداية، سألته عما إذا كان أحد من الإنترنت المظلم قد عرف بما مر به الكونت من انهيار وكشف لهويته.. فأجاب بالنفي، أخبرني بقيامه بعمل نظام حماية جديد لحساباتي على الإنترنت المظلم.. لفت آدم نظري إلى أن «المجهول» لم يطمع فيما أملك من bitcoins ولم يسعَ إلا لمعرفة هويتي الحقيقية دون أن يهتم بكشفها للجميع.

ارتحتُ حين فتحت له قلبي، استعدت الكثير مما كان مدونًا في مذكراتي التي اعتدتُ كتابتها منذ رحلت أمي، وقصصت فيها أهم أحداث حياتي؛ مثل يوم أن تعلمت ابنتي السير، وسبب تسميتها بهذا الاسم، وشعوري بالحزن في أواخر شهور حمل غرام فيها؛ حين عرفتُ أنها فتاة.. وكيف أثر هذا على غرام وجعل ولادتها تمر بصعوبات، فأدركت أهمية كلتيهما في حياتي.. لم أعرف إن كانت هذه المشاعر حقيقية أم أنني اندمجت في غطاء «ياسر» حتى أصبحت أزيف مشاعره باتقان تام.



أبديتُ انزعاجي من آدم حين أشعل سيجارة ملفوفة، أخبرني أن بداخلها جرعة بسيطة من الاستروكس، تساعده على التركيز في عمله، وأنها لم تعد تسبب له هلوسة منذ فترة طويلة. تذكرتُ تعذيبي لأحد ضحاياي باستخدام نفس المادة، راح يصرخ كالأطفال وينادي على أشخاص لا يراهم سواه، ظل يردد عبارة واحدة «سامحني يا رب، أنا بحبك يا رب».. طلبتُ من آدم ألا يتناول أي شيء أثناء عمله معي...

قاطع حديثي مشيرًا نحو حاسبه بانتصار، أخبرني أنه استطاع تحديد موقع الهاتف الذي اتصل منه «المجهول»، وذكر العنوان.. نهضت مسرعًا، طلبت منه أن نتوجه للمكان على الفور.. وقبل أن أفتح باب الشقة أوقفني آدم ممسكًا بساعدي، قال بحيرة:

- مش احتمال يكون ده فخ؟

حاولت لكمه في وجهه فتفادى لكمتي في خفة، سألني باستنكار عن سبب ما فعلت.. أجبته ببساطة:

- كنت بشوفك مستعد ولا لأ.

وصلنا إلى المكان الذي حدده آدم سلفًا، كان فندقًا بسيطًا في وسط البلد، كنت أعرفه جيدًا؛ فقد أقمت فيه لفترة حين عدت من أمريكا قبل أن أستأجر شقة «ياسر» وأشتري فيلا «الكونت».. استوقفنا موظف الاستقبال سائلًا عما نريد، لم نجد ردًا مناسبًا.. فسأل آدم الموظف بسرعة بديهة عن أي حجز باسم «ياسر الطائي».. فقال الموظف بلهفة:

- حضرتك أستاذ ياسر؟



فأشرت له بيدي.. طلب بطاقتي الشخصية فأظهرتها له.. أخرج من أحد أدراج مكتبه هاتفًا قديم الإصدار، ناولني إياه قائلًا:

- فيه راجل جه من كام يوم، وصاني أديك الموبايل ده أمانة.

سأله آدم عن أوصاف هذا الرجل.. فرد الموظف أنه كان ضخم البنيان، يقود سيارة سوداء على قدر من الفخامة، واستشف من حديثه أنه يعمل سائقًا لدى صاحبها، أعطى الموظف بعضًا من المال وتلا عليه أوامره، وانطلق بسيارته مسرعًا...

قاطع حديثنا صوت رنين الهاتف مجهول المصدر، فجذبت آدم من ذراعه وخرجنا دون استئذان.. كان المتصل يستعمل برنامجًا لتغيير الأصوات..

- حبيت أبدأ معاك لعبتنا من نفس المكان اللي اتولدت فيه فكرة الكونت.

- أنت مين؟

- أنت عارف كويس، ماتقلقش غرام ومليكة كويسين.. لحد دلوقتي.

قبل أن أسأله كيف عرف هذا الفندق، بادرني موضحًا:

- أنا مراقبك من ساعة ما وصلت البيت، حضرتك اتلهيت مع أسرتك المخطوفة، ونسيت إني خدت من الشقة حاجة أهم بكتير: مذكراتك كاملة.

أكمل حديثه قائلًا:



- ومن المذكرات عرفت كل حاجة عن ياسر وعن الكونت، وحطيت قواعد للعبة اللي هنلعبها.. إحنا عايزين ياسر والكونت يصفوا كل صراعاتهم القديمة والجديدة.

طلبت منه بهدوء أن يُخرج زوجتي وابنتي من هذه اللعبة، ردَّ ضاحكًا:

- والحافز يا مستر ياسر؟ لازم حافز عشان تلعب.. ولو حسيت إنك بتفكر تخرج عن القواعد اللي رسمتها لك، هابتدي أمارس على أهلك نفس اللي أنت بتمارسه على الناس..

طلبت منه ثانيةً أن يخرجهما من تلك اللعبة، لكنه لم يعبأ بأي مما قلت.. أكمل حديثه كممثل يحفظ دوره جيدًا:

- ولو حصل لك أي أذى أنت أو الأخ الجميل اللي واقف جنبك دلوقتي أنا مش مسئول، ومش مسئول عن مصير غرام ومليكة من بعدك.

وعدته أن أنفذ جميع ما يريد، فقال منهيًا المكالمة:

- أنت هتروح قسم شرطة الهرم.. وهتسلم نفسك هناك.

***



٩- حل وسط..

كان الرفض رفاهية لا أملكها في ذلك الوقت..

بدايةً لم أستوعب ما طلبه ذلك الخاطف؛ فكيف سأصفي حساباتي القديمة من خلال تسليم نفسي للشرطة، وكيف سأحرر أهل بيتي وأنا حبيس السجن؟ لم أجد بُدًا من تسليم إرادتي له، طلبتُ من «آدم الخواجة» أن يبقى في بيته ليتابع ما سأمر به من بعيد، ويتدخل إن تطلب الأمر.. ثبَّت «الخواجة» في مواضع خفية من جسدي جهازًا للتتبع وآخر لتسجيل ما سيحدث صوتيًا..

عرفتُ قبل أن أصل القسم بدقائق أنني سأسلم نفسي إلى ضابط بعينه؛ يدعى «حمزة درويش».. دخلت بخطوات حذرة، لم يعبأ بي أحد من العاملين بالقسم، ارتطم بكتفي أحد أمناء الشرطة وأكمل سيره دون أن يعتذر، كانت الحركة سريعة بالداخل كما توقعت، لمحتُ عددًا من المحابيس المكبلين في وضعية جلوس القرفصاء تمهيدًا لترحيلهم، سمعت صوت أحد الضباط من داخل مكتبه ينهر شخصًا ما، سألت أحد العساكر عن مكتب المقدم حمزة فسألني بلهجة ريفية عن سبب الزيارة، ابتعدت عنه خطوتين حين التقطت أنفي رائحة بصل منبعثة من فمه، أخبرته باقتضاب

أنه صديق شخصي.. صمت قليلًا متفرسًا في هيئتي، وبعد لحظات تبدلت لهجته معي، رحب بي، اصطحبني إلى غرفة مكتب مغلقة يقف أمام بابها عسكري بسيط الهيئة، طلب بطاقتي وبعد ثوانٍ سمح لي بالدخول.

كانت رائحة التكييف قديم الطراز نفاذة، لم أفهم سبب تشغيله في الشتاء، كان مكتب حمزة بسيطًا كهيئته المبعثرة؛ خاليًا من الأثاث.. استقر فوق مكتبه المكتظ بالأوراق لوحًا من الزجاج، ميزت آثار براويز صور تم رفعها من فوق هذا اللوح من خلال شكل الأتربة الممسوحة حديثًا، ويافطة خشبية كُتِب عليها: «فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين».

تظاهر حمزة أنه يجري اتصالًا هاتفيًا للتوصية على أحد أصدقائه الذي يريد تجديد رخص القيادة.. لم ينظر نحوي طيلة حديثه الوهمي.

- مش مصدق إن الكونت بنفسه موجود هنا.

هكذا بدأ حمزة حديثه معي بعد دقائق من الصمت، حياني باسمي الحقيقي مادًا يده بالسلام دون أن ينهض من مقعده؛ فتظاهرت أنني لم أرها، جفف عرق جبهته الذي لم أفهم كيف وجد من الأساس، وضبط وضع ملابسه الواسعة التي تستر جسمًا ممتلئًا.. حللت زر بدلتي السوداء وجلست أمامه واضعًا ساقي فوق الأخرى.. سألني عما أشرب فأجبت سؤاله بسؤالٍ عما يريد مني.. أجاب بلهجة حازمة:

- مانكرش إني بكرهك، وبكره اللي بتعمله ونفسي أخلص منك.. بس للأسف ماقدرش أعمل هنا أي حاجة.



علقت على كلامه أن أي علاقة كره تشوبها نسبة كبيرة من الإعجاب بالمكروه، سألته بشكل مباشر عن علاقته بـ«المجهول»، فأنكر تمامًا أنه يعرفه وروى قصة مماثلة لقصتي:

- كل اللي أعرفه إنه اخترق حسابي وعرف أنا مين..

- خطف حد بتحبه؟

ارتعد من مجرد طرحي للفكرة، نفى حدوثها، لم يهدده «المجهول» إلا بالفضيحة، وفي حالة حمزة كانت الفضيحة المهنية ضربة قاضية لحياته.. طلب مني ألا أؤذي أحدًا من أهله فأجبته بصدق أنه أتفه من هذا بكثير، وأن هويته التي يعمل من خلالها محققًا للعدالة بقدر إخلالها للنظام إلا أنها لا تعنيني ولا أهتم بوجودها من الأساس، وأنه مسئول بشكل ما عن وجود الظلم الذي يوهم نفسه بمحاربته. بل إن المؤسسات المعنية بتحقيق العدالة أصبحت مُنَظِمة للفوضى ليس أكثر...

قاطع حديثنا دخول أحد العساكر حاملًا صينية استقر فوقها كوب من الشاي، وضعه أمام حمزة وسألني عما أشرب فأشرت له بيدي كي ينصرف، أطاعني كأنني أحد الضباط وخرج مسرعًا.

لم أرَ في حمزة اختلافًا عن الكثير من أبناء المجتمع.. جميعهم يحب القانون، يرون فيه قيدًا ضروريًا لجميع من سواهم، ولا يمانعون بالخروج عنه من آنٍ لآخر.. وبقدر تقديسهم للنظام يقدسون من يتمرد عليه؛ فيستغرقون في التهليل له، هاتفين باسمه، مادحين أفعاله.. يقدمون له الدعم من بعيد، لكن لا أحد فيهم يتمنى أن يكون مكانه.



أخرج حمزة من درج مكتبه علبة صغيرة تحتوي على حبوب سكر قليل السعرات، أسقط في كوبه عددًا كبيرًا منها، وبدأ يتحدث وهو يذيب السكر محدثًا صوتٍ عالٍ:

- هو هددني يدمر وظيفتي ويأذي أهل بيتي زي ما عمل معاك..

تركته يتحدث دون أن أشكك في صدق روايته، سألته بهدوء عما طلب منه ذلك المجهول.. تحسس سلاحًا مثبتًا في مؤخرة حزامه، مسح بيده فوق رأسه وقال:

- طلب مني أنهي صراعي معاك.. وإني أحقق العدالة فيك.

- أمرك تصفيني ولا تقبض عليَّ؟

قال بعد ثوانٍ من التفكير:

- طلب مني ما أسيبكش تخرج من هنا إلا لو حققنا العدالة..

قلت له بهدوء أنني على يقين من بغضه لي، طلبت منه أن ننحي خلافاتنا جانبًا لتحقيق رغبة ذلك «المجهول».. وأن طلب «المجهول» بخصوص العدالة لا يعني بالضرورة أن يتم تطبيقها عليَّ، أمسكت هاتف حمزة الموضوع أمامه، لم أنخدع بشاشته المعتمة؛ كنت متأكدًا أن ذلك المجهول يسمع محادثتنا من خلاله بالاتفاق مع حمزة، قلت بهدوء ناظرًا نحو اليافطة الخشبية الصغيرة الموضوعة في واجهة مكتب حمزة:

- بس لو أنا ساعدت سيادة المقدم «حمزة محمد درويش» على إنه يحقق العدالة في مجرم خطورته أكبر مني.. ساعتها نبقى وصلنا لحل وسط، وكل الأطراف تخرج فرحانة.. win-win situation يا حمزة بيه!



أعطيته الهاتف ليسمع رد «المجهول» الذي يتحكم بمصيرنا، صدق توقعي ووافق «المجهول» على الصفقة التي عرضتها. كان حمزة خائفًا مني بحق بالرغم من رغبته السابقة في التخلص مني، وبرغم كوني أعزل وألعب معه على أرضه، كانت أصابعه تتجه تلقائيًا نحو جرس مكتبه في وضع الاستعداد للضغط عليه في أي وقت.. قال بعد تفكير لم يدم طويلًا:

- يزيد الصاوي..

ثم أكمل حديثه شارحًا خطورة هذا المجرم الذي تم ضبطه من يومين بصحبة رجاله قبل أن يصلوا إلى مخزن السلاح الخاص بهم.. تعجلت الشرطة القبض عليه حين تعرفوا عليه في أحد الأكمنة مضحين بحالة «التلبس» الواجب توافرها لإكمال القضية.. أراد حمزة معرفة مكان مخزن السلاح قبل انتهاء مدة الحبس الاحتياطي التي يقرها القانون ليزيد الصاوي، حتى يجد ما يسلمه للنيابة.. قلت له بلهجة عملية:

- دخلني أشوفه.

رد حمزة بخطورة دخولي الزنزانة، طلب مني أن أفكر له في طريقة للتعذيب من مكاني.. لم أرد عليه، فلم يجد خيارًا غير الموافقة، استدعى أحد العساكر لاقتيادي إلى الزنزانة التي حبس فيها يزيد الصاوي ورجاله الثلاثة، وأمره أن يبقى بجوار المحبس؛ فيخرجني حين أطلب منه دون جدال.

لا أنكر أنني شعرت بشيء من الفزع حين سمعت صوت الباب الحديدي للزنزانة وهو يغلق عليَّ من الخارج.. هاجمتني



رائحة عطن هي خليط من رائحة بول المساجين وأجسادهم المتعرقة ودخان السجائر التي لمحت الكثير من أعقابها فوق أرضية الزنزانة.. كانت الرؤية واضحة على الرغم من عدم وجود مصابيح بالداخل، جلس المساجين في تجمعات، حتى من أتى بمفرده كوَّن لنفسه جماعة تساعده على قضاء أيام الحبس الاحتياطي..

نهض أحدهم من مكانه متوجهًا نحوي حتى يسلبني ملابسي وأي متعلقات يجدها معي.. نظرت له في عينه وأشرت له بحزم كي يجلس مكانه، وقف مكانه قليلًا مفكرًا، ابتسم كاشفًا عن أسنان صفراء وفم رائحته كقبر نُثرت محتوياته، ابتعد عني بعد أن أطلق سبة بصوت خفيض.

ميزت يزيد الصاوي من الصورة التي عرضها عليَّ «حمزة»، لم يتغير كثيرًا كأن الحبس لا يؤثر فيه، تأملتُ تصرفاته وملامحه لدقائق؛ كان دقيق الجسد والملامح يشبه الأطفال.. حين لاحظ تركيزي معه توجهت نحو الباب مستدعيًا العسكري الذي أدخلني منذ قليل، وقلت له بلهجة آمرة:

- طلعني يا ابني.

لم تبدُ الدهشة على المساجين، فقد خمن معظمهم أنني ضابط حين دخلت ببدلتي الكاملة وبهيئة مهندمة، وحين لم أسأل أحدهم عن سجائر، أظن لنفس السبب ابتعد هذا المجرم عني..

- أنت لحقت يا أستاذ ياسر؟!

طلبت منه ورقة وقلمًا وبدأت أقص عليه خطتي في معرفة موقع تخزين السلاح:



- الراجل ده ثقته في رجالته مالهاش حدود.. واضح إنه بيعتمد على عزوته دي في كل حاجة.. واحد غيره كان مستحيل ينام عشان هيخاف رجالته يصفوه، لأنه حسب ما فهمت منك مجرد ترس في مافيا أكبر منه بكتير.. بس الراجل شكله بينام كويس وما بيسمحش لحد فيهم يبعد عنه..

أخبرني حمزة أن رجال «يزيد الصاوي» رفضوا الإفشاء بسره والاعتراف عليه.. حتى وإن تخلى أحدهم عن ولائه؛ فلن يتحدث حتى لا يتم تصفية أسرته كاملة، سألته مبتسمًا:

- ومين قال لك إننا عايزين نعرف منهم مكان السلاح؟

لم يبدُ عليه أنه قد فهم خطتي بعد فأكملت حديثي قائلًا:

- بما إن كل واحد فيهم عايز يطلع من القضية وفي نفس الوقت خايف أهله يحصل لهم حاجة، فهنتوصل معاهم لحل وسط..

صنعت رسمًا بسيطًا على الورق وأكملت حديثي قائلًا:

- احنا هنستخدمهم في عملية Gaslighting.

أعلم أن خلف كل كُره إعجابًا، لذلك لم أندهش حين نظر لي «حمزة درويش» بانبهار طالبًا أن أستفيض في الشرح.. أخبرته أن هذا المصطلح يشير إلى عملية التلاعب العقلي للحصول على معلومات معينة؛ فيتم الكذب على الشخصية المستهدفة بخصوص الكثير من الحقائق التي يظنها ثابتة حتى يشك في قدراته العقلية تمامًا.. سألني عن آلية تنفيذ هذه الطريقة فأجبته قائلًا:

- أولًا يزيد الصاوي لازم يدخل الحبس الانفرادي.. ويتحرم من النوم.. عايزه يبقى شيء هش تمامًا.. بعد كده هنعزل رجالته



وهنساومهم، لو رفضوا هيتعمل معاهم أوضاع التعذيب بالضغط النفسي.

كدت أن أشرح له بعضًا من هذه الأوضاع؛ كإجبار الضحية على جلوس القرفصاء مقيدًا من الخلف وناظرًا إلى أسفل، أو الركوع على الركبة مع التقييد من الخلف لفترات طويلة.. لكنه كان يعرفها جيدًا ولم يجد مانعًا في تطبيقها عليهم للوصول معهم إلى هذا «الحل الوسط».. أكملت خطتي قائلًا:

- هاتطلب منهم يكدبوا في التحقيق قدام يزيد في كل التفاصيل، من غير ما يقولوا مكان المخزن زي ما اتفقوا مع العصابة.. يبدلوا أساميهم مع بعض، ويقولوا نوع عربية غير اللي اتمسكوا بيها، يغيروا كل التفاصيل بنفس السيناريو.. وتنبه عليهم يكملوا في كذبتهم لحد يزيد ما يشك في قدراته العقلية، مع قلة النوم وشوية تلاعب نفسي منك هيقر بكل حاجة.

أبدى حمزة قلقه من أن تطول المدة، وضعت له بعض القواعد التي إن التزم بها فلن يستغرق أكثر من ثلاثة أيام.. أعطيته رقمي حتى أتدخل في عملية الحصول على معلومات من يزيد الصاوي إن لزم الأمر.. قبل أن أذهب قال لي بلهجة آسفة:

- لو يزيد الصاوي ماعترفش هاضطر أحقق رغبة الراجل اللي بيهددني وأنفذ فيك القصاص.

***

كان رافي كأي ساحلي أصيل؛ لا يجد ملجأ من الوحدة إلا البحر..

حين غادر البيت تاركًا سلوى خلفه، اتجه إلى «عم وهدان



المراكبي» الذي كان يتردد عليه أيام السهر مع أصحاب مراهقته في منطقة «المكس».. تغير الزمن وتعاقبت الأجيال ويبقى عم وهدان كما هو.. كان مروجًا للمخدرات وبائعًا للخمور وجالبًا للمتعة، لا يمانع أبدًا في توفير كل ما يمتع زبائنه ويبقيهم أطول فترة ممكنة تحت سلطته وشهوة البحر..

اتفق معه رافي يوم أن تشاجر مع سلوى على أن يبيت لديه في العوامة إلى أجل غير مسمى، كان عم وهدان عادة ما يرفض تأجيرها بالأيام، لكن عرض رافي كان لا يُرفض.

انقطع رافي عن الحياة بعد أن عهد بإدارة تجارته لشريكه.. كان يعلم أن تجارته ستُنهَب لكنه لم يملك حق الاختيار، لم يجد مفرًا من اعتزال الحياة بعد أن عرف أنها كانت كذبة من صنع شريكة حياته.

كان يعلم دوافع سلوى في عدم الإنجاب منه؛ فقد انهار صنم رجولته في نظرها تحت وطأة فأس الإدمان.. كان متأكدًا أنها شكرت الله على تأخر الإنجاب حتى تعرف الرجل الذي تزوجته جيدًا.. لم يعرف إن كانت خيانتها له فعلًا ارتكبته بكامل إرادتها أم أنه مجرد رد فعل على شعورها بزواجه من غيرها.

لم يستأذن رافي من «عم وهدان»، وخرج بأحد مراكبه الصغيرة التي ملأها رافي بصفائح البيرة رديئة النوع، مستعيرًا شبكة صيد وقرر خوض البحر.. تذكر تشبيهًا سمعه من أبيه حين ذهابهما للصيد: «إن كانت الإسكندرية عروس.. فالبحر دمها.».. ظل يستعيد كلام أبيه طيلة حياته حتى صادق البحر، لم يبقَ له من أبيه إلا ساعة «كاسيو» عتيقة الطراز ذات سوار فضي.. حرص دائمًا على ارتدائها.



تذكر أيام الشباب حين كان يأتي مع رفاقه ملبين شهواتهم في كنف البحر، لم ينس وجه «مايسة».. تلك العاهرة المليحة التي تكبرهم سنًا وخبرة، كانت تتكفل به وأصحابه جميعًا.. جامدة الملامح، دهنية البشرة، تلمع عينيها ببريق لم يفهمه يومًا، عرفت «مايسة» كيف تُشعِر من أمامها بالعجز المطلق، كانت تتفنن في كسر هيبتهم جميعًا؛ تصفهم بأولاد الناس المرفهين.. وكأنها تعوض الفارق المادي بقدراتها التي لا تملك سواها.

نظر إلى انعكاس وجهه في البحر.. تعجب من شكله الذي تبدل تمامًا في بضعة أيام؛ بداية من حالة ملابسه وهالة من الشعر -الذي زحف الشيب بداخله- أحاطت وجهه الساكن الذي لم يكف عن الضحك فيما سبق.. حتى يوم وفاة أبيه الذي كان يحبه كثيرًا، أنهى عزاء أبيه وذهب إلى وهدان باحثًا عن مايسة، وحين وجدها أخرج سخطه من الحياة في جسدها، أقسمت أنها لم تشهد حالة مماثلة لتلك التي شهدتها معه، وأن العوامة كادت أن تهتز، فخمن أنها تحاول التهوين عليه ولم يصدقها.

تذكر أيام إدمانه لذلك المسحوق الأبيض.. لم يعرف سببًا حقيقيًا لإدمانه، لكن سلوى أخبرته أن من يملك المال والوقت يملكه الشيطان.. لم ينس لها أنها أنقذت تجارته حين كان يتعافى، فخرج المسحوق من روحه سريعًا كما دخل، تاركًا أثرًا نفسيًا وشرخًا صغيرًا في علاقته مع سلوى.. تحول الشرخ تصدعًا تامًا بعد انتهاء محنته وبداية مرحلة الفتور الزوجي، أنهاها وحيدًا وتركها تعانيه.. حين تزوج سرًا من «الشيماء» ابنة شريكه في المعرض.. لم يجد معها شيئًا مما افتقده مع سلوى لكنها كانت دمًا جديدًا وعمرًا أصغر



وروحًا لم تنتهكها لطمات الزمن بعد.. قبل أن يعتزل حياته اتصل بها ليبلغها بالطلاق، وبحرصه على حصولها على كل حقوقها المادية.

لم يحبها، ولم يحب سلوى، ولا مايسة، ولم يعرف قط للحب سبيلًا...

استرسل في أفكاره تاركًا عقله يسبح مع صوت مداحه المفضل «أحمد التوني»، فراح يقلده منشدًا: «يا اللي تداووا الناس داووني، هاتوا دوايا من حبيب الكل وداووني»، ضحك في سره ساخرًا من الحالة التي وصل إليها...

قاطع سلسال أفكاره اتصال هاتفي من أحد مساعدي سلوى في مركز الدروس، كانت هذه المرة الثالثة التي يتصل فيها، فقرر أن يرد.

- فيه حاجة لازم تعرفها يا رافي بيه.

ظن رافي أنه سيخبره عن تصرفات سلوى مع ذلك المراهق كما فعل من قبل ووشى عليها، هم أن ينهي المكالمة قبل أن يسمع صوت مساعده يقول:

- سلوى هانم بقى لها يومين ما بتجيش السنتر.. بعتنا لها البنت اللي بتنضف السنتر على البيت.. فضلت تخبط ومحدش فتح لها.. ده غير إن عربية مدام سلوى مش موجودة تحت البيت!

***

لم أكن خائفًا من تهديد حمزة لذاته؛ لكنه الآن ينفذ أفكار شخص أكثر ذكاءً.. لم أفهم حتى الآن كيف اخترق «المجهول» خط الدفاع الذي صممه لي صديقي الأمريكي «كريس برادلي»، كان «كريس»



أقرب زملاء الدراسة إلى قلبي وهو من علمني الكثير من تقنيات الحاسب، كان مخترقًا محترفًا، عُرِض عليه العمل لصالح الحكومة الأمريكية إلا أنه رفض سعيًا وراء مال أكثر.. كنت على اتصال دائم به ليساعدني في تطوير دفاعاتي الإلكترونية على الإنترنت المظلم، لكنه اختفى تمامًا بعد حادثة اختطاف غرام ومليكة، وكأن «المجهول» قد قطع عليَّ كل سبل الوصول إليه.. ولولا «آدم الخواجة» الذي يظنه الخاطف مجرد مساعد ولا يعلم حقيقة قدراته، لما امتلكت عنصرًا للمفاجأة.

***

لم أنسَ شعوري يوم انكشف غطائي لأول مرة..

عدت بذاكرتي إلى أول أعوامي بالكلية، كانت صحة «الطائي» قد تراجعت أكثر مما سبق، الأمر الذي لم يؤثر على عنفه المتواصل ضدي، لم أطلب من الحياة سوى موته.. هربت منه في زحام الحانة التي لم يتغير فيها الكثير؛ فقط رحل زبائن وحل محلهم آخرون، دون أن يأخذوا من روح المكان شيئًا.. توجهت نحو الزقاق لأجرب الأمر مرة أخرى..

قيدت القط في أرضية الزقاق بحبل رفيع من أطرافه الأربعة، ربتُّ على رأسه مطمئنا، امتلأت أذني بنغمات العود المنبعثة من أصابع «عم كارم العوّاد» التي كانت تصلني في الزقاق المظلم، تمنيت ألا يلاحظ عبد الحي الطائي غيابي.. وبدأت أمارس عليه ما جربته على استحياء في بعض أبناء جنسه.. انتزعت شعيرات فرائه الرمادي واحدة تلو الأخرى، كان صوت موائه حادًا لكن مداه لم يبلغ أحدًا سواي، بدأت أسبب له الجروح بسكين صغير، وأغرقها



بكميات كبيرة من الكحول، لطمته على وجهه كما كان يفعل الطائي معي. كان هذا سابع قط أمارس عليه أفعال أبي.. في البداية كنت أسعى لفهم مبتغاه من إيلامي، وحتى الآن لم أفهم.. لكنني وجدت ما هو أعظم من المعرفة؛ وجدت المتعة...

- دي مش أول مرة تعمل كده يا ياسر.

ارتجفت حين سمعت صوت علاء الدين الذي اختفت ابتسامته، كنت أعرف أنني في مشكلة حقيقية، نهضت مسرعًا من فوق القط، اعتذرت بسرعة بكلمات لم أفهمها، بعد أن حللت القط الذي فر مسرعًا كأنه طريد الموت، نفضت غبار أرضية الزقاق عن ملابسي عائدًا للحانة.. أوقفني ممسكًا بكتفي، كررت اعتذاري، لم أرد أن أغضبه بعد ما فعل لأجلي، وبعد أن سرق من حساب أبي الغائب عن الواقع ليصنع لي واحدًا.. ضحك وعاد وجهه إلى الحالة المبتسمة التي يحبها الزبائن.. وعدته ألا أكرر فعلتي، نهرني ونهاني عن الكذب عليه، قال مبتسمًا:

- اللي أنت فيه ده مش عيب، كلنا عندنا أهواء غريبة، أهواء لو شوفنا غيرنا بيعملها هنقرف منه.. الناس أمزجة وأنت مزاجك ده ما وردش عليا قبل كده، أكيد من اللي أبوك بيعمله فيك.. ما تتكسفش من نفسك، أنت سيد الناس دي كلها.

لم أعرف يومًا إن كان قد أحبني لأنني في سن ابنه الراحل أم لقصة الحب القديمة التي جمعته بأمي، أم أنه كان يشفق عليَّ بسبب الطائي. لكن ما المهم من الغرض إن كان سيساعدني على الخروج من زنزانة الطائي.



- صدقني معرفش بعمل كده ليه بس برتاح لما بعمله، وكرهي لأبويا بيزيد لأنه بيشوفني مجرد قط يجرب فيه...

قاطع تبريراتي واكد لي أن البشر لا يد لهم فيما يكونون، وقبل أن نعود إلى الحانة قال لي بصوت هامس، ظهر من ورائه صوت عم كارم وهو يغني «أمانة عليك يا ليل طول»:

- المهم يا ياسر.. ماحدش يعرف اللي بتعمله ده غيري، الناس لو عرفت مرضك مش هيرحموك.. لازم تعمل لنفسك قانون يحميك منهم، ويحول مرضك لحاجة أعظم بكتير.

***

لم أملك في اليومين التاليين من أمري إلا أن أكتوي بلعنة الانتظار، جاءتني خلالهما رسالة من زوجة «كريس» التي حاولت التواصل معها عن طريق حساب زوجها على موقع Facebook.. شكرتني على سؤالي عن زوجها وأخبرتني أنه متغيب عن المنزل منذ أيام، سألتها عن توقيت اختفائه تحديدًا فعرفت أنه كان قبل اختطاف زوجتي وابنتي بساعات.. أخبرتني أن لديها أطفالًا لتربيهم ولا تريد التواصل مع أي شخص كان على علم بنشاطات «كريس» حتى تحافظ عليهم، وأنهت المحادثة.

لم أشعر بالحزن الكبير على اختفاء «كريس» بقدر ما حزنت لفقداني نقطة من نقط قواي. عاد آدم للحديث معي بعد أن أنهى مكالمة تخص عمله الآخر، حاول مواساتي فمنعته عن ذلك.. شعرت بالشفقة تجاهه؛ أراه يعاني من مشاكل لا دخل له فيها، متورطًا مع شخص مثلي لا تربطه به أي صداقة سابقة، ويتألم لفراق



اثنتين لم يرهما في حياته.. كان طيبًا بالفطرة، أو هكذا أقنعني..

حاولت تغيير الموضوع، فسألته عن المتاعب التي سببها له شكله الوسيم.. حدثني عن عمله السابق قبل أن يمتهن اختراق الحواسب؛ كان يعمل «كوافير» في مركز تجميل، لم أندهش حين لاحظت مهارته في تصفيف شعره الطويل الملموم لأعلى، أخبرني عن نساء قدمن أنفسهن إليه بلا قيد أو شرط، رفضهن جميعًا لأجل فيروز قبل أن تسافر، وجدد رفضه بعد أن هجرته؛ احترامًا لنفسه ولذكراها.. حدثني عن فترة التدين التي مر بها بعد وفاة أهله، واحتياجه للشعور بوجود الراعي الذي يصلح له نفسه، ويهون عليه سلسال الفراق.. لم أعلق فسألني عن توجهاتي الدينية.. أجبته:

- أنا مؤمن بضرورة وجود الرقيب، وإيمان الناس بوجود اليد العليا المسيطرة على كل شيء؛ عشان الحياة تستقيم.. والمفهوم ده لو اتطبق على كل حاجة في الكون فأكيد أنا مؤمن بربنا.

أكملت حديثي مبتسمًا:

- فيه فيلسوف اسمه فولتير كان دايمًا بيقول إذا كان الله غير موجود، فسيكون من الضروري أن نختلق نحن واحدًا.. وكان بيقول «لا بد من وجود الله مع اثنين: خادمي حتى لا يسرقني وزوجتي حتى لا تخونني».

لم يبدُ على الخواجة أنه قد فهم حرفًا مما قلت، طلب مني أن أرتاح قليلًا...

قاطع حديثنا صوت الهاتف الذي يحدثني منه الخاطف، بادرني قائلًا:



- مبروك يا كونت، يزيد الصاوي اعترف.. وحمزة باشا مبسوط منك.

زفرت شاعرًا بالارتياح، وقد تسلل شبح البسمة على وجه آدم.. أكمل الخاطف حديثه متسائلًا:

- لو خالفت أوامري بعد كده.. هتحبني أبدأ بغرام ولا بمليكة؟

لم أجد ردًا إلا أن أصب عليه جم غضبي، أطلقت في وجهه الكثير من اللعنات.. كنت قد قرأت في إحدى قصص الرعب عن ذلك المجرم الذي خيَّر أبًا بين ولديه حتى يقتل أحدهما بدلًا من قتل الاثنين، وحين اختار الأب قتل أحد الابنين بصعوبة، قام المجرم بقتل الابن الذي لم يتم اختياره.. تاركًا الأب مع ابنه الأقل تفضيلًا، والذي سيعيش بقية حياته ساخطًا على أبيه.

حين هدأ سبابي وطال صمتي، أدرك أن تهديده قد وصلني جيدًا، وأنني أصبحت ملك يديه رغمًا عني.. أكمل حديثه بصوته الأجش المنبعث من برنامج تغيير الصوت وبلهجة عملية:

- كده احنا صفينا صراع مهم في حياة الكونت، لسه صراع أهم في حياة ياسر..

كدت أن أخبره أن كليهما واحد، وهو مجرد اختلاف في الهوية، لكنه أكمل حديثه متسائلًا:

- فاكر أول واحد عذبته في حياتك؟

***



١٠ - عجلة الزمن

أدركتُ الآن نعمة امتلاك القرار، و القُدرة على قوْل «لا»..

لم يفهم أي من زملائي في الكلية سبب حصولي على منحة السفر برفقة البعثة المتوجهة إلى أمريكا، والحقيقة أنني أيضًا لم أفهم كيف حدث هذا.. أخبرهم الدكتور المسئول عن ترشيح الطلبة أنه وضع اسمي ضمن الممتحنين من باب «كمالة العدد»، لم أكن من المتميزين في مجال الميكانيكا، ولم أصبح كذلك فيما بعد.. خمن البعض أنني قد نجحت في امتحان البعثة بسبب تشابه الأسماء مع «ياسر الكنعاني» الثاني على الدفعة والمشهود له بالعبقرية فكرت في كيفية استغلال البعثة للخلاص نهائيًا من زنزانة عبد الحي الطائي، والطريقة الأمثل لوداع « علاء الدين» الذي لولاه لامتهنت توزيع المناديل على السكارى لما تبقى من عمري.. لكنني أجلت التفكير حين ظهرت «ولاء» في مرمى بصري.

كانت «ولاء» مرحلة ضرورية في حياتي لتجاوز فترة الجامعة، ولإرضاء هرموناتي المراهقة.. أوهمنا بعضنا بالحب، وبتحدي الظروف والمجتمع وكل هذا الهراء.. حددنا مواصفات عش



زواجنا الذي لن يحدث، واخترنا أسماء أطفال لن يأتوا، رسمنا لهم مستقبلهم دون أن نملك في مستقبلنا شيئًا.

كانت كأي «ولاء» أخرى.. خمرية البشرة، ممتلئة الجسد والوجه، لا تكاد تعرف ملامحها الحقيقية من وراء قناعها التجميلي، تضع عطرًا رخيصًا يؤلم الأنف كسوط جلادٍ قاسٍ.. تشهد خصلات شعرها المصبوغة بالأصفر والهاربة من حجابها «الفرانكو» برداءة ذوق لا حد لها..

لم تعرف لنفسها هوية محددة؛ هي خليط من عدة ثقافات، ابنة هجينة لمجتمع متناقض.. كانت «نصفًا» في كل شيء؛ نصف تفتُّح، نصف عفة، نصف شرقي، نصف غربي، نصف قلب ونصف عقل.. كانت روحًا ضالة لا تجد ما يتمها.

تسب الرجال نهارًا، وتحب أحدهم ليلًا، وتتزوج من آخر في اليوم التالي.. لتنجب «أنصافًا» آخرين.

- هاتيجي تكلم بابا قبل ما تسافر؟

كان هذا ردها على تحيتي لها، لم أجد ما أقول، سحبتها من ذراعها بعيدًا عن الزملاء الذين كانوا يحتفلون بنهاية العام الدراسي قبل الأخير لهم في الكلية.. توجهنا نحو أحد الجنائن القريبة من الكلية، عدلت من ملابسي التي تحسن ذوقي في اختيارها رغم قدمها، وضعت حقيبتي التي أضع بها أدوات الامتحانات أرضًا.. ساعدتها على الجلوس على الرصيف المحيط بالحديقة.. فكرت في مصارحتها بحقيقة ما بيننا، كانت تعلم هذه الحقيقة لكنها تظاهرت بالعكس.. قصرت عليّ الطريق حين قالت بلهجة عملية:



- أنا متقدم لي عريس..

- ربنا يعينه.

أطلقت سبة لا تتناسب مع حالة الرقة التي أجادت تزييفها فيما سبق، لم تعتد أن يُرفَض لها طلب.. قلت لها أن أباها لن يرضى بشخص مثلي؛ أمه هاربة، يقضي يومه بين الكلية والحانة التي يسكر فيها أبوه الذي باع كل ما يملك في سبيل مزاجه.. زيفت صدمتها في كلامي وقالت:

- بس أنت قولت لي إن البعثة ممكن تغير حياتك!

- مافيش حاجة هتتغير.. لا البعثة هاترجع لي أمي، ولا هاتخلص أبويا من وساخته.. ولا هتغير نظرة أبوكي ليا.. أنا هخلص بعثتي وأرجع أعيش في مكان جديد ماحدش يعرفني فيه.

- ياسر أنت مش باقي على اللي بيننا؟

- ماكانش فيه حاجة بيننا.. ولا هيكون.. إحنا كنا بنساعد بعض نعدي فترة معينة من حياتنا، وقد كان.

أدركت ولاء أن بداخلي شخصًا آخر، وأنها ليست أذكى طرف في هذه العلاقة، وأنني حطمت الإطار الذي رَسَمت لي داخله صورة الحبيب المثالي الواجب هجره فور قدوم أي قريب يمتلك المال، كنت أقص عليها بعضًا من معاناتي، لكن القواعد -التي ساعدني «علاء الدين» في وضعها- منعتني من الحديث عما كان يفعله أبي بجسدي من حين كنت طفلًا، ولا الأثر الذي تركه ذلك العنف بنفسي، وجعلني أمارس نفس التنكيل بالحيوانات التي لا تملك من أمرها شيئًا.. لم أخبرها أنني علمتُ من إحدى الجارات التي كانت



على اتصال بأمي أنها انتحرت بعد فترة وجيزة حين أغلقت جميع الأبواب في وجهها وحين لم تجد في روحها متسعًا للمزيد من لطمات الحياة.

حاولت أن تجعل الانفصال صعبًا علي، لكنها لم تنجح؛ على العكس فقد زادت متعتي حين قلبت الطاولة عليها قبل أن تبادر هي بالمثل. كان اليوم مميزًا فلم أرغب في العودة إلى زنزانة الطائي باكرًا، أرسلت رسالة نصية من هاتفي العتيق لعلاء الدين، بشرته بقبولي في البعثة.

تمشيت على كورنيش النيل حتى آلمتني قدماي، رسمت أحلامًا كثيرة لما يمكنني فعله في بلد الحرية، والتغير الذي ستشهده حياتي حين أعود حاملًا الزمالة من هناك، لم ألحظ أنني أحدث نفسي بصوتٍ عالٍ إلا حين نطقت اسمي مسبوقًا بلقب «الباش مهندس»، نظر لي بعض الناس ساخرين مما أفعل، وقد شجعهم على ذلك هيئتي الرثة وجسدي النحيل، وسيري مطأطئ الرأس بإيقاع بطيء كالأطفال حين يأثمون.

كانت هذه أول ليلة يطلب فيها « علاء الدين» مني أن أترك أبي يعود للمنزل بمفرده، انتظرت حتى غادر آخر زبون وبدأ العاملون في الرحيل بعد أن تقاضوا أجرتهم اليومية من مالك الحانة، وقد خصم منهم ما شربوا من الخمر..

لم أركز كثيرًا مع موسيقى «الجاز» المنبعثة من مسجل الصوت الذي يعمل فور رحيل «عم كارم».. نظرت إلى التقويم المعلق على حائط الحانة يشير إلى بداية شهر يوليو من عام ٢٠٠٩.. عاودت



التفكير في الحلم الأمريكي، تخيلتني في هيئتي الجديدة؛ لا أرتدي إلا الملابس باهظة الثمن، وأمارس الرياضة بانتظام لأحصل على بنية قوية، فأثير الإعجاب أينما حللت؛ تخيلتني وقتها في حال أقرب إلى حال «الكونت» الآن مع اختلاف الطموح والأهداف.

عدَّل علاء الدين من ملابسه واضعًا قميصه الفضفاض داخل بنطلونه، ربط حزامه حول بطنه كالمعتاد، وقف مكان الساقي لترتيب الأكواب والزجاجات المتناثرة فوقه بعد ليلة طويلة، أشار نحوي كي أقترب لأجلس أمام «البار» بالقرب منه، كانت هذه البقعة المفضلة للطائي.. سأفتقد ابتسامة علاء الدين التي لا يبخل بها على أحد، سأفتقد تقبُّله التام لكل ما أفعل، وكأنه قد قرأ أفكاري فقال:

- دي آخر قعدة هنقعدها مع بعض..

قلت له أنني سأعود فور انتهاء الدراسة، قاطعني بإشارة من يده، قال دون أن يفقد ابتسامته التي بهتت قليلًا:

- لما ترجع مش هتلاقيني.. بيني وبينك يا ياسر أنا خلاص اكتفيت من الدنيا.. والواد ابني وحشني.

ارتجف جسدي حين سمعت ما قال، أخبرني أنه اشتاق لكل الراحلين، ويود لو يراهم مسرعًا، علق ساخرًا من دموعي:

- يا بني كفاية إني هخلص من وش أبوك.. مع إني حاسس إننا هنتقابل في جهنم، ويبقى ربنا كاتب لي «الطائي» دنيا وآخرة.

تفوهت ببعض العبارات الخالية من أي معنى، تمنيت أن يبتعد الشر عنه، ونهرته عن ذكر الموت.. قال بجدية:



- خلينا نتكلم جد يا ياسر.. أنا حوشت لك قرشين من مرتبي عشان تسافر بيهم، ولو ناوي تودع أبوك ودعه علشان مش هتشوفه تاني.

- تفتكر هيكون مات قبل ما أرجع؟

نظر حوله قليلًا، انتظر حتى ابتعد عنا أحد العاملين بالحانة الذي كان يجمع المقاعد لتنظيف الأرضية، قال هامسًا:

- ليلة سفرك هأرجّع لأبوك باقي حسابه اللي عندنا؛ على أساس إننا بنعمل جرد للخزنة وخايفين فلوسه تتلخبط مع فلوس البار..

اتسعت عيناي باهتمام لما يقول، أكمل حديثه قائلًا:

- هخليه يقعد لحد ما نشطب بأي حِجة، هتيجي أنت تضربه وتاخد الفلوس تسافر بيها.. وماترجعش هنا تاني مهما حصل.

- أضرب أبويا اللي معدي الستين سنة؟

- اللي زي الطائي لازم يتربى في آخر أيامه.

سألته بقلق:

- طب وهو هيصرف منين؟

- اللي زي أبوك ما بيغلبوش.. بعدين إيجار أرضه اللي في الإسكندرية هيعيشه كويس.

سألته أخيرًا عن السبب الحقيقي لمساعدتي.. كنت أعلم الإجابة لكنني انتظرت أن أسمعها منه.

- أنا كنت بحب والدتك الله يرحمها.. بس أبوها مارضيش بيا بسبب شغلانتي اللي ماعرفش غيرها، طلب مني «أبطل نجاسة»،



حاولت أشتغل في كذا صنعة بس مالقيتش نفسي غير في البار.. هو المكان الوحيد اللي بحس شغلي فيه مالوش مثيل.. ولو مُت بكرة هكون متأكد إن ماحدش هيقدر يعمل نفس اللي «علاء الدين» بيعمله.

أكمل «علاء الدين» حديثه وهو يجفف الأكواب بقطعة نظيفة من القماش:

– وقتها أبوك كان لسه جاي من الإسكندرية، كان من الأعيان هناك بس لما طلق مراته الأولانية أهلها قطعوا رجله من البلد كلها.. اشتراها بفلوسه زي ما اشترى العمارة اللي باعها بعد كده عشان مزاجه، وزي ما اشترى كل حاجة حواليه.. عشان كده لما شوفتك حلفت ما أخليه يشتريك أبدًا.

تحرك من خلف «البار»، جذب مقعدًا مقتربًا مني، التقطت أنفي رائحة الحشيش من بين أنفاسه، قال بنفس نبرته الهادئة:

– لما ترجع من أمريكا اقعد في الإسكندرية، وتابع أخبار أبوك، وأول ما يموت روح لسلوى أختك خد ورثك.

أعطاني عنوان سلوى مكتوبًا في ورقة قديمة، ميزت خط يد أمي فارتجف جسدي بالكامل.. وكأنه قد فهم ما أفكر فيه فقال محذرًا:

– انسى الانتقام، اللي زي أبوك أحسن انتقام منه إنك تسيبه في الحالة اللي هو فيها دي.. الموت راحة ليه.

لم أرد كعادتي حين يتلو عليَّ أوامره.. قال مبتسمًا:

– عايزك في خدمة.. أظن إنك هتحبها..



أخبرني أن «تمَّام» النادل السوداني كان يختلس الكثير من الأموال تمهيدًا لفراره من الحانة، ومالك الحانة يريد أن يعرف مكانها، أمر العاملين بالحانة بتقييده وضربه حتى يعترف لكنه رفض الاعتراف، أكمل علاء الدين حديثه قائلًا:

- الواد ده بغل زي ما أنت عارف، فمنفعش معاه الضرب.. فقولت يمكن أنت تقدر تعرف منه المعلومة.

سألته سؤالًا لم أفكر فيه من قبل:

- صحيح.. أنتوا إيه غيتكم في تشغيل الأفارقة؟

- بيستحملوا الشغل، وماهمش ورق.. فبنشغلهم بملاليم، واللي مش عاجبه الحكومة بتيجي ترميه تاني في بلده.

- بس دي عبودية.

- فيه ناس مابترتاحش غير في العبودية.. لو شالوا مسئولية نفسهم يموتوا.

طلبت منه أن يلخص لي تاريخ «تمَّام»، لم يفهم غايتي في معرفة نقاط ضعفه لكنه وافق.. أخبرني ما سمعه على لسان «تمَّام» حين رآه لأول مرة، أخبره أنه ولد في السودان لأب ثري تزوج أمه من وراء أخواله، فقام أحدهم بخطفه وتهريبه سرًا إلى مصر مع أحد التجار المصريين الذي عامله كالعبد بعد أن كان سيدًا ابن سيدٍ.

وفي مصر لم يعبأ أحد لوجود «تمَّام»، لم يسأله أحدٌ عن أوراقه قط.. عانى حين كبر من الانتهاك الجسدي بكافة أشكاله، حتى أصبحت العبارات الساخرة من لونه ومن بنيته الضخمة آخر ما



يشغل بالـه في رحلتـه للسـعي خلـف الـرزق ومحاولـة البقـاء حيًا في معـزل عـن الطامعـين فيـه..

فـرَّ «تمَّـام» إلى الحانـة بعـد أن قتـل أحـد أسياده المتعاقبـين؛ كان تاجـرًا مـن الصعيـد، أخـبر «عـلاء الديـن» أنـه عومـل خـلال هـذه الفترة كالحيوان الـذي لا حق لـه في الحياة، وبرغـم هـذا تحمَّل، لكنه لم يتمالـك نفسـه حـين سـمع سـيده خلسـةً يتحـدث مـع أصحابـه عـن إخصائـه خوفًـا عـلى حريمـه منـه.

لم يعـرف متـى أصبحـت حاجاتـه الأساسـية انتصـارات تفـرض عليـه الحيـاة الاحتفـال بهـا؛ فيـوم الإجـازة انتصـار، والنـوم عـلى فـراش مريـح انتصـار، وراحـة البـال انتصـار، نظافتـه الشـخصية انتصـار، ابتعـاد نظـرات الاحتقـار والشـفقة عنـه انتصـار، حفاظـه عـلى كرامتـه انتصـار.. حتـى نسـيان النـاس لـه انتصـار.

أعـرفُ جيـدًا هـذا النـوع مـن الشـخصيات؛ لم يـرَ يومًـا سـعيدًا في حياتـه.

وافق مالـك الحانـة عـلى إيـواء «تمَّام» مقابـل عملـه في الحانـة بمقابـل زهيـد.. لكـن حلـم العـودة إلى السـودان، والثـأر لأبيـه وأمـه، لم يغـادر «تمَّام» أثناء عمله في الحانـة برغـم تجاوزه الأربعين من العمـر، فاكتنز بعض المال واختلس البعض الآخر من خزينة الحانة لتوفير نفقات الهويـة الجديـدة والسـفر.. وحين قـرر الرحيـل وشـى بـه أحـد العاملين بالحانـة عنـد «عـلاء الديـن» كـما حـدث مـع أبيـه مـن قبـل.

لم أشـعر بالشـفقة تجاه «تمَّـام» كـما توقـع «عـلاء الديـن» حـين بـدأ في روايـة قصتـه، كان منظـره مخيفًـا حتـى وهـو مقيـد بأحـد المقاعـد القديمـة



في الزقـاق المجـاور للحانـة، امتـلأ وجهـه الأسـمر اللامـع بالجـروح والكدمـات، ولم يخلُ من نظـرة واهنـة متحديـة.. أقسـم بصـوتٍ عـالٍ وبلهجتـه الركيكـة عـلى ألا يخبرنـا بمـكان المـال.

اقتربـت منه ونظـرت في عينيه ليختفي ذلـك التحدي من عينيه.. ربـتُّ عليـه بحنـان أثـار دهشـة «عـلاء الديـن» وباقـي العاملـين المجتمعـين.. قلـتُ لـه بهدوء:

- ماتخافـش يـا تمَّـام.. عـم عـلاء حكـى لي كل حاجـة، وأنـا قـررت أسـاعدك.. أنـا معـاك.

التفـتُ إلى عـلاء الديـن ومسـاعديه.. قلـت بلهجـة آمـرة لم يعتـد أحدهـم سـماعها منـي:

- قلَّعوه كل حاجة وكتفوه تاني.. وحد يجيب لي جوزة الطيب.

تهكم أحد العاملين قائلًا:

- نجيب لك جوزة الطيب منين الساعة دي؟!

صاح فيه «علاء الدين» مشيرًا نحو «تمَّام»:

- الـواد ده لـو فضلنـا نضربـه هنمـوت جنبـه وهـو مـش هينطـق.. اتـصرف بـدل مـا أكتفـك جنبـه.

توفـر لي مـا أردت بعـد سـاعة واحـدة، بـدأت خيـوط النهـار في الظهـور.. صفعـت «تمَّـام» عـلى وجهـه بعنـف أكثـر مـن مـرة، كانـت بشرتـه جافـة تعـج بآثـار الجـروح التـي تجلطـت سريعًـا، ولم يبـدُ عليـه التأثـر بضربـاتي.. أرجعـت رأسـه للخلـف، أنزلـت فكـه بصعوبـة، وبـدأت أدس كميـات كبـيرة مـن «جـوز الطيـب» المطحـون في جوفـه، لم تمنعنـي مقاومتـه عـن تنفيـذ مـا أحلـم بـه منـذ فـترة، ولا أعلـم متـى



سيتكرر ثانيةً.. كنت أعلم أن «جوز الطيب» يسبب هلاوس مؤلمة تدفع البعض للانتحار في نهاية المطاف، أرجع رأسه للخلف وبدأ يهذي ببعض مما قصه عليّ «علاء الدين»، بدأ يطلق صرخات طفولية لا تتناسب مع شكله وحجمه، تحول بياض عيناه احمرارًا ودخل في نوبة من البكاء الطويل؛ نادى على أبيه وأمه، وبدأ يتضرع لخالقه، لم أفهم الكثير من حديثه لأنه كان يهذي بلهجته الأم التي ظننته قد نساها.. أصدر الكثير من الأصوات المبهمة، لم أتوقع أن يظهر منه هذا الوجه.. تلاقت عينانا مرة واحدة فبدا الرعب عليه وازداد نحيبه، أظنه لاحظ نظرة الاستمتاع المطلق البادية عليّ، ركعت أمامه على الأرض كاشفًا وجهي للسماء، أطلقت صيحة قصيرة.. لم أشعر في حياتي بالسيطرة كهذه اللحظة، إن أردت قتل «تمّام» الآن فلن يلومني أحد، لكنني لا أريد قتله.. أحتاج أن أرى قوتي في عينيه؛ فأشاهد ما أوجدته فيه من هلع، أن ألمس روحه المتألمة؛ التي لا تجد غيري لتلوذ به.

لم أحب يومًا الألم لذاته، ولكنني أدمنتُ الأثر الذي يتركه داخلي؛ نظرات التوسل وصيحات الرجاء، التي ينبعث القهر منها، منحني كل هذا إحساسًا بالسيطرة التامة عليهم.. وكأن أوجاعهم صكوك ملكية تمكنني من التحكم في حيواتهم، أنا من يضع قواعد اللعبة، وأنا من يمارسها، أنا صاحب اليد العليا التي ستقرر مصائرهم.

دخلت الحانة بعد أقل من نصف الساعة، لم أجد إلا مالك الحانة و»علاء الدين» وأحد السقاة.. أخبرت المالك بمكان الأموال، وطلبت منه أن يأخذ حقه فقط.. قال «علاء الدين»:

- عايز تسيب له فلوسه؟ صِعِب عليك؟



قلت وأنا أغادر الحانة بعد يومٍ طويل:

- لا.. بس فلوسه دي أتعابي.

***

انقطع تدفق ذكرياتي حين اتصل بي الخاطف.. طلبت منه أن أسمع صوت غرام أو مليكة.. فرفض مُمليًا عليَّ عنوان تمَّام، أمرني أن أذهب إليه في الحال، قال أنني لن أصدق ما آل إليه حاله، كان آدم جالسًا إلى جواري في «غرفة العمليات» بشقته التي أصبحت مقرنا المؤقت، لم يعرف «المجهول» بعد قدرات الخواجة، الذي حاول تتبع المكالمة لكن «المجهول» كان قد حجبها تمامًا هذه المرة.

طلبت منه أن يقوم بالتقصي عن «تمَّام» قبل الذهاب إلى العنوان، فأخبرني بعدم جدوى البحث؛ فبالتأكيد لن تصمد هَويته طيلة هذه السنوات.. أخبرته أن يستعد حتى يذهب معي إلى «تمَّام» الذي اقترب عمره الآن من الستين.. لم يكن على ما يرام؛ يتحدث بنصف عقل، لاحظت عليه الشرود التام.. سألته عن سبب نظراته الشاردة، قال لي أنه لم ينم جيدًا.. أجبته مبتسمًا:

- ماتنساش إني عِشت طول حياتي أسرق الحقيقة من الناس.. فأكيد هاعرف آخدها من صاحبي.

سأل آدم باهتمام:

- صاحبك؟

ربتُ على كتفه قائلًا:

- أنت الوحيد اللي وقفت جنبي باختيارك؛ الحياة مارمتنيش في طريقك زي الباقيين.



رأيت على وجهه للمرة الأولى ابتسامة حقيقية، لم يرد.. أخبرني أنه سعيد لإقامتي لديه، علق ساخرًا:

- بس لو تبطل هوس الترتيب بتاعك ده.. يعني لازم كل حاجة تكون في مكانها؟!

- اسمه OCD يا أجهل خلق الله.. بعدين النظام حلو.

كانت ضحكاته قصيرة ومزيفة، أعدت سؤاله مرة أخرى عن سبب حزنه الذي لم يستطع إخفاءه.. طلب مني أن أرافقه إلى غرفة نومه، أعطاني ملفًا ورقيًا، بعد أن جلس على فراشه قائلًا:

- تعرف تقرأ نتيجة التحليل ده؟

أجبته بصدق:

- للأسف لا.. بس ممكن نروح لدكتور..

قاطعني قائلًا بعد أن استلقى على فراشه:

- أنا عرفت النهارده الصبح نتيجة التحليل..

أخفى وجهه بين يديه المرتجفتين، سألته بهدوء عن السبب محاولًا السيطرة على نبضات قلبي الذي لم أتوقع أن يخفق لأجل آدم.. نزلت من عينه دمعة قصيرة، أكمل حديثه قائلًا:

- «لوكيميا».. سرطان في الدم.

***



١١ - رحيل

لم أتوقع أن تُزهق الأرواح بهذه السرعة..

لم نتحدث بخصوص مرض «آدم» ثانيةً طوال الطريق إلى بيت «تمَّام» الجديد في «إمبابة»؛ بحثت عن عبارات بث الأمل والمواساة في قاموسي، فلم أجد.

نبهته إلى عدَّاد الوقود الذي كاد يقترب من الصفر، فتوقف عند أول محطة بنزين، دخلت استراحة المحطة لأبتاع زجاجة مياه. عدت إلى آدم الذي كان يحاسب عامل المحطة، انطلقنا بالسيارة لتغادر رائحة البنزين أنوفنا.. أشعل سيجارًا ملفوفًا بالحشيش، سألته ضاحكًا متى يحضر كل هذه المخدرات وكيف لا يظهر تأثيرها عليه.. ضحك دون أن يعطيني إجابة واضحة، أخبرني أنه بدأ البحث عن موقع «كريس برادلي» الحالي كما طلبت منه، لكنه لم يجد ما يفيد.. أثارت سيرة «كريس» الكثير من ذكرياتي معه إبَّان بعثتي في جامعة Wayne state بولاية ميشيغان..

حذرني بعض الزملاء من الذهاب إلى هذه الجامعة تحديدًا؛ لوجودها في مدينة «ديتريوت».. فبرغم كونها من أكبر تجمعات العرب، إلا أن نسبة الجريمة هناك مرتفعة لكثرة عصابات السود..



لكن لم يكن لديَّ خيار آخر بعد ما فرضته عليّ شروط البعثة.

كان «كريس» شريكي في غرفة سكن الطلاب، لم يمر الكثير من الوقت حتى أصبحنا رفقاء، أخبرني كل شيء عنه، لم يحب دراسة الهندسة مثلي، كان عبقريًا في التعامل مع أجهزة الكمبيوتر منذ صغره، أتى به أهله إلى هذه الجامعة البعيدة عن ولايته الأم «فلوريدا»؛ فرارًا من إحدى عصابات المخدرات التي تورط في العمل مخترقًا لديها، كان يخترق أجهزة الشرطة ليعرف العمليات التي تم رصدها فيبلغهم بها.. وحين قرر الانسحاب أدرك أن حياته هي الثمن الوحيد لخروجه من هذه اللعبة.

في البداية تجنبت الإجابة عن سؤال «كريس» بخصوص الكوابيس المتكررة التي تأتيني ليلًا، كان قد مرَّ عليَّ ثلاثة أشهر، خَفَت انبهاري بالتقدُّم الحضاري والتكنولوجي.. كنت قد أقلعتُ تمامًا خلال هذه الفترة عما كنت أفعله بالحيوانات وطبقته في «تمَّام» خوفًا من الحبس أو الترحيل، أدركتُ أن لانسحابي هذا أعراضًا مؤلمة، احتل الموضوع جزءًا كبيرًا من تفكيري.. فتارةً أحلم بعبد الحي الطائي وهو ينفذ عليَّ وحشيته التي لم أفهم سببًا لها، وتارةً أخرى أرى تمَّام في منامي يثأر مني بنفس الطريقة.. أصبحت كوابيسي طقوسًا يومية، تراجعت درجاتي الدراسية التي لم تكن في أفضل أحوالها من الأساس.

ترددت كثيرًا قبل أن أفشي بسري له، لكن بساطة «كريس» وعدم قدرتي على التعامل مع الأمر بمفردي شجعاني على البوح.. لم يخيّب ظني، أخبرني أنه لا يجد مشكلة فيما أفعل.. أحببت فيه تقبله لجميع من حوله، حتى أنه من عرَّفني على زملائي من الجالية العربية..



كان محط إعجاب لكثير من الفتيات بسبب وسامته وملامحه الشرقية، كان بعضهن يشبهه بـ"آل باتشينو»، أحببن ذكاءه وتمرده الدائم على نظام التعليم، فلم أخبره بوضع التعليم في مصر حتى لا يقتل نفسه.

أخبرني بخطورة انكشاف الشهوة التي لديَّ، اقترح عليَّ أن أمارسها في الخفاء، لفت نظري لإمكانية تحويلها إلى عمل يدر دخلًا، أنشأ لي حسابًا على الإنترنت المظلم الذي اعتادت العصابات الأمريكية استخدامه آنذاك في تسيير أعمالها.. بدأ معي في تأسيس هويتي الجديدة التي سأفرغ من خلالها شحناتي السلبية، اقترح عليَّ أن ألقب نفسي «الماركيز»، كنت أعلم أنها ثاني مراتب النبلاء، لكنني لم أفهم مدلول اللقب بالنسبة لحالتي.. أخبرني أنه نسبةً إلى «الماركيز دي ساد»؛ الأرستقراطي الفرنسي الذي اشتق لفظ «السادية» من اسمه، كانت كتاباته تعكس الكثير عن حياته التي امتلأت مجونًا وعنفًا.. بدايةً من علاقته مع شقيقة زوجته، مرورًا بتأجيره للعاهرات حتى يمارس عليهن عنفه الذي لم يضع حدًّا له، انتهاءً بالعديد من الكتابات التي وصفت كأبشع ما يكمن داخل النفس البشرية..

لم يلاقِ اللقب إعجابًا مني في البداية، اقترحت لقبي الحالي «الكونت» لأنه قريب من حيث المعنى، وأكثر ألفة عن «الماركيز».

ومع الوقت بدأت تأتيني المهمات واحدة تلو الأخرى في أمريكا، لم أرتكب نفس خطأ «كريس» في بداية عمله بالإفصاح عن هويتي الحقيقية؛ حتى أنسحب وقتما شئت، اتسع نشاطي هناك، وازدادت خبرتي بعد الكثير من العثرات والأخطاء المهنية؛ حتى لمع اسم

«الكونت» في «ميشيغان» وبعض الولايات المجاورة، كوَّنت ثروة حقيقية مكنتني من شراء مقري الحالي في مصر.. كان «كريس» يحصل على رُبع ما أجنيه مقابل حمايته الإلكترونية لهوية «الكونت»، الاتفاق الذي استمر حتى لحظة اختفائه واختطاف غرام ومليكة..

نبهني آدم لاقترابنا من وجهتنا التي دلنا عليها ذلك «المجهول» الذي غير مسار حياتي تمامًا، وحولها جحيمًا.. اتصل الخاطف بعد دقائق ليخبرني بالعنوان تفصيلًا، أمرني أن أسأل عن «مسمط المعلم إدريس».. وحين استشف مني عدم الفهم أخبرني بصوته الإلكتروني أن «تمّام» حين غادر البار عمل في مسمط تمتلكه إحدى العجائز المتصابيات، أعجبت بفحولته وقررت الزواج منه ليمضي معها آخر أيامها، كانت وحيدة بلا أهل فوافق حتى يرثها فيما بعد؛ كان يعلم أنه اقترب من الخمسين وقدرته على العمل الشاق ستتراجع بالتدريج، وقد كان له ما أراد.. لم يتزوج بعدها ولم ينجب.. اعتزل الحياة في مطعمه وفي بيت أرملته، بعد أن تخلى تمامًا عن حلم الثأر.. وقبل أن أسأله عن المزيد من التفاصيل أنهى المكالمة.

أخرجت رأسي من زجاج سيارة آدم ناظرًا نحو البيوت التي اتسمت بالبساطة، فتحت الشباك سائلًا أحد الأطفال، الذي كان عاريًا من الأسفل، عن مكان المسمط، فتظاهر بالبلاهة حتى أعطيته ورقة من فئة العشرين جنيهًا، ابتسم وأخبرني العنوان بالتفصيل، كان المسمط كبيرًا لا يلائم شكل المنطقة، ترجلت من السيارة، تناولت حبتين من «البيراسيتام»، وطلبت من آدم أن يترك محرك السيارة مشغلًا وينتظرني..



سألت النادل الوحيد بالمسمط عن مكان إدريس.. نظر لي مستنكرًا وردَّ مصححًا، أن «المعلم إدريس» يجلس أمام مكتبه في نهاية المسمط.. تحركتُ حيث أشار العامل، كان المكان نظيفًا ينبعث من مطبخه الكثير من الروائح الشهية، لمحتُ إدريس؛ لم يتغير شكله كثيرًا، ازداد وجهه انكماشًا وظهرت بعض الحسنات البُنية أسفل عينه.. لم يلتفت نحوي، كان ينهر أحد العاملين بلهجته التي أصبحت مصرية تمامًا، أشار له ناحية أحد الطاولات التي قام من عليها الزبائن ولم تُنَظَّف بعد.. فتحرك العامل سريعًا ليزيل بقايا العظام والبقدونس المتناثر على الطاولة، ويعيد ملء كوز الماء.. كانت الحركة سريعة والزبائن كثيرين، توجهت نحو إدريس بخطواتٍ سريعة، كان يتناول حبوب الفول السوداني دون أن يركز كثيرًا مع ما يدور حوله.. مددت له يدي بثقة، جلست أمامه بهدوء، نظر لي نظرة مرتعبة، أخفاها سريعًا، قلت له:

- أنا ياسر بن عبد الحي الطائي يا معلم إدريس..

شعرت بارتجاف قدمه حين سمع اسمي، رد بلهجة حاول أن يجعلها قوية:

- فيه حد لسه مكلمني وقال لي إنك جاي..

قلت له بهدوء أنني لا أعرف هوية هذا المتصل، ولا أدرك سبب قدومي إلى هنا.. ضحك ضحكة طويلة، فرت من عينه دمعة، أخفاها بجلبابه الزيتي.. تذكرت مظهره القديم وقت أن كان يرتدي زيًا فضفاضًا أبيض اللون وبنطلون «جينز».. تجهم في وجهي، نادى أحد العاملين الذي بدا كذراعه الأيمن، همس في أذنه ببضع كلمات.. فراح العامل يطرد الجالسين بالمسمط هو وزملاؤه الخمسة



دون اعتراض يُذكر من الزبائن، أغلقوا باب المسمط ووقفوا جميعًا خلفي. قال لهم «تمَّام» بلهجة حازمة:

- اقتلوه.

***

دخل المقدم حمزة درويش شقته يدندن فرحًا بتحقيق العدالة والوصول لمخزن السلاح الخاص بيزيد الصاوي الذي نجحت معه طريقة «الكونت»، فجن جنونه حتى كاد ينتحر في محبسه بعد أن أصابه الشك في كل من حوله، أجَّل التفكير في الإيقاع بالعقل المدبر المتحكم في هذه العصابة لليوم التالي.. فكر في طريقة للاحتفال بإنجازه في الحياة، أخيرًا سينظر إلى المرآة فخورًا.. اتصل برقم مسجل لديه باسم «دكتور سعد» ليخبره باستعداده لعمل عملية «ليزك» لاستعادة حدة بصره التي أخذ منها الزمن كثيرًا.. فضرب له الطبيب ميعادًا يناسبهما.

نظر نحو حجرة الأطفال المغلقة في شقته، كان قد اشتراها قبل زواجه ضمن متاع البيت، تذكر مزاح أبيه قبل الزواج حين قال له «يكفيك جُرم الزواج، فحاول ألا تقترف جرمًا آخر بالإنجاب».. لكن ما لم يتوقعه أن يسخر القدر منهما ويحرمه من الإنجاب.. في البداية وعدته زوجته بالصبر والسعي بحثًا عن علاج لعقمه الذي أجمع الأطباء على استحالة شفائه، ومع الوقت فتر تعاطفها تجاهه، سيطرت عليها الغريزة الأنثوية الباحثة عمن تعتني به حتى يكبر أمام عينيها.. عرض عليها الطلاق متمنيًا أن ترفض وتجدد حبها له، لكن هذا لم يحدث.

طرد من رأسه هذه الذكريات المؤلمة، اتصل بأحد المطاعم الشهيرة طالبًا منهم إحضار وجبة عشاء دسمة؛ لم يمانع بالقليل من ألم القولون، اتصل بأقاربه في قريته بالمنوفية، وأخبرهم بنيته في زيارتهم، طلب منهم أن ينظفوا له بيته الريفي الذي ورثه عن أبيه.. نظر لنفسه في مرآة الحمام، لاحظ فقدانه الكثير من الوزن واستعادته جزءًا من شبابه؛ ففكر في البحث عن زوجة جديدة أو حتى التصالح مع مطلقته، لكنه اكتشف أن مثل هذا الأمر سيعطله عن مهمته الجديدة في محاولة إصلاح المجتمع، وقد يكشف هوية «الميزان»، فعدل عن الفكرة.. خرج من الحمام مصفرًا بلحن عشوائي...

تسمر مكانه حين وجد أمامه شخصًا لا يعرفه، كان نحيلًا قصير القامة، وقف أمام حمزة بهدوء في بداية الردهة المظلمة، لم يعرف حمزة متى دخل هذا المقتحم؛ كان يرتدي الأسود وينظر لحمزة بثبات.. لم يسمع حمزة صوتًا في حياته ثانيةً بعد الطلقة المكتومة الصادرة عن مسدس قاتله المأجور.. وانهار «الميزان».

***

لم أظهر فزعي من منظر رجال «تمَّام» ضخام الجثث، رفع أحدهم سلاح «فرد خرطوش» أمام وجهي، وحمل الباقون سكاكين كبيرة الحجم.. لم أبدِ أي خوف منهم، شكرت آدم في سري على فكرته حين قمت بفك أزرار بدلتي وقميصي كاشفًا عن حزام ناسف، كان مزيفًا بالطبع لكن آدم طلب مني أن ألبسه تحسبًا لموقف مشابه لما يحدث الآن..



صحت فيهم أن لا شيء لديَّ لأخسره، ظهر الفزع على وجه «تمَّام» وطلب مني الهدوء، تراجع رجاله أمامي.. أمرتهم أن يلقوا أسلحتهم أرضًا وأن يفرغوا ما في جيوبهم أمام قدمي؛ كان بحوزة أحدهم مفتاح دراجة نارية فركلته بعيدًا بحذائي.. طلبت منهم التراجع بجوار معلمهم في نهاية المسمط، هددتهم إن اتبعني أحد فسأفجر الجميع..

طلبت من آدم التحرك سريعًا، اعترض طريقنا بعضٌ من جيران إدريس، لكن آدم فر منهم بمهارة، كانت الحارة ضيقة لكن الخواجة كان سائقًا ماهرًا على عكسي.. لحق بنا أحد شباب المنطقة فوق دراجته النارية.. لكن آدم نجح في مراوغته وإسقاطه من فوق الدراجة بخبطة بسيطة من جانب سيارته.. انطلقنا عائدين إلى بيته بعد أن سلكنا أكثر من طريق لتجنب الاقتفاء.

بعد أن استتب لنا الفرار من أتباع «تمَّام».. هدّأ آدم سرعة السيارة حتى نستعيد هدوءنا.. انتظرت اتصالًا من الخاطف حتى أصب عليه غضبي.. بدأت أطلق عليه سبابًا بضمير الغائب.. طلب آدم مني أن أهدأ، سألني بعض الأسئلة التي تخص هوية الكونت، أعرب عن شكه في شيءٍ ما، رفض الإفصاح عنه حتى نعود إلى منزله.

شرع آدم في تغيير الموضوع، أعاد ربط شعره لأعلى كعادته، وأخرج سيجارة أخرى لم أتعرف على رائحتها.. فتحت هاتفي الأصلي، لمح صورة الخلفية التي تجمعني بغرام، فسألني عن قصة زواجنا..



بدأت أقص على «آدم» الحوار الذي دار مع «كريس» بعد سنة من مكوثي بأمريكا، وبعد أن جنينا ثروة لم نحلم بها.

أخرجت له وقتها من جيبي علبة صغيرة من القطيفة، يستقر وسطها خاتم بسيط للزواج، فسألني «كريس» مازحًا عن «التعيسة» التي سأتقدم لها، أجبته:

- أنا قررت أتقدم لزميلة محترمة من الجالية.. نادين.

رد مستنكرًا:

- اللبنانية؟ مستحيل.

أخبرني أنها تتمتع بقدر عالٍ من الدهاء، وإن انتقلت للعيش معي ستتساءل عن مصدر ثروتي المفاجئة، ولن تقتنع بأي من حجج غيابي أثناء تنفيذ مهمات «الكونت»، كما أنها تتمتع بروح متمردة وتحلم أن تجوب العالم؛ الأمر الذي سيفسد مخططاتي لإكمال عمل «الكونت» في مصر، الذي سيكون أسهل بحكم غياب المنافسة.. وجدت في كلامه الكثير من الصحة، جلست أمامه في حيرة، صارحته بضرورة زواج «ياسر» حتى يتم إحكام غطاء الكونت ولا يشك أحد في هذا الغطاء.. فيتيم مثل ياسر يجب أن تظهر رغبته العارمة في الزواج، فهو يفتقد لوجود الأنثى في حياته، ويرفض نظام العلاقات دون زواج.. ضحك واقترح بلهجة ماكرة:

- إذًا.. فلنبحر نحو سوريا..

أطلقت سبة بعد أن فهمت تلميحه، سألته مستنكرًا:

- غرام؟!

أبدى آدم دهشته من عدم انجذابي لغرام في بداية الأمر، كان قد



خمَّن أنني تزوجتها بعد قصة حب.. وصلنا إلى عمارة آدم، أخبرته أثناء انتظارنا للمصعد أن «كريس» هو من خطط لقصة الحب هذه، فمثلتها على غرام.. شرح لي «كريس» أن شخصية كغرام تحب شعور العطاء والتضحية، تريد ابنًا لتربيه وليس حبيبًا يعتني بها. خدعها «كريس» ولفق قصة إدماني للكحول، وحاجتي للمساعدة.. فصدقت «غرام» وأصرت على أن تصطحبني لجلسات التعافي من الإدمان، نفذتُ ما رسمه لي كريس، فحكيت لها كاذبًا عن صديقتي الأمريكية التي اكتشفت خيانتها.. استنزفت تعاطفها أشبعت شهوة التعاطف لديها، قاطعني آدم مستنكرًا:

- هو التعاطف شهوة؟

أجبته وأنا أرتب وضع ملابسي في مرآة المصعد:

- أي شعور بيخلينا مبسوطين شهوة.. إحنا عايشين عشان نرضي شهواتنا.. كل واحد وطريقته، للناس فيما يعشقون مذاهب يا أبو آدم..

أردفت قائلًا أثناء خروجنا من المصعد:

- حتى الالتزام اللي الناس فاكرينه بيكبح الشهوات؛ بيرضي أعظم شهوة إنسانية: راحة الضمير.

لم أكمل له الحكاية، أظن أنه خمَّن نهايتها شبه السعيدة.. بمجرد أن دخلت الشقة رنَّ هاتفي برقم المتصل المجهول، بادرني قائلًا:

- لو لسه بتدور على أخبار بخصوص «كريس برادلي» ماتكملش.. ادعي له.

فلتت مني دمعة، أجبته بصوتٍ عالٍ وبلهجة متوسلة:



- كفاية كده.. بجد كفاية.

ردَّ بهدوء ضاحكًا:

- حسيت بشعور ضحاياك وأنت بتقتلهم بالبطيء.. حاسس روحك بتطلع وهي لسه في جسمك؟!

لم أرد قلت له بغضب:

- طب مراتي وبنتي يرجعوا، وخلينا نتعامل راجل لراجل.

- ما هما لو رجعوا أنت مش هتكمل الرحلة.. أنا عايزك تعرف نفسك قبل ما تعرفني.

عرفت أنه لا جدوى من التفاوض معه؛ فهذا المجهول أمامه هدف لن يبرح حتى يبلغه.. سألته بلهجة عملية عن المطلوب.. أجابني بهدوء:

عايزك تقابل آخر ضحيتين ليك: الباش مهندس هشام وداليا السكرتيرة.

نظر لي آدم الذي كان يسمع الحديث من مكبر الصوت، أومأ لي برأسه نفيًا، فأجبت ذلك المجهول بلهجة مقتضبة:

- مش هقابل حد.

رد بلهجة حازمة:

- هتقابلهم، وتبص في عينيهم كمان.. وتشوف اللي أنت عملته فيهم، وحياتهم اللي اتدمرت بسببك.. زي ما شوفت «تمّام» اللي ماقدرتش تواجهه وهربت.

أكمل حديثه بلهجته المستفزة:



- على ذكر «تمَّام».. أنت ماحسمتش صراعك معاه زي ما اتفقنا، وطريقتك في الهروب من مواجهته معجبتنيش.. فأنا قررت أعاقبك.. وأزعلك على حد من دمك.

توقف نبضي تمامًا.. لم أجد ما أقول غير بعض الكلمات المبهمة، هددته بصوتٍ متهدج.. كان يهدم كل ما صنعته في سنوات، يسلبني أجمل ما في نفسي، أخبرته أنه لا يقدر على أذية غرام ولا مليكة، فهو يحتاج وجودهما حتى أظل تحت طوعه.. رد أن لا هَمَّ له إلا المتعة، وأنه يستطيع السيطرة عليَّ بوسائل أخرى.. أدركت أنه سينفذ تهديده لا محالة.. قال ناصحًا:

- ماتخافش أنا بعمل لمصلحتك.. فقدانك لحد بتحبه منعطف مهم في رحلتك جوة نفسك.. هيساعدك تكتشف حاجات كتير جواك.

ندمت على استفزازه، سمعت صوت طلقة رصاص، وبعد ثوانٍ عاد ذلك المجهول الذي لم أكره أحدًا مثله الآن، قال بلهجة تقريرية لم تخلُ من تعاطف زائف:

- الله يرحمها.. كان فيها من ملامحك كتير.

***



١٢ - المصائب لا تأتي فرادى..

أريد فقط أن أعرف؛ بأي ذنبٍ قُتِلَت سلوى؟!

حين أخبرني «المجهول» أنه قتل شخصًا يشبهني توقف العالم من حولي.. ظننت أنه انتزع قلبي وسلبني مليكة، لم أعرف أين أذهب؛ ولا كيف أتخلص من هذا الكابوس الذي وضعني فيه ذلك المجهول الذي لم أكره مثله، أثقل العجز قلبي فأغشي عليَّ..

استيقظت على صوت آدم يبلغني باتصال رافي، كان الأخير منهارًا، لم يفهم منه آدم الكثير في البداية، لكنه استجمع آخر ما تبقى فيه من طاقة، وطلب من آدم أن يبلغني بوفاة أختي الوحيدة.

لم أستطع التأثر بوفاتها، فقد سيطر عليَّ شعور واحد: الارتياح لنجاة مليكة.. ولو بصورة مؤقتة!

سارت مراسم الجنازة على أسرع ما يكون، أدار خال سلوى كل الأمور اللازمة كتصريح الدفن وتأجير صوان العزاء.. علم رافي بخبر الوفاة حين اتصل به ضابط شرطة ليخبره أن سيارة سوداء ألقت جثمانها على جانب من الطريق الصحراوي، وقد اخترقت رصاصة منتصف عنقها.. أنهى رافي كافة الإجراءات مع الشرطة،



وقُيد الحادث ضد مجهول.. طلب رافي من أقارب سلوى التكتم على سبب الوفاة الحقيقي؛ لكن أحدًا لم يحفظ الوعد.

لم يتعجب رافي من نظرات الغل التي طاردته أثناء العزاء من آل سلوى؛ كانوا رافضين لفكرة زواجها من رافي لأنه لم يحصل على درجة عالية من التعليم.. وصلتُ العزاء متأخرًا كالأغراب، كان رافي واقفًا ببدلة سوداء مبعثرة الهندام، كانت نظراته ضالة كرضيع بلا أهل، حين وصلت لمحته ينفخ في كف يده محاولًا أن يبث في روحه دفئًا يعوضه عن سلوى.. ما لبث أن رآني حتى احتضنني كالطفل المشتاق لأمه.. حرك يديه فوق ظهري مستمدًا مني قوة لا أملكها.

جلست في جانب من العزاء بعد أن صافحت «الحاج صالح» متجنبًا أقارب سلوى الذين لم يحبوني بسبب أفعال «الطائي»، لم أركز في وجوه المعزّين، ولا في أي تفاصيل أخرى.. جلس آدم إلى جواري، يربت على كتفي بين الحين والآخر، كان قد أخفى وشوم جسده حتى لا يلفت النظر بالملابس الثقيلة التي لا يحب ارتداءها.. أتاني أحد أقارب سلوى ليخبرني أن هناك سيدة تريد أن تعزيني في وفاتها.. عدلت من وضع بذلتي الرسمية التي لا أرتديها كـ«ياسر» إلا نادرًا ولا يرتدي «الكونت» سواها، طلبت من آدم انتظاري لكنه أصر على مرافقتي خارج الصوان.

- البقاء لله يا مستر ياسر..

كانت طريقة مديرتي في المدرسة الدكتورة أسماء مقتضبة خالية من الحزن.. أجبتها ببعض الكلمات المبهمة وشكرت لها سعيها..



طلبت مني أن نتحدث على انفراد، لكنني أخبرتها أن آدم أخي ولا أخفي عنه شيئًا، ترددت قبل أن تخرج هاتفها المحمول، وضعت شاشته أمام وجهي، وجدت نفسي على الشاشة أثناء هروبي من «مطعم المعلم إدريس» مرتديًا الحزام الناسف.. كان التصوير بكاميرا عالية الجودة، بدا منها وجهي واضحًا.. سألتها عمَّن أرسل لها هذا المقطع، ردت بلهجة أكثر قسوة من لهجتها الحازمة في المعتاد:

- رقم مجهول.. وعامةً مش مهم مين صورك، المهم اللي شوفته ده بجد؟

لم أجد ما أرد به، حاول آدم الدفاع عني فطلبت منه الصمت والتزمته أنا أيضًا؛ تركتها تنهي المحادثة قائلة:

- الفيديو ده لو وصل لحد من أولياء الأمور المدرسة هتتشمع بكرة الصبح، واللي بعته اشترط عليا أفصل حضرتك عشان مايسربوش.

صافحت أسماء مبديًا تفهمي لموقفها، قلت لها بلهجة هادئة:

- كل واحد له أسرار لازم تفضل مخفية.. فرصة سعيدة يا دكتورة، ربنا يوفقك في حياتك ويعترك في ابن الحلال..

اقتربت منها، وأردفت بصوتٍ هامس:

- أو بنت الحلال.

لم أعرف كيف فعلت هذا، كيف جاءتني الجرأة لأبوح لها بما عرفت؛ خاصةً في هذا الموقف وهذه الحالة، لكنني رفضت أن أخرج مهزومًا، عدت مرة أخرى للانزواء في ركن من أركان الصوان.. مال عليَّ آدم هامسًا:



- مش ملاحظ حاجة غريبة في نسيبك ده؟

- رافي ؟

- ركز معاه كده.. مريب جدًا.

- إحنا في إيه ولا في إيه.. أختي اتقتلت من نفس المجهول اللي خاطف مراتي وبنتي.. وممكن يقتلهم في أي لحظة.

- شكيت في رافي؟

- وأشك فيه ليه؟

- رافي ده مش طبيعي يا ياسر.

- ماله يعني؟

- الراجل ده مدمن.

- آه بس ده موضوع قديم وماطوِّلش.. بعدين عرفت إزاي؟

- أنا بضرب من ثانوي يا أستاذ ياسر.

- بس اللي أعرفه إن رافي بطَّل..

- أنت ماتعرفش حاجة يا أستاذ ياسر.. الراجل ده لسه مسطَّر من حوالي ساعة.

سألته عن قصده، فاقترب من أذني ليتغلب على صوت المقرئ الذي بدأ تلاوته:

- ماحدش مستفيد من كل اللي بيحصل ده غير رافي.

***



حين عدت إلى شقتي بالإسكندرية التي خلت من غرام ومليكة، تذكرت يوم أن أنهيت بعثتي، لأبدأ فصلًا جديدًا من حياتي على أنقاض ما هدمه الطائي بداخلي..

كنت قد تغيرت كثيرًا أثناء البعثة؛ طال شعري، وتحسن هندامي، ازددت وزنًا وتعلمت كيف أخفي ما بداخلي.. لم أشعر بالحنين إلى بيت «الطائي» مثلما توقعت.. لم أعتبر أنني هجرتُ وطنًا، فلا وطن لي حيث يسكن عبد الحي الطائي.. أقمت في فندق مجاور لزنزانته التي شهدت أبشع ذكرياتي.. كنت حريصًا ألا يراني أحد الجيران أثناء مراقبتي له من بعيد حتى أتعرف على نظام حياته الجديد بعد أن هربت من جحيمه؛ فقد اشتد عليه مرضه وصعبت حركته، ولجأ لاستعمال كرسي متحرك متهالك.. كان يتوسل لأي من المارة أن يوصله إلى الحانة، فيقبل الأخير على مضض بعد أن يتعجب من عدم احترامه لسنه، طوال ثلاثة أيام لم أره يشتري أي نوع من الطعام؛ فخمنت أن الجارات يعطفن عليه ببقايا بيوتهن.. سألت الشاب الذي يدير الصيدلية المجاورة للمنزل عن الأدوية التي يبتاعها فأخبرني أن الطائي لا يزوره من الأساس!

بخلاف رحيل «علاء الدين» الذي لم أسأل عنه حتى لا أسمع ما يحزنني؛ كان كل شيء كما تركته تمامًا.. تأكدتُ أن أحدًا لا يهتم بوجود الطائي حتى يهتم باختفائه؛ فقط مالك الحانة سيسعد لحصوله على البيت الذي طالما انتظر هدمه لتشييد برج على أرضه.. تسللتُ إلى المنزل ليلًا وقيدته بسهولة، وضعته في سيارة اشتريتها فور عودتي إلى مصر بثمنٍ متوسط من ثروة الكونت، وأجرت شقة



الإسكندرية التي ستستقبل غرام، واشتريت فيلا الكونت التي ستستقبل الطائي وباقي الضحايا من بعده.

في البداية كان تفريقي بين هويتي ياسر والكونت ضعيفًا، لا أرى الخط الفاصل بينهما؛ فكلاهما أنا.. لكن مع الوقت اعتدت أن أتقن الهويتين تمامًا؛ فأعيش في حياة «ياسر» بسلوكه، وكذلك الأمر مع «الكونت»..

فتحت هاتفي بحثًا عن أي صورة لسلوى؛ فوجدت الصورة التي جمعتنا يوم عيد ميلادي، تذكرت أول حوار دار بيننا..

«أبونا اختفى بعد أن صفى أملاكه في القاهرة.. سأنتقل إلى الإسكندرية وأبحث عن عمل هنا.. سأتزوج من زميلتي السورية التي تعرفت عليها في أمريكا.. لا أريد أن نتعامل كإخوة لكن أريد أن نبدو كذلك أمام الناس.»

كان وقع كلامي مفاجئًا لسلوى التي كانت تراني لأول مرة متوقعة أن أطالبها بنصيبي من ممتلكات الطائي، لم تطلب إثباتًا للشخصية؛ فجينات الطائي الشكلية أثبتت كل شيء.. رحب بي زوجها الذي حاول أن يجعل اللقاء وديًا لا حميميًا؛ فقد عرفت أنه تاجر وأن للطائي أملاكًا كثيرة في الإسكندرية، فبالتأكيد رأى في زيارتي خطرًا على ميراث زوجته الذي لم يحن موعده بعد.

لم تكن سلوى وقتها تفكر في المال، فرحت أن لها أخًا لا يطمع في مالها ولا مال زوجها. أصرت على أن نخرج لتناول السمك في مطعمها المفضل، جلسنا نأكل أمام البحر.. أخبرتني أنها تمسكت بالبقاء في بيت طفولتها بمحطة الرمل على الرغم من إلحاح رافي



عليها بالانتقال إلى بيت أوسع خاص بهم.. لم أتحدث كثيرًا؛ اعتدت أن أشتري أفكار غيري دون أن أبيع ما بداخلي.. وفي نهاية اللقاء عانقتني عناقًا لم يدم طويلًا، لم أشعر دفئًا كهذا بعد أمي.

حين رحلت سلوى عن عالمنا أدركت أنها لم تكن بمثل هذا السوء، لم تكن ضحكتها مزعجة كما كنت أظن، لم تكن طامعة أكثر من كونها باحثةً عن حقها، حتى خيانتها لزوجها وسخطها على أبيها كانا هروبًا من واقع فرض عليها أنصاف الرجال؛ كانت ضحية مثلي.

تعلمتُ أنّ الموت كالمعلم الذي لا يدرّس لطلابه إلا بعد الامتحان، فلا ندرك الخير فيمن حولنا إلا بعد أن يسلبهم منا ذلك المُعلّم.

رأيت فيها وجهي إذا تبسمت، كانت ابتساماتي نادرة صعبة الانتزاع، لكنني تعلمت إخراجها حتى لا يلتفت الناس لأمري.. كنت أعلم أن التحوُّل لشخص غير عادي أمر شديد الصعوبة، لكن الحياة فرضت عليَّ ما هو أصعب: أن أصير عاديًا.

لم أحب ما أفعله فقط لأجل المال أو التنفيس عن شهوة السيطرة؛ فقد أحببت تميزي التام فيه، وتفردي عمن هم مثلي.. فإن مات «ياسر الطائي» غدًا فسيولد ألف مدرس رياضيات غيري، لكن إن مات الكونت فلا أحد سيخلفه.

أوقف المقرئ تلاوته لوجوب صلاة العشاء، قاطع آدم خواطري متسائلًا عن سبب عملي في التدريس بدلًا من الهندسة..

أعدت رأسي للخلف، أخبرته أنني قدمت أوراقي لأكثر من



شركة هندسية؛ فيجب للمهندس «ياسر الطائي» الحصول على عمل أمام الناس إحكامًا في التخفي عما يلفت النظر إليه، كان مدراء الشركات معجبين بملفي الدراسي ومشواري التعليمي، لكن ردهم الأخير كان رافضًا لتشغيلي؛ خمنت أنهم يتلمسون مني في المقابلات حرجًا اجتماعيًا وتخوفًا من المسئولية.

كنت أعلم أنني إن استخدمت سلوكيات «الكونت» معهم سأظفر بإعجابهم، لكن «ياسر» يجب أن يعتمد على نفسه وأن يعتاد منه الجميع السلوك الذي سيظهره لبقية حياته.. لم أتوقع أن ينكشف غطائي بعد كل هذه السنين، تذكرت أول لقاء جمعني بدكتورة أسماء..

- حضرتك خريج هندسة وعايز تشتغل مدرس رياضيات معانا في المدرسة؟

كان سؤال دكتورة أسماء متوقعًا، أجبتها كما لقَّنت نفسي من قبل:

- أنا مؤمن برسالة توصيل العلم.. وشايف نفسي متمكن في الموضوع ده، مجموعي في الدراسة مساعدنيش إني أتعين في الكلية؛ فيه مليون مهندس غيري.. بس فيه كام «مُعَلِم»؟

نظرت من شرفة مكتبها، أشارت نحو سيارتي التي ابتعتها لإحكام هوية ياسر.. حتى لا يشك أحدًا في ثروتي المفاجئة، قالت:

- بس مهندس وجاي من أمريكا.. سامحني يعني إزاي راكب عربية قديمة كده؟

- أنا اتعلمت هناك إن المظاهر مش مهمة طالما شغلي كويس..



بعدين أنا رُحت أمريكا ببعثة شبه مجانية، ولسه ماشتغلتش من وقت رجوعي.. المفروض تقلقي لو لقيتي معايا عربية أفخم من دي.

ضحكت أثناء عودتها للجلوس أمام مكتبها، دخل أحد السعاة حاملًا صينية نحاسية، ووضع أمام كلينا كوبين من عصير الجوافة الذي لا أحبه.. قلت لها بهدوء:

- زي ما مكتوب في ملفي، أنا أقدر أدرس جميع فروع الرياضة، وبطرق مبسطة تساعد الطلاب على الفهم، وممكن أخليهم متطورين عن منهج المدرسة وطبعًا عن مناهج الوزارة.

لم تفكر كثيرًا وأنهت اللقاء سريعًا حين وافقت على تعييني ابتداءً من يوم لقائنا.

***

- بس أنت مابتدخَّنش يا أستاذ ياسر!

هكذا ردَّ عليَّ آدم حين طلبت منه سيجارًا سميكًا من النوع المفضل له.. كنا واقفين في انتظار عُمال الفراشة حتى ينتهوا من فض صوان العزاء الذي نُصِب بجوار البيت، أفسحنا لهم المجال لجمع المقاعد وعروق الخشب والسجاجيد الحمراء البالية.. مد آدم السيجار نحوي بعد تردد قصير، أشعلتُ ولاعته ووضعتها أمام التبغ الذي التقط طرف اللهب بصعوبة.. حتى ملأ الدخان عينيَّ.. بدأت أسحب نفسًا قصيرًا وأخرجه، لم أتلذذ بطعم السيجار، قال آدم ساخرًا:

- حضرتك كده بتطفش الدخان يا كونت.. إسحب النفس ودخله صدرك، اكتمه جواك أطول وقت ممكن.



طبقت ما قاله، شعرت بمرارة في لساني وبألم حارق في صدري الذي لفظ الدخان سريعًا.. خرج معظمه من أنفي، علّق آدم على سُعالي الذي طال:

- أيوة كده.. خلي الدخان ينضف روحك يا كونت.

سحبت نفسًا مماثلًا، علمتُ وقتها أن قصة حب ستنشأ بيني وبين السجائر التي لم أجربها إلا قليلًا.. وقبل أن أسحب النفس الثالث رنَّ هاتفي برقم الخاطف.. وضعت السماعة فوق أذني ولم أبادر بالحديث هذه المرة، استسلمت له تمامًا، قال ضاحكًا:

- مش هتهدد تاني؟ طب مفيش عرض عايز تعرضه عليا؟

لم أرد ثانيةً.. فقال بلهجة لم تخلُ من إغراء:

- طب أم مليكة ماوحشتكش؟

قاومت رغبة في إبداء ضعفي أمامه أو بغضي له.. أعرف أنه سيستمتع إن أظهرت أحدهما أو كلاهما؛ فالتزمت الصمت، أكمل حديثه المنفرد قائلًا:

- المرة الجاية مش عايزك تعصي أوامري.. التزم باللعبة يا ابن الطائي.

سألته:

- عايز إيه تاني؟!

- كل اللي بتشوفه دلوقتي مجرد ديون في رصيدك، كل أذى بتتعرض له هو رد لضرر أنت سببته لحد تاني قبل كده، المفروض تشكرني. أنا خليتك تصفي واحد من صراعاتك القديمة.. وهخليك دلوقتي تصفي صراعين من صراعاتك الجديدة.



لمحت من بعيد شخصين أعرفهما جيدًا: هشام عدلي وداليا القاضي.. كان الأول جالسًا على كرسي متحرك يدفعه رجل عرفت فيما بعد أنه أخوه وشريكه «أيمن»، وبجوارهما تسير داليا التي لم ينتقص اللون الأسود من جمالها.. قلت للخاطف:

- مالقيتش غير عزا أختي تعمل فيه كده؟

ردَّ بصوته الإلكتروني الذي حرص على طمسه جيدًا:

- سلوى بقت أختك دلوقتي؟ ما علينا.

لم أرد عليه فأغلق الخط بعد أن أكمل حديثه قائلًا:

- صفي خصومتك معاهم.. وحاول تستمتع.

أوقف «أيمن عدلي» الكرسي المتحرك الذي يجلس فوقه أخوه هشام الذي بدا كأنه لا يعي أين هو ولا ما الذي يحدث من حوله. نظرت داليا مباشرةً في عيني بتركيز شديد، وكأنها تريد أن تحفظ ملامح الرجل الذي غيَّر فيها أكثر مما فعل أي شخص آخر.. هممتُ أن أسأل داليا عن كيفية تعرفهما على بعض وعمن جمعهما.. فقاطعني آدم بلهجة حكيمة:

- ما ينفعش نتكلم هنا..

أمنت على كلامه، طلبت منهما أن يتبعاني نحو شقتي.. بدا التردد على داليا، ورفضت الصعود إلى بيتي.. كنت أعرف أنهما جاءا بتهديد من «المجهول»، فمن المستحيل أن تزور الضحية من جنى عليها بكامل إرادتها.. قلت لها بثقة مشيرًا نحو هشام:

- خلاص خديه وامشي.

تكلم أيمن لأول مرة، لمست منه بغضًا حقيقيًا تجاهي:



- للأسف إحنا مجبورين نقعد معاك.

تجنبت الحديث معه، سألت داليا:

- خطف حد بتحبوه ولا هددكم يكشف سر معين؟

لم ترد داليا، ولم أنتظر منها ذلك، انتزع آدم من أيمن مقبض الكرسي المتحرك صاعدًا بهشام على أولى درجات السلم.

تقدمت أربعتهم متجهًا نحو شقتي، سمعت صوت رافي يصعد السلم من خلفي بسرعة، أوقفني بغضب، سحبني أمامهم من يدي بعنف قائلًا:

- شوفت الكارثة اللي حصلت؟

لم أرد عليه، كنت مقدرًا لحالته، سألني بغضب:

- فين مليكة؟

- أمها خدتها وسافروا يرتاحوا.. لسه مابلغتهمش بالوفاة.. عايز إيه منها؟

رد مشيرًا نحو هاتفه:

- محامي سلوى لسه قافل معايا.. بيقولي إنها كاتبة كل أملاكها بيع وشراء باسم مليكة.

سألته مندهشًا:

- الكلام ده حصل إمتى؟

- بعد ولادة مليكة بأسبوعين.

لم أجد ردًا، ألجمت فعلتها لساني.. كنت أعلم أن رافي لا يكترث لمال سلوى، ولا يشغل باله إلا بالحزن عليها؛ هو فقط غاضب ظنًا

منه أنني من دبرت هذه اللعبة مع المحامي مستغلًا غيابها لأنتزع ما كان لها.. أخبرته بصدق أننا سنجلس لنصل معًا إلى حل يرضيه؛ فأنا الوصي على مليكة التي لا أعرف موعدًا لعودتها.. طلبت منه أن يتركني أستقبل ضيوفي من المعزين في شقتي، فرحل ملقيًا نحوي نظرة اتهام دون أن يرد.

***

كان الصمت هو المتحدث الوحيد في بداية الجلسة.. حاول آدم الاطمئنان على صحة هشام عدلي فلم يجد منه ردًا ولا حتى استيعابًا لما يحدث حوله، كأنه فقد عقله تمامًا.. لمحت خلفهما صورة في صالة بيتي التي لم أعِد ترتيبها بعد؛ كانت تجمعني بغرام ومليكة.. أعدت النظر نحو داليا وهشام أطلت النظر في أعينهما؛ كان هشام محطمًا من الداخل، كنت أعلم هذا حين جعلته يخوض رحلته داخل مخاوفه الذاتية، كنت أعلم أن الطريق الذي سيسلكه لا إياب منه.. أما داليا فلم يمنعها ارتداء الأسود عن الظهور في كامل أناقتها، كانت نظراتها متحدية، كأنها تفكر في انتقام لا تستطيع إليه سبيلًا.. لم أتوقع أن يؤلمني النظر إليهما في مثل هذا الوقت، كان ألمًا غير مفهوم السبب، لكن الأكيد أنه لم يكن شعورًا بالذنب؛ فإن شعرت بالذنب سيموت «الكونت»، وهذا ما يريده «المجهول».

كسرتُ حاجز الصمت حين قلت لداليا القاضي بلهجة عملية:

- عندك معلومات عن الشخص اللي جامعنا دلوقتي؟

لم تنزل داليا عينيها من عليّ أثناء ردها:

- واضح إنه حد بيحبك.. كل اللي أعرفه إننا لازم ننفذ طلباته.



- تفتكري ممكن يكون حد من اللي بعتوني ليكي؟

هزت رأسها نفيًا، أكدت أن «المجهول» صاحب سلطة أعظم من مدرائها السابقين، كدت أن أسألها عما فعلت معهم وكيف نجت من عقابهم، عدلت عن هذه الفكرة وقبل أن أعرف كيفية تواصل ذلك المجهول معها.. قاطعتني بحزم:

- ده اللبس اللي بتلبسه وأنت بتعذبنا؟

لم أشعر بالراحة في لعب دور «الكونت» خارج أرضه.. أجبتها بحرج:

- تقريبًا.. في حياتي الأصلية مابحبش ألبس بدلة.

نظرت نحوي من أعلى لأسفل قائلة:

- بس شكلك مختلف عن الصورة اللي كانت في خيالي..

لم أفهم مقصدها فأكملت قائلة:

- طلعت «عادي» زيادة عن اللزوم.

أكملت حديثها كأنها تبرر لي، قالت أن هذا ضروري بالطبع حتى لا يفتضح أمري.. أغمضت عينيها مستعيدةً الموقف الذي جمعنا كاملًا، أمرتني قائلة:

- قول الجملة بتاعتك.

رد آدم بعصبية:

- جملة إيه؟ أنتي مجنونة؟

ردت عليه بهدوء دون أن تفتح عينيها:

- ماحدش وجه لك كلام.. هو عارف قصدي.

أشرت إليه حتى يصمت، كنت أعلم أنها تريد أن تصفي حسابها وتشعرني بالأسف على ما فعلت، فنفذت لها ما أردت دون أن أدرك حقيقة شعوري تجاهه، نظرت في عينيها وقلت لها بحرج مستعيدًا الذكرى الوحيدة التي جمعتنا:

- ماتخافيش يا آنسة داليا.. أنا معاكي.

لم يفهم آدم ما يحدث، طلبت مني داليا أن أعيد الجملة ثانيةً، ففعلت مضطرًا.. صدر عن هشام أنَّين خافت، وتحدث فجأة كأنه استيقظ من النوم، كان يهذي قائلًا:

- أمي ماتت.. البيت هيقع.

نظر آدم له مندهشًا، فبررت له داليا قائلةً:

- دي الحالة اللي وصل عليها من ساعة ما زار مقر «الباش مهندس ياسر»..

ثم وجهت نظرها نحوي قائلةً:

- ولا تحب أناديلك الكونت؟

كرر هشام هذيانه بصوتٍ خفيض:

- سرطان رئة.. الشركة فلست.

همس آدم معلقًا بسخرية لم تلائم الموقف:

- أموت وأعرف عملت فيه إيه!

نظر أيمن نحوه في غضب، قال أن حياتها قد تهدمت جرّاء أفعالي، فأُغلِقت الشركة خوفًا من أن يطاله الأذى، وأن الشركة التي تعمل لديها داليا مستمرة في عملها المشبوه الذي يسمم الملايين



يوميًا، وجَّه نظره نحوي قائلًا بلهجة غاضبة وبصوت عالٍ:

- مبسوط؟!

لم ألتفت له، نظرت لداليا محاولًا إخماد غضبها ورغبتها في التشفي:

- مالوش لزمة الكلام ده.. اللي أنا عملته كان جزء من قدر.. قدر أنتم اللي اخترتوه لما اتعاملتوا مع الناس دي؛ أنا ماجبرتش هشام ينافس ناس هو مش قدهم، ولا أرغمتِك تفضحي الشركة اللي مشغلاكي..

فرت دمعة من عين داليا حين قالت بصوتٍ مبحوح:

- كان فيه مليون طريقة ومليون حل غير اللي أنت عملته فينا..

نهضت من مكانها حتى وقفت أمامي، نظرت في عيني مباشرةً، علا صوت أنفاسها، توقعت أنها ستنهال على وجهي باللطمات وسيعلو صراخها بعد لحظات.. لكن آدم حال بيني وبينها في اللحظة الأخيرة، ورد مدافعًا عني:

- مش ذنبه إنه بيحب اللي بيعمله.. عايزة تفهميني إن عمرك ما أذيتي حد؟

ردت داليا وهي تقاوم آدم، بعد أن فرت الدموع من عينيها:

- الكونت أذانا يا أستاذ آدم.. وبرغم إننا عرفناه وعرفنا مليون طريقة ممكن تأذيه إلا إننا مانقدرش نرد له الأذى ده.

حين سمع هشام لقب «الكونت» ارتجف جسده وعاد للهذيان بصوتٍ أعلى قائلًا:



- حد يلحقني.. الكلاب..

عمَّ الصمت المكان، لم يقطعه إلا بكاء داليا المكتوم وهذيان هشام.. سألت نفسي حينها عن الغرض الحقيقي مما أفعل، من أنا؟ هل أحب غرام ومليكة حقًا؟ أم أنهما مجرد جزء من غطاء «ياسر»؟ وإن كانا كذلك فلماذا حرصي الشديد على عودتهما؟ هل «المجهول» يفهمني جيدًا أم أنه يتعامل في حدود ما قرأه عني؟ هل تعاملت معه من قبل؟ لماذا لم أشعر بالذنب حين واجهت جميع من آذيتهم؟ من أحب إلى قلبي: ياسر أم الكونت؟ من الأصل فيهما؟ من أقربهما إلى حقيقتي؟ إن أجبرني الخاطف على الاختيار بينهما فمن سأختار؛ «الكونت» الذي فقد أمواله وسُرِق حسابه الذي يدير المهمات من خلاله، أم ياسر الخانع الذي فقد عمله؟.. كلاهما عانى بما فيه الكفاية واحترقت كافة المراكب التي ستعيده إلى حياته السابقة؟ لماذا جنى عليَّ «الطائي» حين فعل بي كل هذا؟

لم أشعر بمرور نصف ساعة من السكون إلا حين نبهني صوت هاتفي المحمول الذي رن معلنًا اتصال من رقم مجهول..

- حاسس بإيه؟

أجبته قائلًا:

- إني بكرهك.

- أنت ماهربتش من الصراع المرة دي، شاطر.. بس ماتنكرش إني ساعدتك، واطمن من ناحية داليا وأيمن؛ ماحدش فيهم هيقدر يأذيك.. قول لهم الزيارة انتهت.



لم أرد؛ فقد خمنتُ أنه هددهم بطريقة أو بأخرى ليجبرهم على الحضور.. أكمل حديثه قائلًا:

- طمنهم، وسيبهم يمشوا واستعد لصراع جديد بكرة..

- «لعبتك» دي لازم تنتهي بأي شكل.

ردَّ ضاحكًا:

- - ماتخافش يا ياسر، أنا معاك.

قلت باستسلام:

- أنا مش قادر أكمل.

- للأسف ماعندكش خيار تاني، لسه كتير على خط النهاية..

أغلق الهاتف بعد أن رمى قنبلته الأخيرة:

- بذمتك ماوحشكش شغل الكونت؟

بدا أثر مكالمته على وجهي الذي احمر في غضب، خنقني شعور العجز تجاه ذلك الخاطف، لم يسألني أحدهم عما سمعت.. نظرت نحو داليا، نقلت لها رسالة «المجهول» بانتهاء الزيارة.. فقالت قبل أن تغادر مكانها:

- عايزة أسألك سؤال واحد..

- اتفضلي يا آنسة داليا.

- لو الزمن رجع بيك؛ هتعمل نفس اللي أنت عملته معانا؟

قلت دون تفكير:

- بصراحة.. آه.

نهض الجميع دون كلمة إضافية.. رحلوا سريعًا بعد أن تركوا

في نفسي أذى أكثر ألمًا من الذي سببته لهم.. رافقهم آدم إلى الباب، سمعت صوت هشام للمرة الأخيرة؛ كان يهذي قائلًا «هأموت.. هأموت». حين عاد آدم طلبت منه أن يعطيني سيجارًا آخر.. قال لي في قلق:

- الراجل ده بيموتك بالبطيء.. لم أعقب، سألت آدم:

- رافي سألك عن غرام ومليكة؟

- ماتقلقش.. قلت له زي ما اتفقنا: إن أنا ابن خالتها، وإنها قاعدة مع أختي في القاهرة، لأنها تعبانة شوية بسبب الحمل الجديد.

نظرت إلى معصمه الأيمن فلاحظت إخفاءه للصليب الموشوم فوقه بساعة ضخمة.. ابتسم حين فهم ما كنت أفكر فيه.. تحدثت معه متسائلًا عن غرض «المجهول» من كل هذا؛ فهو يجعلني أمر بالكثير من المشاعر الإنسانية: كالخوف والغضب وتأنيب الضمير، يريدني أن أصفي صراعاتي وفي نفس الوقت يقحمني في معارك جديدة. لم يرد آدم عليَّ.. سألني عن مكان المطبخ، وحين أشرت نحو بابه، أخبرني أنه سيصنع لنا القهوة.. نفخت دخان السيجار من أنفي حتى سعلت، قلت له بصوتٍ عالٍ أن الخاطف يسبقني بعدة خطوات: فهو يعرف كل شيء عني؛ حين اخترق حسابي على الإنترنت المظلم، وحين قرأ مذكراتي التي أروي فيها ماضيَّ كاملًا...

قاطع حديثنا طرقًا على الباب، نهضت لأفتح فوجدت أمامي مجموعة من العساكر، يتقدمهم ضابطان يرتديان الملابس المدنية.. اقترب مني أحد الضابطين، قال بلهجة حازمة:

- أستاذ ياسر.. إحنا مقدرين إنك راجل محترم، ومقدرين كذلك



الظرف اللي عندك، بس للأسف مطلوب ضبطك وإحضارك في قسم شرطة التجمع.

لم أفهم ما يحدث، خمنت أنه خطأ أو لعبة جديدة يلعبها معي ذلك المختطف.. نظرت نحو المطبخ فلم ألمح شبح آدم الخواجة كأن الأرض انشقت عنه، قلت للضابط بلهجة مستسلمة:

- ينفع آجي وراكم بعربيتي، ووعد شرف مني مش ههرب.

قال الضابط الآخر الذي بدا كأنه أعلاهما رتبةً:

- حضرتك هتيجي معايا في عربيتي، ومش هتلبس كلابشات.. احترامًا للظرف مش أكتر.

أومأت برأسي.. سألته وأنا أبحث بعيني عن آدم الذي تبخَّر تمامًا:

- على الأقل ممكن أعرف تهمتي؟

- حضرتك مُتهم بقتل المقدم حمزة درويش.

***



١٣ - صفقة

أُغلِقت أقفال الزنزانة من خلفي للمرة الثانية في نفس الأسبوع، ولنفس السبب: حمزة درويش!

حين وصلت قسم الشرطة وسط حراسة مشددة، كنت تائهًا عن كل ما يدور حولي.. لم أركز كثيرًا مع الضابط الذي اعتذر لي عن وفاة أختي التي لا ذنب لأحد فيها سواي.. ترجاني أن أهاتف محاميًا قبل أن يأخذ هاتفي.. أقسمت له أنني لا أعرف أحدًا يمكنه إنقاذي مما أنا فيه، وأن الإنقاذ -إن أتى- فسيأتي وحده.. خمَّن من نظراتي الزائغة وانصياعي التام لأوامره أنني في حالة غير طبيعية.. لم أخبره أنني أتصرف كمن يعلم أنه في كابوس فلا يعبأ بتفاصيله.

لم ألقِ بالًا بالمساجين الذين انتزعوا ساعة يدي وبعضًا من ملابسي، وتركوني حين لم يجدوا مني أي مقاومة تستفزهم ليضربوني، عادوا إلى أركان غرفة الحبس لاعنين المحابيس المملين أمثالي.

كانت الزنزانة أكثر ظلمةً وازدحامًا هذه المرة، لم أهتم بالبحث عن بقعة نظيفة أجلس فيها، لاحظت تجمعًا من الشباب، خمنت من حديثهم أن هذه ليست المرة الأولى لهم، قال أحدهم بصوتٍ



عالٍ أن من أبلغ عن مسيرتهم في محيط «ميدان سعد زغلول» لن ينجو بفعلته.. قال من بدا كقائدهم بصوتٍ عالٍ مازحًا:

- بدِّلوا النومة، واللي بيشرب سجاير يروح ناحية الشباك، استحملوا بعض.. يومين وهيزهقوا منكم وياخدوني.

فضحك الجميع، راحوا يذكرون زمن «ثورة يناير» التي مر عليها سنوات وسنوات، وأنهم كانوا أكثر جلدًا آنذاك.. تذكرتُ المرة الوحيدة التي قبض عليَّ فيها قبل ثورة يناير بسنتين، تم احتجازي بالخطأ لتواجدي في محيط مظاهرة طلابية تندد بالتوريث، تم نقلي بعدها لأحد مقرات أمن الدولة التي لم أعلم موقعها حتى الآن..

تذكرتُ حين أوقفنا الضابط أمامه أنا والمجموعة المقبوض عليها، تعمد خفض الإضاءة لإخفاء ملامحه هو وجنده، دار بيننا كسيد يبحث عن جارية في سوق نخاسة، طالع الخوف في وجوهنا جميعًا، وحين لمسه بداخلنا ارتسمت على وجهه ابتسامة قصيرة، سألنا عن وظائف أهالينا كي لا يعذب أحدًا من «أولاد الناس» بالخطأ.. وحين جاء دوري في السؤال أجبته بتلقائية:

- أبويا؟ خنزير.

فضحك الضابط وثلاثة من أمناء الشرطة الواقفين خلفه، حتى المحابيس أعجبتهم المزحة التي لم تكن كذلك.. سخرتُ وقتها في سري من الطائي الذي استطاع أن يوفق بسيرته النجسة بين خصمين لم ولن يتفقا إلى يوم الدين!

لكن الضحك لم يدم طويلًا حين عادت الجدية إلى وجه الضابط، وانهال على وجهي أحد الأمناء بصفعة دوَّت في القسم كله:



- أنت هتهزر قدام الباشا؟!

أمسكت أذني التي أصدرت طنينًا جراء الصفعة، وقبل أن يصفعني الأمين ثانيةً وقف أمامه زميلي في الكلية «ياسر الكنعاني»، قال له بتحدٍ:

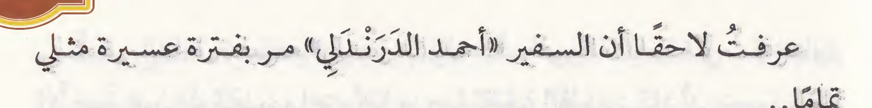
- الطائي طول عمره في حاله.. ماكانش معانا واتمسك بالغلط.

بدا الرفض على بعض الزملاء الذين رفضوا اعتراف ياسر الكنعاني على نفسه كأحد المنظمين للتجمع الطلابي، تقاسم «الكنعاني» الصفعات معي.. لم أندهش حين غاب شعور المهانة عني؛ فقد رأيت من عبد الحي الطائي ما هو ألعن. أعاد الضابط سؤاله ثانيةً، فأعطيته هذه المرة إجابة يفهمها؛ أخبرته أن أبي عاطل عن العمل. استمر الضابط في استجوابه لباقي الطلاب الذي عرفت معظمهم، كان أغلبهم زملائي من نفس الدفعة ممن تظاهرت بصداقة بعضهم كياسر الكنعاني الذي كان يجلس خلفي في لجان الامتحان؛ فأستغل تفوقه الدراسي وأنقل منه ما تيسر من الأجوبة.

تركنا الضابط في عهدة أمناء الشرطة الثلاثة.. بعد أن أوصاهم علينا: «روَّقوهم».

نظر نحونا أكبر الأمناء سنًا نظرة أعرفها جيدًا؛ مزيج هي من غرور العظمة ونشوة السيطرة ولذة الانتصار.. هي نظرة فرعون حين نظر إلى قومه معلنًا: «أنا ربكم الأعلى».. نظرة عبد الحي الطائي لولده الوحيد.

***



عرفتُ لاحقًا أن السفير «أحمد الدَرَنْدَلِي» مر بفترة عسيرة مثلي تمامًا..

يعمل « الدَرَنْدَلِي» سفيرًا بإحدى الدول الأوروبية، فقد ورث المهنة عن عائلته التي أنجبت الكثير من أعلام السلك الدبلوماسي. بالرغم من عمره الذي تجاوز الخمسين؛ فلم يكتسب بعد الخبرة الكافية في مجال عمله، كان ينبهر كل يوم بمعلومة جديدة كالطفل الصغير.. لم يشفع له قلة كفاءته سوى أنه ابن السفير السابق «عبد الحميد الدرندلي».. الذي ورث عنه سمعةً طيبةً، وهيئة تشبه باشاوات العهد الملكي، وثروة صغيرة استطاع أن يديرها من بعده بقليل من الحظ وكثير من العلاقات.

كان يقضي عطلته السنوية في مصر مع زوجته وأم ولديه التوأم اللذين لم يتجاوز عمرهما الخمس سنوات.. مرت أيام إجازته بشكل اعتيادي؛ ما بين مقابلة أصدقاء الطفولة، وصلة الرحم الذي لا ينقطع، والتنزه مع الأسرة التي كانت تتململ من الإقامة في مصر.. كان يحب البلد لكنه لم يحب أهله، فهو يتوق إلى الانعزال عمن يرونه مجرد «واسطة» يلجئون إليها لقضاء حوائجهم، ولا يحب تكوين الصداقات، لكنه لم يختر شيئًا طيلة حياته، فلِمَ التمرد بعد أن ولَّى العُمر!

تغيَّر كل شيء حين وصلته تهديدات مخيفة بأكثر من طريقة؛ بدأ الأمر حين كان يتناول إفطاره في النادي الرياضي الذي اعتاد الركض فيه صباحًا، فوجد أسفل طبق الطعام رسالة غامضة تقول: «اهرب!».



أنكر النادل علمه بكيفية وصول هذه الورقة للدرندلي.. فتجاوز الأخير عن الموقف، واعتبرها مزحة ثقيلة الظل.. كاد أن ينسى ذلك التهديد، حتى أتته مكالمة من رقم مجهول في مساء اليوم التالي، وحين ردَّ أتاه صوت رخيم يقول له: لازم تهرب.. مش هيسيبوك في حالك!

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ بل تطور حتى وصل إلى أن بعض المارة في الشارع يهمسون في أذنه بعبارات تحذير مشابهة، ظن أن هناك خللًا في عقله فذهب لطبيب نفسي شهير، كان يساعده منذ سنوات على تجاوز صدمة رحيل زوجته الأولى.. أكد له الطبيب أن قواه العقلية سليمة بنسبة كبيرة؛ فلا هو مصاب بالفصام الذي يجعله يرسل هذه الرسائل لنفسه، ولا وجود لخلل حسي يصيبه بالهلاوس.

ظلت رسائل التحذير تأتيه بشكل يومي في أكثر من صورة.. تارةً على رقم هاتفه، وتارةً أخرى على حسابه بموقع facebook من حسابات وهمية.. حاول أن يستفسر من أحد المرسلين عن نوع الخطر الذي يهدده فلا يجد ردًا.. عيَّن حارسًا شخصيًا لزوجته وولديه لحين الانتهاء من بعض الأعمال الضرورية قبل أن يقطع إجازته ويعود لأوروبا باكرًا.. حاول تقفي أثر الحسابات والأرقام التي تراسله، لكن دون جدوى.. كانت الرسائل ما بين التهديد مرة والتحذير مرة أخرى، كأنه واقع بين طرفين أحدهما يسعى لأذيته والآخر يحاول حمايته.. فقد القدرة على النوم بدون مهدئات، أصبح سريع الغضب خائفًا كفأر في متاهة لا يعرف لها ملامح.

قرأ على الإنترنت أن ما يحدث معه مجرد وسيلة تعذيب نفسي،



يتم إيهام الضحية فيها بأن خطرًا كبيرًا ينتظره، حتى يصاب بالبارانويا.. لم يستطع أن يتعامل مع الأمر ببساطة؛ خاصةً حين استيقظ ليجد التهديد مكتوبًا هذه المرة على حائط غرفة نوم ولديه!

أتته المكالمة المعتادة من الرقم المجهول، قال له الصوت الإلكتروني الذي كان يهدده ويهددني طيلة الفترة الماضية:

- ماتحاولش تسفَّر المدام والأولاد قبلك.. أنا سرقت باسبوراتهم من البيت امبارح.

خرج «أحمد الدرندلي» عن هدوئه الذي اكتسبه بحكم وظيفته وأطلق الكثير من السباب والتهديد بعلاقاته الكثيرة، فرد المجهول بضحكة طويلة أتبعها بقوله:

- كانوا نفعوك لما كلمتهم عشان توصل لي.. بس ماتخافش، طول ما أنت بتسمع الكلام ماحدش هيقرب لأسرتك.

سأله «الدرندلي» مستسلمًا عما يريد، عرض عليه المال، أو أي ثمنٍ آخر لراحة باله.. فبدأ المجهول يملي عليه أوامره..

***

في اليوم التالي استدعاني ضابط المباحث المسئول عن التحقيق في مقتل حمزة درويش.. تناولت آخر حبوب البيراسيتام التي خبأتها جيدًا في ملابسي.. عزاني في وفاة سلوى، طلب مني «دردشة ودية» فوافقت بإيماءة مستسلمة، كنت أعلم أن حركة رأسي نفيًا خيار غير مطروح.

كانت اليافطة الخشبية المخطوط فوقها اسمه ورتبته في وضع مائل، عدلتها بحركة لا إرادية.. لم يعلق على ما فعلت، سألني عن



علاقتي بالمرحوم، أجبته بصدق أنني لا أعرف عنه الكثير.. طرح أمر زيارتي له في مقر عمله، وتصرفه الغريب حين أدخلني الزنزانة لدقائق.. قلت ببساطة:

- أنا اللي طلبت أقابله؛ سمعت من عسكري في القسم إن حمزة بيه معاه متهم مهم جدًا، وأكيد حضرتك عملت تحريات وعرفت إني سافرت أمريكا فترة، هناك كان ليا صديق ضابط شرطة، عرفني وسائل استجواب كتير بيستعملوها هناك.

ردَّ الضابط مستنكرًا:

- فأنت قررت تروح للمقدم حمزة وتخش الزنزانة بمزاجك؟ عشان تدرس المتهم ده وتحدد طريقة الاستجواب المناسبة ليه.

أجبته بهدوء:

- بالضبط كده يا فندم.. وكمان تقدر تسأل.

ردَّ الضابط مستنكرًا:

- هسأل حمزة الله يرحمه؟!

- قصدي تقدر تسأل زمايله عن نتيجة شغلي مع يزيد الصاوي.

دخل أحد العساكر حاملًا صينية استقر فوقها فنجانان من القهوة، تناولت أحدهما الذي كان شديد المرارة.. قال الضابط بهدوء:

- إحنا جالنا بلاغ قبل وفاة المقدم حمزة إن حضرتك رايح بيته تقتله، وللأسف اللي تلقى البلاغ تعامل معاه باستهتار..

ضحكت ساخرًا مما قال.. فأكمل حديثه بنفس الجدية:



- عارف إنه مش سبب لاستدعائك، بس اللي لقيناه في شقة المقدم حمزة خلانا نشك فيك..

ارتشف رشفة طويلة من فنجانه، لعق شفتيه بلسانه ليزيل أثر البُن.. نهض متوجهًا نحوي حتى وقف أمامي مباشرةً، ثم جلس مقابلًا لي، لم أنظر مباشرةً في عينيه، لمحت أزرار قميصه التي كادت أن تتمزق بسبب انتفاخ بطنه.. أكمل حديثه قائلًا:

- لقينا صور وفيديوهات لأكثر من عملية اغتيال هو نفِّذها بنفسه، وسايب تسجيلات فيها اعتراف بكل ده؛ بحجة إنه بيطبق العدالة اللي إيد القانون عاجزة عن الوصول ليها.

كنت أعرف جيدًا ما يفعل حمزة خلف قناع «الميزان» لكنني أنكرت معرفتي به، سألني عن أسماء ضحايا حمزة، فأجبته بصدق أنني لا أعرف أحدًا منهم.. سألني بثقة:

- الغريب إننا لقينا صورتك وسط صور الضحايا دي.. ومعمول عليها علامة X باللون الأحمر.. شكله كان ناوي يقتلك.

- وهو وصل لصورتي إزاي؟ احنا ماتقابلناش غير مرة واحدة في مكتبه.

- ما هو كان جايبها من تفريغ كاميرات القسم يوم ما روحت له.

نهض محضرًا الصورة الورقية من فوق مكتبه، أشار بإصبعه على جزء منها متسائلًا:

- تقدر تشرحلي يعني إيه كلمة «الكونت» اللي مكتوبة على الصورة دي؟

***



- إحنا عملنا تحريات عنك يا باش مهندس ياسر..

هكذا استهل ضابط أمن الدولة حديثه معي، كان وسيمًا دقيق الملامح يشبه مذيعي نشرة الأخبار، بدا عليه كأنه صدق رواية «الكنعاني» عن وجودي في التجمع الطلابي بالخطأ.. كان نظري مثبتًا على صورة «حسني مبارك» المعلقة فوق رأسه آنذاك.. اعتذر لي عن التعذيب الذي تعرضت له طيلة يومين من الحبس، والذي شوَّه ملامح وجهي وأفقدني سنًا، وانتهك جسدي تمامًا ومزق ثيابي المهلهلة من الأساس.. لم أرد عليه، أو بمعنى أدق لم يكن لديَّ الطاقة لأفعل. نهض واقفًا، اقترب مني حتى كاد يلتصق بي من الأمام، خمنت من انكماش أنفه أن رائحتي لا تطاق، أشعل سيجارته نافخًا دخانها في وجهي عدة مرات، لم أقدر على التراجع خطوة أمامه، ضحك ضحكةً لم أفهم سببها، ناولني كوبًا من الماء فشربته مرة واحدة وطلبت آخر.. لم يرد عليَّ، عاود الجلوس أمام مكتبه، أخبرني أنه عرف عني كل شيء؛ مجرد طالب في نهاية حياته الجامعية، يتيم الأم، أخبرني ضاحكًا أن تشبيهي لأبي بالخنزير كان بليغًا؛ فعبد الحي الطائي لم يحاول البحث عني طيلة يومين اختفائي، وأن الوحيد الذي سأل عني في قسم الشرطة كان رجلًا يدعى «علاء».

لم أرد عليه.. أعتقد أنه قرأ شخصيتي جيدًا؛ فسألني بشكل مباشر:

- تعرف إيه عن زميلك الأبيضاني اللي دافع عنك؟

- ماعرفوش.

ضحك ضحكةً طويلة.. نظر لهيئتي الرثة من أعلى إلى أسفل، قال بهدوء:



- الناس في الدنيا دي تلت أنواع: نوع اتخلق عشان يكون البطل المنقذ؛ زي صاحبك كده.. ونوع اتخلق عشان يكون ضحية، ونوع تالت الناس بتقول عليه «جاني»؛ بس صدقني يا ياسر وجوده مهم عشان الحياة تكمل...

لم أصرح بما أفكر فيه، فقال ضاحكًا كأنه قرأ ما يجول في خاطري:

- طبعًا أنت عايز تقول لي إن أنا النوع التالت.. أنا عارف ده كويس.

التزمت الصمت، فأخرج مرآة صغيرة من درج مكتبه، وأكمل حديثه قائلًا:

- إنما أنت نفسك تكون إيه؟.. بطل؟!

نهض ممسكًا بالمرآة حتى وقف بجواري، رفع المرآة مباشرةً أمام عيني، رأيت انعكاس وجهي المتورم الذي لم أميزه في البداية، أمسكني من رأسي، طالع هيئتي ثانيةً من خلال المرآة، وقال بتأفف:

- بصراحة دور البطل مش لايق عليك خالص..

أنزل المرآة، ضغط بيده على جرح كبير في عنقي، لم يعبأ بدمي الذي سال من الجرح ولا بالألم الذي بدا على وجهي، قال بلهجة حادة:

- عايز تكون ضحية؟

فهمت ما يرمي إليه، فأزحت يده عن الجرح وقلت له بصدق:

- أنا طول عمري ضحية.. ومش حابب أكمل في الدور ده.



أدرك كلانا أنني صيد سهل، فعاد إلى مقعده وسألني مباشرةً:

- تعرف إيه عن ياسر الكنعاني؟!

- أعرف تمنه الأول؟

سألني بلهجة عملية وهو ينظر إلى ملف ورقي أمامه:

- ماقدمتش ليه في بعثة أمريكا اللي جت للقسم بتاعك؟

قلت متهكمًا:

- هاجي إيه وسط العباقرة اللي امتحنوا فيها؟

- تفتكر مين ممكن يطلعها؟

قلت دون تفكير:

- غالبًا ياسر الكنعاني.. ده بيطلع الأول علينا وهو مغمض.

أمرني بالاقتراب، ففعلتُ بخطوات مترددة.. أخرج قلمًا أسود اللون، وخط على ورقة بيضاء اسم «ياسر الكنعاني» وقال بعد أن شطب على كلمة «الكنعاني»:

- إيه رأيك لو غيرنا الاسم ده باسم تاني.

فهمت تلميحه، قلت له أنني لم أدخل امتحان البعثة من الأساس.. رد مبتسمًا بهدوء:

- الدكتور المسئول عمل لك امتحان استثنائي في مكتبه ومبروك عليك أنت نجحت فيه بتفوق عن باقي «العباقرة».. وهتسافر البعثة.

أردف قائلًا بابتسامة مشجعة:

- ولو حابب مجاميع السنين اللي فاتت تتعدل، وتبقى من الأوائل مفيش مشكلة.. وخلي حد يعترض.



كان صمتي أبلغ علامات الرضا.. كان عرضًا لا يمكن رفضه؛ هروب من سجن الطائي، ومن سجن الفقر، ومن كل السجون التي حاصرتني طيلة حياتي.. سألته عما يريد معرفته.. فردَّ ضاحكًا:

- أنت ما صدقت تبيع صاحبك يا طائي؟ عامةً ما تقلقش..

تركني لثوانٍ أفكر في مستقبلي الجديد، سألته بتردد:

- أنا لو رفضت فيه حد غيري هيعمل كده.. صح؟

فهم ما أفكر فيه فرد بصبر:

- أكيد.. كتير يتمنوا يشتغلوا معانا، بس إحنا اللي بنختار رجالتنا.. ريح ضميرك يا ياسر.. صاحبك «الكنعاني» قدره محسوم من يوم ما اختار السكة دي.

أكمل حديثه بلهجة خبيثة:

- كنت بتقول لي إنك ماتعرفش حاجة عن ياسر الكنعاني؟

قلت له في محاولة أخيرة لاستعطافه:

- الولد ده غلبان، أبوه فلسطيني...

قاطعني بعد أن زفر بملل:

- غلبان يبقى يقعد في بيته ويسيبنا نشتغل..

لم يكن لديَّ استعداد للتخلي على حلم الرحيل، كنت أجهز نفسي لهذه اللحظة من زمنٍ، أكملت حديثي كأنني أخشى أن أنسى شيئًا:

- أبوه سافر مصر قبل ما يخلفه.. و«الكنعاني» كان حكى لي قبل كده عن أول مرة ينزل فيها مظاهرة، كانت تبع...

قاطعني قائلًا بلهجة آمرة:



- هتقعد دلوقتي تكتب لي كل حرف تعرفه عن صاحبك الكنعاني ده.. ولو خبيت عني أي تفاصيل انسى البعثة..

وضع أمامي عددًا كبيرًا من الأوراق وقلمين، طلب مني أن أملأ هذه الأوراق بكل ما أعرفه عن زملائي، وعلى رأسهم الكنعاني.. مازحني أثناء مغادرته قائلًا:

- تعرف إنك الوحيد اللي معرفناش نضغط عليه بورقة أهله؟.. أبوك مش مساعدنا خالص في الموضوع ده.

لم أعلق على قذارة الطائي التي صنعت مني مسخًا يبني مستقبله على حساب الآخرين، سألت الضابط بخوف:

- أنتم هتفرجوا عن الكنعاني بعد ما تربُّوه.. صح؟

أجابني متجنبًا النظر في عيني مباشرةً:

- هنعرف مين وراه الأول..

سألته بأمل:

- وبعدين هتعرضوه على النيابة؟

ابتسم ابتسامة لم أفهم معناها إلا لاحقًا، قال بصوتٍ خافت وهو يغلق الباب خلفه:

- إن شاء الله.

***

أنكرت للمحقق إدراكي بمدلول كلمة «الكونت» المكتوبة على صورتي، بالطبع لم يصدقني؛ إن كنت مكانه فلن أصدقني.. خمنت أنه يفكر في وسيلة أخرى لانتزاع الاعتراف مني.. لا يعرف أنه



يبيع المياه في حارة السقاة. فكرت في كذبة تخرجني من الموقف؛ حجة غياب قوية أو شخص أستند لشهادته، لكنني لم أجد، حتى آدم اختفى تمامًا كالأموات...

- القبض على أستاذ ياسر الطائي غير قانوني بالمرة يا حضرة الضابط!

قاطع أفكاري اقتحام «السفير أحمد الدرندلي» لمكتب ضابط الشرطة، حين عرَّف نفسه فهمت كيف وصل إلى مكتب الضابط دون اعتراض من أحد، كان مرتبكًا يحاول اصطناع الهيبة؛ خمنت أن هذه أول مرة يستخدم فيها نفوذه الدبلوماسي، كما أدركت أنه يعاني من مشاكل في النوم من عينيه المجهدتين.. كانت بشرته وردية اللون ملساء تمامًا تلائم ملامحه ونظراته الطفولية، كان مدكوك القامة رياضي البنيان.. فك أزرار بذلته بُنية اللون وجلس مقابلًا لي دون استئذان من الضابط، ربت على فخذي مطمئنًا وحدثني بلهجة الصديق المقرب:

- ماتقلقش يا ياسر..

أومأت له في صمتٍ مستسلم، أدركت أنه طوق النجاة الذي أرسله ذلك المجهول الذي يسيطر على حياتي، أو أنه الجزرة التي يضعها أمام وجهي حتى أستمر في لعبته كالحمار.. أكمل «الدرندلي» حديثه ناظرًا نحو المحقق:

- أستاذ ياسر الطائي شخصية محترمة.. لا يمكن يكون اتهامه تصرف صحيح من وزارة الداخلية.

شرح الضابط بإجلال واضح لشخص «الدرندلي» الملابسات



التي أدت إلى اتهامي، والحقائق التي واجهني بها وأنكرتها، سأله «الدرندلي» عن تقدير الطبيب الشرعي لساعة مقتل حمزة درويش، وحين أخبره الضابط ردَّ «الدرندلي» -بلهجته الفخمة ولسانه الألثغ الذي ينطق الراء غينًا- مختصرًا الكثير من المسافات:

- طيب.. إيه رأي حضرتك إن أستاذ ياسر كان عندي في البيت في نفس الوقت اللي حصلت فيه الوفاة.

وضع «الدرندلي» ساقًا فوق الأخرى، ضبط من وضع شعره الذي يصففه على جنب، وأكمل حديثه متكئًا على حروفه:

- وفي حضرة الكثير من الشخصيات العاملة بالسلك الدبلوماسي.

أخرج هاتفه وقال للضابط مقترحًا:

- تحب أكلم لك أي حد فيهم يأكد لك كلامي؟

هز الضابط رأسه نفيًا، نظر نحوي بغلٍ واضح، كان يعلم أن القضية قد انتهت، وأنها ستقيد ضد مجهول.. قال بلهجة مستسلمة:

- وحتى لو مكانش عند حضرتك.. كفاية إنه يخصك.

ردَّ «الدرندلي» بعصبية مزيفة:

- حضرتك بتتهم «أحمد عبدالحميد الدرندلي» بشهادة الزور؟!

تأكدت أن الدرندلي لا يعمل مع ذلك المجهول الذي يتحكم في حياتي، كانت نظرته مشابهة لتلك النظرة التي أراها مؤخرًا في مرآتي: نظرة الضحية. اعتذر الضابط في استسلام واضح.. فردَّ الدرندلي مازحًا:



- أنا مقدر إنك بتشوف شغلك.. والبقاء لله في زميلك اللي توفى، أكيد هو في مكان أفضل كتير.

بدأ الضابط في إجراءات إطلاق سراحي، حاول الدرندلي أن يحكم تمثيل دور «صديقي» الذي فشل في أدائه من الأساس.. فقال للضابط مازحًا:

- ياسر أخويا الصغير.. وطول عمر بيته بيت كرم.. ده كفاية اسمه: الطائي!

لم يشغل الضابط باله سوى بالقضية التي راحت سدى، كان متعجلًا للخلاص من «الدرندلي» الذي لا يصمت، لم أكن مهتمًا بما يحدث، لم أشغل بالي إلا بالتفكير في هوية ذلك «المجهول»؛ بالتأكيد هو شخص يعرفني جيدًا.

نزلت مع الدرندلي الذي أعطى رقم هاتفه للضابط لرد الخدمة في أي وقت، حين خرجنا من قسم الشرطة تلفت حوله في خوف، زفر في ارتياح، همس في أذني أنه لا يعرف عني أي شيء، وأننا مُهددان من نفس الشخص المجهول، أكمل بهدوء:

- هو أمرني أول ما ننزل من القسم أوصلك..

- توصلني فين؟

- هيتصل يعرَّفنا.

أدار محرك سيارته البيضاء شديدة الفخامة، خمنت أن ثمنها يقدر بملايين، سألته عن سائقه الشخصي.. أجاب بلهجة آسفة أنه سرح السائق وعددًا من الحرس بناءً على طلب ذلك المجهول،



كان صادقًا في كل ما يقول؛ أعرف هذه النوعية من الشخصيات، لا تحتاج إلى الكذب في حياتها.

تحركنا هائمين لمدة جاوزت نصف الساعة، قص عليَّ خلالها كل ما حدث له مع ذلك «المجهول»، رن هاتف «الدرندلي» أخيرًا، ناولني الهاتف لأرد بصوتٍ عالٍ:

- مين «الدرندلي» ده كمان.. مش كفاية كوارث لحد كده؟!

رد «المجهول» بهدوءه المستفز:

- ده بدل ما تشكره؟ ماتعرفش أنا تعبت قد إيه عشان أخليه يطلعك من جريمة قتل حمزة درويش دي..

قلت مصححًا بصوتٍ عالٍ:

- يطلعني من جريمة أنتوا عملتوها.

- إحنا مين؟ أنا لوحدي يا ياسر!

كدت أن أتحداه أن يتحدث بصوته الحقيقي، بدلًا من التحدث خلال برنامج طمس الصوت.. لكنني أدركت أنه لا فائدة من هذا التحدي.. سألته بهدوء:

- والمطلوب؟

- مبسوط إنك دخلت في مرحلة التفاوض، وبطلت تهددني.. حاسس بإيه وأنت مستسلم للإيد الأعلى منك.

قلت له ببغض حقيقي:

- أوعدك الوضع ده مش هيستمر كتير.

- مستغرب أنت لحد دلوقتي إزاي معرفتنيش!



- قول اللي أنت عايزه!

ردَّ بلهجة عملية:

- اخطف السفير الدرندلي.. وخده على فيلا الكونت.

- بس...

وقبل أن أكمل جملتي قاطعني بلهجة خبيثة:

- على فكرة مليكة حفظت اسمي بسهولة؛ البنت دي دمها خفيف جدًا.. كويس إنها مطلعتش زيك.

- حاضر.

قال مستدركًا قبل أن يغلق الخط:

- صحيح.. عايزك أول ما توصل المقر تقتل عبد الحي الطائي.

***



١٤ - اثنان

لـو عـرف السـفير الدرنـدلي أن الطريـق الـذي أرشـده إليـه لا رجعـة لـه منـه، لما أطلـق سراحـي مـن الأسـاس..

أخفيت عنه أن المحادثة الهاتفية التي أجراها ذلك المجهول معي حولتني من ضحية مثله إلى سجّان سيأسره، وأنه سيصبح ضحية «الكونـت» القادمـة.. وصفـت لـه عنـوان فيلتـي، وخدعتـه قائـلًا أن «المجهـول» سـيقابلنا هنـاك، سـألني عـما أعرفـه عـن ذلـك المجهـول والسر وراء اختيارنـا.. أجبته بصدق أنني لا أعرف أية أجوبة تخص ذلك المجهـول؛ فلا أعـرف «مـن» ولا «لماذا» ولا «كيـف».. لا أعـرف سوى أنه مختل، ولديه الكثير من الصلاحيات لتنفيذ ما يدور في عقلـه مـن جنـون. كانـت سيارته مريحـة ينبعـث منهـا رائحـة معطـر زكـي، وصـوت خافـت لإذاعـة BBC.. أخرجـت هاتفـي لأراسـل آدم نصيـا، بادرتـه معاتبـا:

- كنت فاكر إن ورايا راجل!

رد خجلًا:

- سـامحني يـا أسـتاذ يـاسر.. أنـت عـارف إني مـاشي بـدولاب مخدرات، ولـو كنت اتمسكت معاك أقل واجـب كنت هلبس تأبيدة.



سألته:

- أنت كنت عايز تشتغل مع «الكونت».. صح؟

كتب لي أنه ينتظر هذه اللحظة منذ زمن، طلب مني عنوان المقر.. أمرته أن يسبقني إلى هناك.. لم يسأل «الدرندلي» عن أي تفاصيل تخص وجهتنا القادمة، كان قد استسلم تمامًا لإرادة «المجهول» الذي يهدد أمن عائلته، ولا يفكر إلا في الطاعة.

تفرست في ملامح الدرندلي متصورًا طريقة التعذيب المثلى لشخص كهذا؛ أعرف أنه لن يصمد أمام أبسط الطرق، لكن قواعد المهنة تفرض عليَّ ذلك.. خطر إلى بالي أسئلة أكثر أهمية من الوسيلة: فما الذي يريد أن يعرفه ذلك «المجهول» من رجل كهذا.. ما المعلومة التي يسعى إليها، وبأي غرض استهدفه؟!

قاطع تفكيري صوت احتكاك فرامل بالأرض، وصوت عالٍ لبوق التنبيه الخاص بسيارة نقل كانت تسير خلفنا، أخرج السائق رأسه من شباك سيارته المرتفعة، نظر إلينا من أعلى وانهال علينا بوابل من الشتائم، اعتذر له الدرندلي بصوتٍ خفيض وبحرجٍ بالغ، وصفه السائق بالحمار الذي لا يستحق مثل هذه السيارة الباهظة.. فأخرجت رأسي وأشرت للسائق بإصبعي الأوسط.. بدا على الدرندلي الخجل من فعلتي، وقال لائمًا:

- على فكرة أنا اللي غلطان.. سرحت وأنا سايق وفرملت قدامه فجأة!

لكن الأوان قد فات.. فقد ترجلت من السيارة وطلبت من سائق النقل أن يفعل مثلي، كررت إشارتي البذيئة.. نظر إليَّ ساخرًا،



أمر «التبَّاع» الذي معه أن ينتظره في السيارة حتى ينتهي من أمر «البهوات دول».. لحقني الدرندلي مكررًا اعتذاره للسائق، الذي كاد أن يسبه مجددًا قبل أن أفاجئه بدفعة من يدي في صدره، لم أستطع السيطرة على نفسي.. حاول الدرندلي منع السائق عن إيذائي، صرخ فيَّ بأن أتوقف، لكنني كنت خارج وعيي تمامًا.. أخرج السائق مطواة صغيرة كانت في جيبه، أصابني في كتفي الأيسر، شهق الدرندلي من منظر الدم، لكن غضبي كان أقوى من الإصابة، فضربته بين فخذيه حتى سقط أمامي، انهلت عليه بيمناي ضاربًا وجهه وضلوعه بشكل عشوائي؛ كان الأمر أشبه بشجار الأطفال، صرخت فيه غاضبًا من كل ما مررت به في الفترة الأخيرة، تجسدت أمامي كل من غرام ومليكة؛ أدركت الآن كم اشتقت إليهما؛ وقد كبحت حزني عليهما وسخطي لغيابهما، أودعت ألمي بداخلي لئلا يعيقني عن إيجادهما.. حتى انفجرتُ اليوم، أردت أن أعاقبه كأنه المسئول عن كل ما آسيته منذ المهد.

لكن السائق بدأ يستعيد قوته ويزيحني من فوقه، نزل التبَّاع مسرعًا لينقذ رب عمله.. ضربني على رأسي بعنف لأنتفض من مكاني، دفعته نحو جسم السيارة النقل فارتطم بها متأوهًا.. أمرتُ الدرندلي ان يتحرك سريعًا.

طلبت منه القيادة خلال أكثر من شارع جانبي حتى لا يستطيع سائق النقل اللحاق بنا. لم نتبادل الحديث حتى وصلنا إلى فيلتي القابعة بإحدى بقاع الطريق الصحراوي، أعطاني بضعة مناديل ورقية لأضمد بها كتفي الذي كان ينزف.. رنَّ هاتفي برقم «المجهول» الذي سألني بفضول:



- فكرت في طريقة لتعذيبه؟

- آه.. بس عايز أعرف ليه؟

- عشان أنا عايز كده.

قلت بلهجة عملية:

- مابشتغلش بفلوس ياسر.. وجنابك سرقت حساب الكونت.

ردَّ «المجهول» ضاحكًا:

- لما توصل المقر بتاعك هتلاقيني سايب لك فلوس هناك.. تقدر تشتري بيها كل اللي أنت محتاجه.. وتقدر تعتبر الباقي أتعابك، ولو إن مفيش أتعاب أغلى ولا أهم من حياة مليكة وغرام.

فرت دمعة مني، قلت له بلهجة متوسلة:

- هما فعلًا كويسين؟

- لحد دلوقتي، وعلى فكرة غرام نَفَسها حلو جدًا في الأكل.

لم أقاوم دموعي أكثر من هذا، فأطلقت سبابي المعتاد فيه، وأنهيت المكالمة قبل أن يرد بضحكته التي أبغضها.

***

وصل آدم متأخرًا لكنه أحضر كل ما طلبته، فزع من منظر جثث كلاب الحراسة التي سممها ذلك المجهول حتى يتسنى له دخول الفيلا ووضع المال بها.. لفت نظري إلى جروح وجهي وقميصي الغارق في الدم، أخبرته أنني سأصعد لأرتدي بدلتي الكاملة.. سألني بحيرة بالغة:

- الراجل ده عرف ازاي موقع فيلا الكونت؟!



سألته مندهشًا:

- هو موقع الفيلا ماظهرش له بعد ما اخترق الحساب بتاعي على الدارك ويب؟

ردَّ بلهجة متيقنة:

- مستحيل.. نظام الحماية اللي كان مصممه صاحبك الأمريكاني كان همه الأول إنه يداري الموقع بتاعك.. وغالبًا الجدع ده عرف يوصل لك لما كشف هوية ياسر اللي أكيد فتحت حسابه مرة من أجهزة الكونت.. احنا للأسف بنتعامل مع حد دارسك كويس جدًا..

أكملت جملته قائلًا:

- أو حد قريب مني..

كان «الخواجة» يتلفت حوله في انبهار؛ سألني -وهو يتابع شيئًا ما على هاتفه- عمن ينظف هذا المكان، ويحضر لي أدوات التعذيب فيما سبق، ومن يضع الأكل للحيوانات القابعة في الطابق السفلي، أجبته أنني أفعل كل هذا بشكل دوري.. اندهش من مقدرتي على الموازنة بين الهويتين، لم أخبره أن الأمر كان ممتعًا برغم كل هذا المجهود..

سألني أثناء نزولنا معًا للطابق تحت الأرضي:

- إيه أكتر تعذيب مؤلم مارسته في حياتك؟

- الأمل.. إنك تسحب الأمل من ضحيتك، تخليه مش عارف نهاية للي هو فيه، ومتيقن إن مصيره في إيدك، وإنك مش إيد أمينة هتحميه؛ أنت مجرد مهيمن على حياته.

أردفت قائلًا:



- صدقني الألم النفسي أعظم وأبشع بكتير من الجسدي، يعني بيتهيأ لي إن عذاب الآخرة الحقيقي مش في نار جهنم؛ بس في فكرة الخلود جواها.

اقتدت آدم إلى حجرة الضحايا حيث احتجزت «الدرندلي»، لم يأخذ تخديره وتقييده بالحجرة مجهودًا يذكر.. طلبت منه أن يساعدني في إنزال المعدات التي أحضرها في سيارة نصف نقل أجرها بالسائق.. كنت مرهقًا بعد توالي الصدمات فوق رأسي، علاوة على البيات في الحبس وشجاري مع السائق، فعرض «آدم الخواجة» عليَّ أن ينزلها بمفرده، توجهت للحجرة البيضاء حيث أحتجز عبد الحي الطائي.. كان على نفس حالته منذ أن تركته؛ لم ينفد طعامه، خاصةً أن شهيته لم تعد كالبشر، كان قد تغوط على نفسه أكثر من مرة.. توجهت إلى ثلاجة صغيرة في ركنٍ من الحجرة البيضاء، أخرجت منها زجاجة من اللبن الذي اعتدت أن أسقيه للطائي، وملأت منه كوبين بلاستيكيين، اقتربت منه دون أن يلتفت نحوي.. قبلت يده باحترام، أجلسته على ركبتيه.. جلست بجواره في وضع مماثل، وشربت معه اللبن بعد أن ضربت كوبينا في بعضهما، وحين انتهى مسحت له فمه في أكمامه.

ركعت على ركبتي خلفه، احتضنته من الخلف ومررت أصابعي فوق الشعيرات المتبقية في رأسه الأشيب، ربتُّ عليها طالبًا منه ألا يخاف.. أحطت رقبته بساعدي وأحكمت قبضي عليها حتى كسرت عنقه. خمدت حركته تمامًا، توقعت ألا يستغرق الأمر بضعة ثوانٍ، لكنها مرت عليَّ دقائق طويلة مؤلمة رأيت خلالها كل ما عانيتُ مع هذا المسخ الذي جعل مني الرجل الذي صرت عليه الآن.



استنكر آدم حين رآني حاملًا جثمان الطائي.. سألني عمَّن يكون، فأجبته أنه ضحية قديمة عاشت أكثر مما تستحق.. تغيرت نظرته لي للحظات، قبل أن يبدأ آدم في ملامتي أمرته أن يدفن الجثة في موقع مستتر من حديقة الفيلا؛ كنتُ أعلم أنه سيجد تبريرًا لفعلتي من نفسه، انتظرت اتصالًا من «المجهول» حتى يخبرني بما يريد أن يعرفه من «الدرندلي»، أعلم أن الانتظار أبشع عذاب لضحيتي؛ لكن هذه المرة كان الانتظار يعذبني معه!

وصلتني رسالة من «المجهول» بعد ساعة من الانتظار.. دخلت على الدرندلي، كان لديه الكثير من الأسئلة، لم أبادله الحديث، نصبت المعدات التي أحضرها آدم كيفما تخيلت تمامًا، قيدت الدرندلي بإحكام فوق المقعد الجالس عليه، وأكملت عملي الذي لم يفهم الدرندلي شيئًا منه، قلت له بهدوء:

- في العادي بقول لأي حد مكانك ميخافش.. لأني في الأول وفي الآخر المتحكم في الموضوع، وغالبًا بسببه يطلع حي.

أكملت حديثي وأنا أتأكد من عمل الكاميرات المثبتة في جوانب الحجرة حتى أراقبه من أعلى:

- بس المرة دي أنا مش أعلى إيد في اللعبة، وفيه إيد أعلى بتحركني.. فنصيحة من أخوك: خاف.

قال بلهجة متوسلة:

- خد كل اللي معايا، بس سيبني آخد عيلتي ونسافر، وأقسم لك بالله مش هنرجع تاني!

ضحكت قائلًا بهدوء:



- مشكلة الإنسان إنه دايمًا بيربط الخطر بالمكان، مايعرفش إن الخطر زي الموت..

أكملت حديثي متكئًا على حروفي:

- موجود في كل مكان.

- طب شوف اللي بيهددني ده عايز يعرف إيه وأنا هقول لك من غير تعذيب!

- هو مش عايزك تقول دلوقتي.. هو عايزك تتعذب!

لم أشعر بتأثير كلماتي عليه؛ كأنني فقدت الكثير من سحري الذي حل الفتور محله، قلت له مزيفًا استمتاعي التام بما يحدث:

- الكنز في الرحلة يا سيادة السفير، مش في الوِجهة إطلاقًا.

تركته يستنجد بمن ينقذه؛ كان يعلم أن موقع الفيلا منعزل تمامًا لكنه كان غريقًا يتعلق بقشة غير موجودة.. صعدت إلى غرفة نومي حيث طلبت من آدم أن ينتظرني، كان يتأمل كل ما في الفيلا بدهشة طفل يرى العالم.. فتحت حاسبي لأشغل إحدى مقطوعات العود، وبدأت أطالع أحمد الدرندلي من خلال كاميرات المراقبة، شعرت أن آدم يحمل بداخله الكثير من الأسئلة، فأشرت نحو شاشة الحاسب وقلت له شارحًا:

- الطَريقة دي اسمها «تزاحُم الحواس»؛ يعني أنا بعرَّض «الدرندلي» لأقسى المؤثرات اللي ممكن تتعرض لها حواسه..

أشرت بمؤشر الحاسب على جدران الحجرة، وقد تم تثبيت أربع شاشات تلفزيونية عملاقة على كل حائط.. أكملت حديثي شارحًا:



- نبدأ بالإدراك.. الأربع شاشات دول زي ما أنت شايف بيعرضوا نفس الفيلم، بس كل فيلم متأخر عن التاني بـ٣ ثواني بالظبط.. حاجة متعبة جدًا للإدراك.

حركت المؤشر ليشير أسفل المقعد الذي لم يتوقف عن الدوران بأحمد الدرندلي، قلت:

- وربطنا الدرندلي في كرسي متثبت بقاعدة دوارة؛ عبارة عن قرص متوصل بالكهربا عشان يلف حوالين محوره.. كنت شاريها زمان عشان ضحية قديمة.. القاعدة دي بتخلي الكرسي يتحرك في دواير؛ فمنها بتدوَّخ الضحية، ومنها بتجبره يتفرج على الأربع شاشات في نفس الوقت تقريبًا.

استنتج أن السماعات المدوية التي اشتراها ليتم توصيل الشاشات بها كانت للتأثير على حاسة السمع لدى الضحية.. أخبرته أن استنتاجه صحيح، وأضفت قائلًا أنني وضعت بعض المسامير والأجسام المعدنية صغيرة الحجم فوق الكرسي ليكون غير مريح، وأنني ألبست «الدرندلي» رداءً صوفيًا قديمًا على اللحم.. وبذلك نكون قد آذينا حاسة اللمس لديه. قال آدم كتلميذ نجيب:

- وجثث كلاب الحراسة اللي خليتني أنزلهم له بدل ما ندفنهم عشان تأثر على حاسة الشم، والكشافات العالية اللي فوق كل شاشة عشان ميعرفش يغمض عينه وينام.

- ضيف على كل ده إني عامل نظام إطفاء للحرائق في الغرفة دي، كل ما أحس إنه هيفقد الوعي هفعل النظام، والسقف هينزل مية



عليه.. ده طبعًا غير التكييفات اللي أنا بتحكم فيها من هنا؛ يعني ممكن نخلي الجو عنده قطب جنوبي وبعد ثواني نخليه خط استواء!

صفق آدم بإعجاب شديد، وصف تفكيري بالشيطاني، سألني عن المعلومات المطلوب معرفتها من الدرندلي، فأجبت له مستعيدًا ما أمرني به «المجهول»:

- مطلوب مني أخليه يحكي كل حاجة عن أرملته!

أطلق آدم سبة بذيئة، أبدى اندهاشه من هذا الطلب الغريب.. علّق مازحًا أننا إن عزمناه على فنجان من القهوة واستدرجناه فسيقول نفس المعلومات، استأذن مني آدم أن أوقف التعذيب لدقائق، نزل إلى أسفل وثبت كاميرا تصوير أمام وجه الدرندلي، وأمره بالحديث عن أرملته.. لم يكن لدى الدرندلي المقدرة على الرفض أو إبداء التعجب من الأساس، أخذني آدم من يدي إلى غرفة نومي ثانيةً، صمم على تشغيل موسيقى العود التي اكتشف حبه لها.. تعجبت من اندماجه السريع في عمل «الكونت» وحرصه عليه.. سألني آدم:

- تفتكر «المجهول» ده عايز منك إيه؟

أجبته بعد تفكير:

- أظن كده هو عايزني أجرب حاجة جديدة؛ عايزني أعذب حد ماعرفوش، وأجرب إحساس إني أكون تحت إيده هو.. مش بتصرف من دماغي زي ما كنت بعمل طول حياتي!

- وهو هيستفيد إيه من ده؟

- مش عارف.



- طب أنت حاسس بفرق؟

قلت بصدق:

- فرق كبير.. أنا مش حاسس بأي متعة دلوقتي، برغم إن الطريقة دي قاسية جدًا بالنسبة لبعض الطرق اللي اشتغلت بيها زمان.. عايز الكابوس ده ينتهي.

أوقفت مقطوعة العود، وأكملت حديثي بهدوء:

- أنا متعتي مش في الوجع.. لكن لذتي الحقيقية مصدرها إني متحكم تمامًا في مصير اللي قدامي، وإن تصرفاتي مفيش عليها أي رقيب من أي نوع.. ألم ضحيتي مفتاح خضوعها لسُلطتي، لكن مستحيل يكون هو الشهوة اللي ترضيني.

صمت قليلًا، ثم سألني:

- أنت متأكد إن كل المعلومات اللي الخاطف يعرفها كانت مكتوبة في مذكراتك؟

- تقصد إيه؟

- فيه حاجات كتير أنت حكيتها لي مايعرفهاش أقرب الناس ليك.. بس الخاطف ده يعرفها؛ أهمهم مقر الكونت مثلًا، اللي أكيد ماتكلمتش عنه في مذكراتك ولا حتى اتكشف من حساب الدارك ويب.

أكمل بسرعة قبل أن ينسى استنتاجه:

- ده غير إنه بيعرف كل تحركاتنا، مع إني متأكد بنفسي من إن تليفوناتنا محمية ضد التتبع.



شعرت بالحيرة من كلامه.. كان «آدم الخواجة» مترددًا في إخباري بما توصل إليه.. طلبت منه بنفاد صبر أن يخبرني بتخمينه، فقال بعد أن اكتملت الصورة في ذهنه:

- الخاطف دايمًا سابقنا بخطوات، كل مكان بنروحه بيكون هو سابقنا هناك، عارف حاجات مش سهل أي حد يعرفها، فاكر لما طلبت مني أدور على «كريس برادلي»؟ بعدها على طول لقينا «الخاطف» ده بيتصل وعارف احنا بنعمل إيه!.. ده لازم يكون حد قريب منك زي الظل بالظبط.

صرخت فيه آمرًا:

- إنجز يا آدم وقول قصدك إيه؟!

- أنا عرفت مين اللي خطف غرام ومليكة يا أستاذ ياسر.

- مين؟

أجاب بعد تردد:

- الكونت.

***



١٥ - نيران صديقة

شعرت بكلمات آدم تعتصر قلبي لمجرد التفكير في احتمالية كوني المسئول الوحيد عن كل هذا..

جلست فوق أقرب المقاعد لي، شعرت أن الدم سينفجر في أي لحظة من شرايين مخي الذي توقف تمامًا عن العمل.. لم أحتج للكثير من الدلائل حتى أدرك أن كلام آدم صحيح، فمن سواي يعلم تحركاتي بهذه السرعة، وينفذ الأمور بهذه الحرفية.. لم يجد آدم ما يقوله سوى بعض الهمهمات، ربت على كتفي وطلب مني بحرج شديد أن أحاول تذكر مكان غرام ومليكة، توسلت إليه ألا يتركني مهما حدث، وأن يعرضني على طبيب نفسي إن لزم الأمر.. لا يهمني الآن انكشاف أمري أو أي شيء آخر، لا يهمني إلا عودة غرام ومليكة اللتين آذيتهما بنفسي.. يجب أن أتذكر!

لعنت يوم ميلاد «الكونت» الذي كبر بداخلي حتى استعر وأكلت ناري بعضها، أدركت أن كل ما حدث كان محاولةً من «الكونت» للتمرد على ياسر وفرض وجوده عليه.. ولكن كيف وكلاهما واحد؟!

- بس ازاي كنت بتصل بنفسي وبرد عليها؟



ردَّ آدم كأنه وجد طوق نجاة يفسد صحة استنتاجه:

- صح.. وأنا كنت بسمع صوت الخاطف على التليفون.. والمكالمات كلها مسجلة، وكمان مين اللي صورك وأنت خارج من عند «تمَّام»؟

قاطعته بخيبة أمل:

- أكيد «الكونت» أجر حد من «الدارك ويب» يعمل كل ده فيا.

بدأت أتعامل مع الكونت كشخص آخر؛ له إرادة منفصلة تمامًا عني، ليس مجرد هوية صنعتها بنفسي.. سألني آدم:

- يعني حضرتك مش فاكر أي حاجة من دي؟

دفنت رأسي بين يديَّ وهززتها نافيًا، لم أجد ما يقال.. هززت رأسي نافيًا، صحت فيه مستنكرًا:

- أكيد مش أنا اللي عملت كل ده.. أنت شارب حاجة يا آدم صح؟.. ريحني وقول لي إنك مش في وعيك.. مش هتضايق منك بجد!

ضحك ضحكة قصيرة ورد بصدق:

- تصدق دي أول مرة من سنين أكون فايق.. بحاول أبطَّل.

استغرقت في أسئلتي، بحثت عن الشر في كل من حولي؛ لكنني نسيت منبعه بداخلي.. ولكن كيف خلقتُ كل هذا دون أن أعي بتنفيذه؟! جاءتني الإجابة حين سمعت صوت حركة قادمة من بهو الفيلا.. سألت آدم هامسًا إن كان قد أحكم إغلاق زنزانة «الدرندلي» فأكد أنه فعل ذلك، طلبت منه أن يأخذ سلاحي الموضوع جوار الفراش ويتبعني.. تسحبنا بخفة وبخطوات حثيثة



نحو البهو لأجد أمامي رجلين ضخمي الجثة، أشهر آدم السلاح في وجهيهما وسألهما عمن يكونان.. لم أتوقع ردة فعلهما؛ فحين رآني أحدهما أشار لي محييًا واقترب دون خوف قائلًا:

- احنا جينا حسب الميعاد يا كونت.

نزلت السلم بحركة سريعة وخلفي آدم، سحب آدم مفتاح الأمان الذي دوى صوته في بهو الفيلا.. قلت لهما:

- ميعاد إيه.. أنتم مين أصلًا؟!

رد الرجل الآخر، بدا لي كأنه التابع، كان ضخمًا على قدر من البدانة، وتغطي وجهه ندبة كبيرة زادته قبحًا:

- أنت بتستهبل عشان ماتديناش باقي حسابنا؟!

أطلق آدم رصاصة في الهواء مهددًا:

- أنتم عايزين إيه؟

أخرسه الرجل الآخر الذي خمنت أنه القائد، وقال بهدوء:

- سامحه يا كونت مايقصدش..

أصدر آدم صوتًا معترضًا، وهددهما إن لم يرحلا فسيقتلهما، أشرت له حتى يصمت وطلبت من هذا القائد أن يشرح بشكل تفصيلي، فأشار نحو آدم وسألني بتردد:

- أتكلم قدامه عادي؟

صحت فيه أن يتحدث.. قال بتململ:

- مش حضرتك كنت اتفقت معانا من «الدارك ويب» ودفعت لنا مقدم حساب؟.. احنا جايين ناخد باقيته.



سأله آدم عن طبيعة الاتفاق، فردَّ الرجل بنفاد صبر:

- اتفق معانا نبعت له رسايل تهديد ونخطف مراته وبنته من الإسكندرية، ونكلمه في التليفون نهدده بكلام هو اللي كتبه لينا، ونخليه ينفذ تعليمات هو بنفسه اللي ملاها لنا.

زاغ بصري، بدأت الموجودات تختفي من أمام عيني، شعرت أن وعيي ينسحب مني، استندت على آدم الذي سأل الرجل المأجور بتعجب:

- يعني أنتم اللي صورتوه في إمبابة وبعتتوا الصور لدكتورة أسماء؟

- آه وإحنا اللي قتلنا الظابط حمزة.. وبعتنا له السفير الدرندلي عشان يشهد معاه.

وختم حديثه مشيرًا نحوي:

- وكله كان بتعليمات الكونت.

قلت لهما بلهجة متوسلة:

- هديكم باقي حسابكم.. بس تقولوا لي فين مراتي وبنتي دلوقتي؟

رد المساعد الضخم بلهجة متهكمة:

- أمال احنا جايين ناخد باقي حساب إيه؟

بدا عليَّ عدم الفهم، فأكمل بنفس الاستنكار:

- مش أنت اتصلت بينا إمبارح وأمرتنا نقتلهم؟!

***



ظلت «مايسة» واقفة مكانها لا تدري ماذا تفعل.. تنتظر أن يقوم «عم وهدان المراكبي» بعمل معجزةٍ تعيد الحياة لرافي الذي فقد الوعي.. لم تعلم إن كانت أحبته أم أحبت ماله أم أحبت نظرته إليها كأنثى حقيقية، لم تلفظه من أحضانها كما لفظته الحياة التي اعتزلها ليرمي بكل ما يملكه فيها أسفل قدمي «مايسة»؛ فابتاع عوامة « وهدان المراكبي» واصطفاها لتكون عشيقته، ولتحضر له ما يريد من المخدرات مستغلةً علاقاتها.. لم يشترط عليها أن تكون له وحده لكنها ألزمت نفسها بذلك؛ ما دام «رافي» هو من ينفق عليها فستكون ملكه.

لم يتوقف سوقها كعاهرة حتى بعد أن جار الزمن عليها وأخذ من مفاتنها ما أخذ.. استهدفت صغار السن، كانت ترى المراهق زبونًا سيء الذوق سهل الإرضاء؛ يمكن إشباع شهوته بأقل القليل.

بدأ عم وهدان يفقد صبره؛ رفع قدمي رافي إلى أعلى، صرخ في أذنيه، خبط على صدره بقوة، ضرب قلبه أكثر من مرة بيأس كأنه يعاقبه.. لكن دون جدوى.

أشار نحو عدة أكياس بلاستيكية فارغة ملقاة على الأرض، وإلى أنف رافي الغارق في المسحوق الأبيض قائلًا:

– ماكانش لازم يشد كل الكمية دي!

قالت مايسة بحزن:

– هو ده حد بيعرف يوقفه.. بعدين ما هو بيشرب كده كل يوم!

لم يعلق وهدان، دفن وجهه بين يديه مفكرًا فيما يفعل.. فسألته مايسة:



- لو خدناه مستشفى هيبقى كويس؟

رد وهدان بصوتٍ عالٍ:

- مستشفى إيه يا بهيمة أنتي كمان؟ ده ميت بقاله ياما!

أطلقت مايسة صرخة قصيرة، صكت صدرها ووجهها بحزن حقيقي، وانحنت إلى جوار رافي مناديةً عليه، ظلت تردد بحنان «قوم يا سي رافي.. أبوس إيدك قوم».. هزَّ وهدان رأسه بيأس، وسألها باهتمام حقيقي:

- شنطة الفلوس اللي جابها معاه أول يوم فاضل منها كتير؟

ردت مايسة بلهجة لائمة أنها يجب أن تبلغ أحدًا من أهله، ولا وقت للحديث عن المال.. فنهرها وهدان وجذبها من جوار رافي، أمسكها من ساعديها بعنف مكررًا سؤاله بعصبية وبصوت حاول أن يخفضه:

- إفهمي يا بقرة.. رافي مات خلاص.. ولو بلغنا هنروح في ستين داهية.

كانت مايسة قد رأت في حياتها ما يجعلها تتغلب على حزنها سريعًا، وتسأل وهدان عن الخطوة القادمة.. فقال لها بلهجة عملية:

- الفلوس هتتقسم بيننا..

سألته عن رافي، فداری دمعة انحدرت من عينه، وأجاب دون أن ينظر مباشرةً في عينيها بلهجة لم تخلُ من قسوة.

- الله يرحمه كان بيحب البحر.. خلاص بقى هو أولى بيه.



لم يلحظ وهدان صوت هاتف رافي الذي صدر عنه آخر ما كان يسمعه قبل وفاته؛ كان «الشيخ أحمد التوني» يختتم إنشاده:

«خُضر العمايم وأنا نايم ندهوني.. أهل الكرَم في الحرم ناديتهم جوني.»

***

زاغ بصري تمامًا، شعرت بالألم يعتصرني من الداخل، بدأت أهذي بكلمات لم يفهمها أحد الواقفين، سقطت على الأرض منهارًا، انفصلت عن الموقف سارحًا في ذكرياتي مع غرام ومليكة: الحسنة الوحيدة التي ظفرت بها من الحياة. الآن فقط أدرك قيمة وجودهما بعد أن حرمت نفسي منهما، شعرت بحضن غرام الذي لم يغمرني إلا حنانًا، وبأصابعي الطويلة وهي تداعب وجنتيها، أفتقد ابتسامتها الراضية وتشجيعها المستمر لشخص لم يكن لها إلا مسخًا.. أشتاق إلى مليكة وضحكتها التي لم تنقطع قبل يوم أن أمرت الرجلين بخطفها!.. أشتاق إلى لمسة أصابعها الصغيرة حول عنقي حين كنت أحملها، أشتاق إلى وجهها الملائكي، وملمس بشرتها الناعم حين أقبلها قبل النوم، ونظراتها الخائفة من كابوس ما حين تأتيني في منتصف الليل لتلوذ بحضن أمها وتحرمني منه.. كيف سأعيش بعدهما؟!

لا أتخيل أنني من أصدرت الأمر بقتلهما حتى الآن.. أيعقل أن أكون قد أصبت بانفصام الشخصية بسبب تكرار تغيير الهوية؟ هل تمرد الكونت على ياسر بهذه الثورة التي لم تبقِ ولا تذر؟! دعوت



الله في سري أن يأخذني، لا أريد الحياة بعد الآن.. ولا أسعى للظفر بأنفاس جديدة على وجهها...

أفقت على صوت آدم يتشاحن مع الرجلين ويحاول طردهما من الفيلا، كانت رؤيتي مشوشة تمامًا؛ بالكاد استطعت تمييز الأجساد من حولي؛ كان آدم منحنيًا إلى جواري للاطمئنان عليَّ، والرجلان الآخران يقفان مندهشين.. لم أعرف كم مر عليَّ في إغمائي؛ أظن أنه لم يتجاوز الدقائق.. صرخ آدم فيهما بغضب: كفاية كده!

رد أحد الرجلين بعناد واضح:

- مش هنتحرك غير بأمر اللي مشغلنا!.. لازم المهمة تتم للآخر.

سألتهما بنصف وعي وبصوتٍ متهدج:

- مهمة إيه هو مش قال لكم كفاية؟

رد الرجل الآخر مشيرًا برأسه نحو آدم:

- حضرتك أمرتنا قبل ما نمشي من عندك نقتل الخواجة!

نهضت مسرعًا من مكاني، وقلت لهما على الفور:

- لا لا.. اعتبروا الأمر ده ملغي.. كفاية اللي حصل لحد كده!

اعترض الرجل وأخبرني أنهما ملتزمين تمامًا بالاتفاق مع «الكونت» حتى يحصلا على حسابهما كاملًا، وأنني أمرتهما ان ينفذا ما أطلبه منهما حتى لو قمت بإلغائه.. توسلت إليهما كي يتوقفا عما يفعلان.. لكن يبدو أن حديثي جاء متأخرًا، نحاني أحدهما جانبًا وأطلق الرجل الضخم رصاصة نحو آدم الذي لم يصدق ما يحدث.. تفاداها بأعجوبة، وأطلق سبة مستنكرة لما يحدث، صوب سلاحه



في خفة تجاه مطلق النار لتصيب الرصاصة رأسه ويسقط أرضًا.. حدث كل شيء سريعًا، لم أتحمل صوت الرصاص العالي ولا الدم الذي تناثر من رأس هذا المأجور.. أمسكني المأجور الآخر الذي خمنت سابقًا أنه القائد منهما، أحكم ساعده حول رقبتي وصوب سلاحه -الذي كان مسدسًا بدائيًا- حول رأسي مهددًا آدم بقتلي، لم أستطع ولم أقدر مقاومته، نظر آدم بخوف نحو السلاح المصوب تجاهي.. طلب من المأجور التفاوض على حياتي.. لم أملك رفاهية الصبر ولا التفاوض؛ فانحنيت بخفة حتى أفر من قبضته غير المحكمة، منسحبًا من أمام آدم لأترك له حرية التصويب.. ضرب المأجور أكثر من طلقة طائشة تجاهي.. زحفت على الأرض حتى وصلت إلى جثة الرجل الآخر الذي قتله آدم، زحفت فوق بقايا مخه المتناثر على الأرض، متغاضيًا عن رائحة دمه الساخن التي ملأت أنفي.. سحبت السلاح من قبضته المرتخية، وصوبته بسرعة تجاه زميله الذي كان منشغلًا مع آدم، لم تصبه أي من طلقاتي المرتجفة، لكن آدم قد أصابه.

نظرت نحو آدم حتى أطلب منه أن يساعدني على النهوض لدفن هذين المأجورين، فلم أجده واقفًا!.. كان راقدًا على ظهره والدم يسيل حوله من كل اتجاه، لم تسعفني قدمي للنهوض، فزحفت نحوه بحركة سريعة.. كان جسده قد تلقى أكثر من رصاصة؛ فكرت أن أطلب الإسعاف، لكنني أدركت نهايته حين رأيت إحدى هذه الطلقات وقد اخترقت قلبه الذي كان ينتفض ناثرًا دمائه في كل مكان، يمارس صحوة الموت..

حاول أن يشير إلى الرجلين فطلبت منه الصمت.. لم أعرف ما



يُقال في هذه الأوقات، اعتذرت له كثيرًا؛ فأنا من سبب له كل هذا الألم وأنهيت حياته بهذه الطريقة.. بكيت إلى جواره، نظر لي كأنه يريد أن يقول شيئًا ما.. خرج صوته مبحوحًا، وقال بصعوبة بالغة:

- اسأل على أشرف يا ياسر.. أرجوك.

لم يسعفني الوقت لأودع آدم الوداع اللائق، فقد خرج نَفَسه الأخير مصحوبًا بالكثير من الدماء التي تناثرت سريعًا من فمه ليغرق وجهي باللون الأحمر، أغلقت عينيه بيمناي، نطقت الشهادتين لا إراديًا.. لم أتمالك نفسي من الحزن والسخط على ذاتي؛ لم أدرِ أأحزن عليه أم على رحيل زوجتي وابنتي، أم لأنني كنت السبب في كل هذا، فكرت في الانتحار وإنهاء كل هذه المهازل.. لكن جسدي لم يسعفني، رفض أن يمدني بالطاقة لأكثر من هذا، شعرت بألم عظيم في رأسي وبانقباض قلبي.. حتى هويت إلى جوار آدم فاقدًا وعيي، دافنًا وجهي في قلبه.

***

ظللت مستلقيًا على الأرض لمدة تقارب اليومين، كلما استيقظت رأيت جسد آدم المسجي إلى جواري، والذي انقطع عنه الدفء، وتذكرت ما فعله هذان المأجوران بغرام ومليكة بأمر مباشر مني.. فأسقط مرة أخرى في إغمائي الذي اتخذته وسيلة لإنكار ما حدث، دعوت الله أن أموت خلاله.. رأيت الكثير من الكوابيس والخواطر؛ تجلى أمامي «عبد الحي الطائي» صغيرًا في حقبة لم أولد فيها بعد.. رأيته شابًا يتحمل سخرية الآخرين من شكله وملبسه، ويتحمل مقالب زملائه في العمل، رأيت مشهدًا يضعون له المياه فوق أحد



المقاعد ويضحكون ساخرين من شكله حين يشعر بالمياه وينتفض بعد أن بلل بنطاله.. لم أعلم إن كان ما أراه رؤى أم مجرد ضلالات وأوهام أتتني من وحي التفكير فيه.. حضرت في أنفي رائحة غرام بدلًا عن رائحة الدم والجثث المتعفنة إلى جواري، تذكرت آخر لقاء حميمي جمعني بها؛ كان بعد حادثة شجاري مع «بائعة الفل».. لم أنسَ نظرة غرام ليلة الشجار حين طلبت مني أن أتصرف معها في الفراش كرجل شرقي حقيقي، وليس كزوج محب.. كاد «الكونت» أن يخرج رغمًا عني ليتولى الأمر كما أفعل مع عاهرة مكاوي، لكنني تحكمت فيه بالكاد لأتصرف كـ«ياسر»؛ صحيح أن تصرفاتي خالفت رغباتها، لكنها لم تكشف عني غطائي.. لم أعرف لماذا أتتني هذه الذكرى دونًا عن باقي الذكريات التي تجمعني بالراحلين.

لم تسعفني طاقتي أو رغبتي في تنظيف آثار المعركة، تركت الفيلا بعد أن استحممت مزيلًا دماء آدم عني، غيرت بدلتي الملطخة بالدماء برداء رياضي آخر، أحرقت كل الأوراق التي تدل على هويتي أو تحتوي صورًا شخصية تخصني، بحثت عن الكاميرا التي سجلت اعتراف الدرندلي حتى وجدتها ووضعتها في جيب سترتي، لم أشغل بالي بالبحث عن المزيد من الأوراق.

أجَّرت محترفًا من الإنترنت المظلم للمرة الأخيرة، كانت مهمته سهلة هذه المرة: توصيل جثمان آدم إلى عمه الذي احتفظت بعنوانه.. كان يستحق وداعًا لائقًا ودفنًا يليق بالإنسان الذي كان عليه.. فعلت مع جثمانه ما تمنيت أن يُفعَل مع ما تبقى من غرام ومليكة؛ مات جميع من يعرفون مكانهما الحالي، حتى أنا دفنت الحقيقة بداخلي ولا أستطيع العثور عليها.



لم أعبأ برؤية ذلك المحترف لوجهي، تركته ينظف المكان ويدفن المأجورَين في حديقة الفيلا، صعدت إلى أعلى ثانيةً؛ استلقيت على سريري، أخرجت الهاتف الذي كان يحدثني من خلاله «المجهول» الذي اتضح أنه كان أداة في يد «الكونت»، بدأت أسمع مكالماته المسجلة بحثًا عما يبرئني من مقتل غرام ومليكة، وفي نفس الوقت فتحت هاتفي الأصلي لأشاهد بعض الصور والمقاطع التي سجلتها لغرام ومليكة، أثناء نزهاتنا القليلة، ومقطع آخر أثناء تعليمي لمليكة المشي ووقوعها المتكرر، وبعض الصور لي مع غرام التي احتفظت بها منذ أيام الخطوبة.. لكن شعور الذنب لم يفارقني.

طلبت سيارة أجرة عن طريق تطبيق Uber، لم أعبأ بتكلفة الرحلة التي قدرها البرنامج حتى أصل إلى الإسكندرية.. أخذت كل المال الموجود بغرفة النوم، ضمدت القليل من جراح وخدوش وجهي وكتفي الناتجين عن الشجار مع سائق النقل ومع المأجورين، نزلت لأطلق سراح السفير الدرندلي، لكنني لم أجده، ولم أعبأ بالبحث عنه.. أغلقت الفيلا وخرجت لأجد السائق في انتظاري.. حاول أن يكون لطيفًا ويسألني عن سبب الإنهاك البادي على ملامحي، وسبب الضمادات الملصقة فوق أماكن كثيرة من وجهي ورقبتي، لكنني طلبت منه أن يكون أكثر لطفًا ويلتزم الصمت، غرقت في النوم ثانيةً؛ رأيت الطائي في مواضع إهانة كثيرة أثناء شبابه، ورأيت غرام عارية أمامي في ذكرى لا أظن أنها حدثت بهذا الشكل، ورأيت مليكة لحظة ولادتها، ورأيت ظل أمي...

- حمد لله على سلامتك يا فندم.



قاطع السائق خواطري حين وصلنا إلى معرض سيارات المملوك لرافي بمنطقة سموحة، حاسبت السائق مانحًا إياه أكثر مما طلب التطبيق، شكرني ورحل مسرعًا.. أخبرني أحد العاملين في المعرض أن رافي قد باعه لمالك جديد، وأن هناك شائعات عن اعتزاله الدنيا داخل عوامة في حي «المكس».. وحين ذهبت إلى هناك متبعًا الوصف وجدت العوامة خالية، أخبرني أحد الجيران أن رافي كان يقيم مع عاهرة تدعى مايسة، وأنها قتلته بمعاونة وهدان المراكبي وفرَّا سويًا؛ كان رافي كان آخر من تبقى لي، حتى وإن كانت علاقتنا سطحية.. لكنها كانت حقيقية.

خرجت إلى كورنيش البحر، رنَّ هاتفي الأصلي لأجد صاحب متجر الحيوانات الذي أوصيته أن يحضر لي قطًا من نوع خاص لأهادي مليكة به، اعتصر قلبي حين طلب مني أن أحضر لاستلامه.. أنهيت المكالمة دون رد.. أخرجت الهاتف الذي كان يحدثني «المجهول» من خلاله أيضًا، وألقيت كليهما في مياه البحر.. نظرت نحو البحر وصرخت فيه؛ كأنه من دمر حياتي وسلبني كل شيء، حتى نالني الإعياء وبح صوتي، ونمت دون أن يعبأ بي أحد.. أو يلحظ وجودي من الأساس!

ليالٍ كثيرات متشابهات مرت عليَّ.. تناسيت فيها من أنا ولماذا أحيا.. أنام على الرصيف، وآكل من القمامة أو مما يجود به الناس، حين لمحت انعكاسي في زجاج إحدى السيارات، طالعتُ شعرًا طويلًا يعلو رأسي، وقد تشابكت نهاية خصلاته وتدلت في أكثر من اتجاه، كما اسود وجهي بفعل الشمس والأتربة، أما ملابسي فلم

تعد تصلح أسمالًا.. لم أحاول أن أغير في مظهري ولم أرد ذلك من الأساس، كان الناس ينفرون من مظهري ورائحتي وتناولي الطعام من سلال القمامة، كان الأطفال يتجنبون النظر نحوي في الشارع ظنًا منهم أنني قد فقدت عقلي.. وأعتقد أن ظنهم كان حقًا.

بقيت على هذه الحال أيامًا لم أحصها، لم يصدر عني أي حديث، وكأنني فقدت القدرة والطاقة على النطق.. خصصت لنفسي مكانًا معينًا على الرصيف للنوم؛ لكنني لم أستطع أن أنام إلا في ساعات الليل المتأخرة خوفًا من الناس، أنظف المكان بحرص بيدي العاريتين قبل أن أنام، وأحيانًا أستيقظ لأجدني غارقًا في مياه الأمطار، أو أجد كلبًا ضالًا يستدفئ بجسدي، أو أجد القليل من المال بجوار رأسي.

تكررت الوجوه التي أراها أثناء مكوثي في كنف البحر، وكأن جواره حماية لي من نفسي؛ لم أتجاوز صدمتي في فقدان أعز ما كان لي، وبشاعة أنني من تخلصت منهم بنفسي، لم أدرك متى تحولت إلى نار تلتهم نفسها حتى أصبحت رمادًا.. مرت عليَّ الأيام الأولى محاولًا نكران الحادثة، كأن القدر عجز عنها؛ كأنني لم أعرف غرام وكأن مليكة لم تأتِ هذا العالم الذي لا يليق بملاك مثلها من الأساس، ففشلت كل محاولاتي.

لا أعرف كيف سأحيا -إن كان ما أمارسه الآن حياة- دون أن أراهما ثانيةً، ودون أن أمسك بيديهما لنعبر الطريق معًا، دون أن أحتضن غرام وأربت على رأس مليكة، لن أسمع صوتهما ثانيةً؛ لن توبخني غرام، ولن تضحك مليكة أو تتهرب من واجباتها ثانيةً!



كنت على يقين أن هذه المليكة لا تنتمي إلى هذا العالم؛ جاءت ورحلت سريعًا؛ كطيف بديع مر بي حتى أتألم لفقدانه.. عادت إلى موطنها الأصلي، فلا مكان آخر غير السماء يسع ضحكتها.. لكنها ستترك قلبي فارغًا، وكأن الفراق قدري.

راودتني فكرة الانتحار ثانيةً، لم أمتلك الشجاعة لها.. لم يكن أمامي طريقة للاستمرار سوى النكران والتناسي، حاولت الغياب عن الواقع سابحًا في عالم خاص بي، ملكوت أستكين فيه لوجود أمي، أتحدث مع أختي معوضًا ما فاتني منها؛ أقصر المسافات التي تركها أبي، أرقد بين ذراعي زوجتي مستسلمًا لها، أسمع ضحكة مليكتي فيطمئن قلبي.

كانت الوجوه تتكرر من حولي، وكل يوم أغيب أكثر عن الواقع، أطالع الحياة من خلف حجاب صنعته بهيئتي الرثة وصمتي المطبق، وزهدي التام في كل ما حولي.. فهذا الكهل ينصب كرسيه الصغير الحجم، فيجلس كثيرًا أمام البحر ملقيًا سنارته في قلبه، ينظر إليه راجيًا الرزق، لو كنت مكانه لبعت ما أصطاد بضعف الثمن، فبضاعتي الصبر وليست سمكًا.

أما ذلك الفتى الصغير ذو الساعد المبتور، الذي يقف في وجه الصقيع والحاجة ليبيع الذرة المشوي، لم ينل من رزقه إلا القليل؛ فمعظم ما يجنيه يذهب لبائع ذرة آخر وجد رزقه في تسريح الأطفال والتجارة ببراءتهم.

وهذان العاشقان الطامعان في قبلة مختلسة أو لمسة خائفة لا تدري لنفسها وجهة، يلتفتان حولهما بملامح خائفة من كل شيء.. إلا ذلك المجذوب الذي يحدق فيهما.

لكن أهم من عاشرت في هذه الفترة كانوا جماعة ممن زهدوا في الحياة مثلي، لم نتحدث كثيرًا لكننا تفاهمنا كثيرًا بحكم الشبه الشكلي والسلوكي، ننام على البلاط البارد في حرم أي من الجوامع التي ترحب بوجودنا كـ«بركة»، لا نستدفئ إلا بذكر الله وسيرة الصالحين.. أخبرني أحد هؤلاء المجاذيب أنني في البداية كنت أقلق نومهم بكوابيسي التي أصرخ فيها بأسماء أحبتي، لكنها انقطعت بعد فترة من السكينة؛ وكأن الحياة تساعدني على طمس هويتي القديمة.. عرفت أن هذا المجذوب لم ينسَ هويته القديمة بالكامل، أخبرني أنه كان منشدًا شهيرًا في الموالد والاحتفالات الصوفية، لكنه لا يذكر ما حدث له بعد هذا حتى صار زاهدًا في كل شيء.. حتى المعرفة زهد فيها؛ لا يذكر بلده الأصلية، لكنه كان متأكدًا أن لا أحد يفتقده في هذا الملكوت الفسيح، وأنه -مثلي- وحيد تمامًا في هذا العالم.

مرت أيامي متشابهات، لم أعِ فيها الكثير ولم أهتم بذلك.. كنت أسير مع الدراويش، أرتحل معهم من «المرسي أبو العباس» إلى مسجد «أحمد المتيم» لا أعبأ بمشقة المسير ولا أعبأ بصحبتي الذين أصبحت أشبههم كثيرًا.. نحضر موالد الأسياد ونسير في مواكبهم ونأكل من خير دراويشهم، نردد الذكر الذي لا ندرك معظم معانيه.. لم يشعر أحد من العامة بوجودنا؛ نجتمع ونتفرق بلا ميعاد أو اتفاق.. لا أذكر من تلك الحقبة الحياتية إلا القليل.

لكن هذه الليلة كانت مختلفة.. كنت نائمًا فوق فخذ صديقي المنشد الذي لم يعبأ بنومي وراح ينخرط في إنشاده.. اقتحم صوته منامي الذي رأيت فيه ما أعاد حياتي إليَّ، عظيمة هي لحظة كشف الغمامة عن روحي؛ لحظة تجلي كالتي شعر بها إبراهيم حين أدرك أن

إلهه ليس من الآفلين.. لحظة ترى فيها الأمور من أعلى؛ كأنك طير تشاهد كل الأحداث التي لا دخل لك فيها.. الآن أفهم كل شيء!

أعادتني الرؤى للطريق الصحيح مستعيدًا «ياسر الطائي» الذي كدت أن أنساه؛ أخبرني الدرويش فيما بعد، بلهجته التائهة التي يتشتت من حروفها أكثر مما يبقى، أنني كنت أبكي كالأطفال، نهضت من النوم في حالة من الانتشاء، لم أشعر بمثل هذه الطاقة من قبل، لم أصدق ما رأيته أثناء نومي، لم أعرف حقيقة ما رأيت لكنه كان صحيحًا.. مسحت دموعي بكف يدي.. شعرتُ حينها أن الغشاوة قد انزاحت من أمام ناظري، الآن فقط أدرك كيف حدث كل ما حدث، ومن الذي دمر حياتي.. والأهم من كل هذا: تأكدت أن غرام ومليكة لا تزالا على قيد الحياة.

رنَّت في عقلي جملة آدم الأخيرة: «اسأل على أشرف».. أصبحت متأكدًا أن الحل سيكون عند هذا الطفل.. بدأت تأتيني ذكريات قريبة منذ اختطاف غرام ومليكة؛ لم أعرف كيف فوتُّ كل هذه العلامات دون أن ألاحظ ما يحاك ضدي، كيف اعتبرت كل هذه صدفًا متوالية يحكمها قانون سوء الحظ؟! كانت الصورة أمامي طيلة الوقت لكنها كانت ممزقة، تناثرت كل قطعة منها في مكان مختلف، لكن عزلتي ساعدتني على إيجاد القطع الناقصة لإتمام الصورة.

نهضت مسرعًا وسط دهشة الدراويش من حولي، أركض حافي القدمين نحو البحر غير عابئ بوعورة الأرض التي تؤذي قدمي، ولا بالرياح شديدة البرودة، ولا بالأمطار التي تسقط فوق رأسي المغبر، عبرت الطريق السريع المؤدي إلى البحر، لم ألتفت إلى سباب السائقين؛ كان أمامي هدفًا واحدًا لا أرى إياه: البحر.

ألقيت نفسي بين أحضان البحر، أعتقد أنني جرحت قدمي بفعل صخوره.. حتى ظن المارة أنني أحاول الانتحار، لكنهم حين نظروا نحوي وجدوني أنثر مياهه من حولي في سعادة، كطفل وجد أمه بعد أعوام من التيه، نظرت إلى أعلى صارخًا.. اختلط ماء المطر بماء البحر حتى مسحا غشاوة بصيرتي، نظف ملحه روحي قبل أن ينظف جسدي.

الآن فقط تأكدتُ من هوية ذلك الخاطف المجهول الذي دمر حياتي بالكامل، وكيف فعل بي ما فعل.. وقد حان وقت الحساب.

***





١٦- مفترق طريق

من حسن حظي أن أحدًا من أهل المنطقة التي أقيم فيها لم يعترض طريقي، على الرغم من منظري، وشائعة هروبي حزنًا على رحيل سلوى كما فعل رافي.. قابلني بعضهم بعبارات التعازي، والآخر بابتسامات خافتة، طلبت من البقال المجاور للعمارة المملوكة لأبي أن يدلني على نجار يساعدني في فتح بوابة العمارة وباب شقتي، فقد أضعت مفاتيحي.. كنت أستطيع اقتحام البيت لكنني لم أرد أن يشككوا في قدراتي العقلية.

طلب مني الجلوس حتى يأتي النجار، وأمر صبي القهوة أن يذهب ويحضر لي ما آكله على حسابه ففعل الصبي ما أُمِرَ وأحضر مع الأكل كوبًا من الشاي.. لم أعترض على كرمهم وتكاتفهم لأجلي، فأعتقد أنني مررت بما يمنحني الأحقية في أي شيء.. تعجلت لحظة الذهاب إلى الطفل «أشرف» لأعرف مكان ذلك «المجهول» الذي لم يعد مجهولًا، لعنت غبائي الذي هداني إليه متأخرًا.

صعدت إلى المنزل سريعًا لأبدل ملابسي وأبحث عن أي أموال تساعدني على السفر إلى القاهرة، حيث كان يقطن آدم الخواجة..

وجدت وشاح أمي الذي كانت ترتديه قبل هروبها مباشرةً،



لثمته ودفنت وجهي بين ثناياه، لا أعلم إن كان محتفظًا برائحة أمي أم أنني أتوهم عبقها.. لم أستطع أن أتذكر ملامحها بعد رحيلها، ولم أجد لها صورًا في البيت كله، رحلت كنسمة باردة كانت بردًا وسط جحيم الطائي، رحلت لأنها لم تجد من يهون عليها، ولأنها لم تستطع التحول إلى ما صرت عليه...

قاطع سلسال أفكاري صوت طرقات واهنة على الباب، فتحته لأجد «الحاج صالح» صديقي الوحيد في منطقة محطة الرمل، لم ينتظر حتى أدعوه للدخول، جلس على أقرب مقعد من الباب، مدَّ يده برزمة ثقيلة من الأموال؛ وكأنه يقرأ أفكاري، رددت يده معتذرًا، وقلت له مازحًا:

- أخيرًا المعاش نزل يا راجل يا طيب!

رد مازحًا:

- يا راجل يا طيب؟ أنت بتكلم عبد الوارث عسر يا بني!

لم أستطع مقاومة الابتسام على تعليقه، فطلب مني أن آخذ المال على أن أرده وقت الاستطاعة.. فشكرته وربتُّ على يده ممتنًا، عاتبني مازحًا:

- ولو إنك واطي ونسيت الطلب اللي كنت طالبه منك..

- طلب إيه؟

- مش كنت وعدتني تدور على اسم ابني في الزفت الfacebook ده؟

- صدقني دورت ومالقتش أي حاجة..

أضفت متكلفًا المزاح:



- أنت ماعرفتش تربي، الواد شكله غير اسمه بعد ما سافر..

بدا على ملامحه الحزن، فحاول أن يهون على نفسه، فقال مبتسمًا:

- بصراحة واطي ويعملها.. أو أنا اللي فلوسي حرام باين.

كان وقع كلماته كالزلزال في قلبي، لم أخبره أنني وجدت ابنه بالفعل، لكن اسمه كان مذكورًا في خبر صغير بصفحة الوفيات بأحد الجرائد المحلية في كندا؛ فقد رحل هو وأسرته في حادث سيارة مأسوي منذ أكثر من سنة.

***

- معنى إنك بتشوف الفيديو ده يا أستاذ ياسر إني مُت.. تقليدية دَخلة الأفلام دي، مش كده؟

لم أتمالك دموعي حين رأيت آدم في الفيديو الذي وجدته بحوزة أشرف الذي انتظر قدومي للحصول على الـflash memory التي تركها آدم لي، الآن أدرك أن وجوده في الشقة أثناء أول تعارف بيني وبين آدم لم يكن من قبيل الصدفة.. وجدت أشرف يعانق ما طالع من جسدي بحركة لا إرادية فضممته نحوي...

- خلصتوا عياط؟ أنا مستني آهه، وسايب لكم عشر ثواني تانيين في آخر الفيديو تعيطوا فيها براحتكم.

ابتسمت ناظرًا نحو شاشة الكمبيوتر البدائي في منزل أشرف الذي وصلت إليه بصعوبة.. فقد وصف لي الخواجة في ورقة صغيرة وجدتها في غرفة نومه عنوانًا عائمًا في «الزاوية الحمراء» التي لم يزرها أحدنا من قبل...

- بس المعنى الأهم إنك افتكرت وصيتي ورُحت تسأل عن



أشرف، وأكيد حضرتك دلوقتي وصلت للحظة اللي أنا كنت مستنيها عشان أقول لك مراتك وبنتك فين؛ اللحظة اللي اتأكدت إن ياسر هو اللي انتصر، وهو اللي بيتفرج عليَّ دلوقتي مش الكونت.

اعتدل في جلسته أمام الكاميرا وأكمل حديثه قائلًا:

- طبعًا أنت خمنت دلوقتي مين اللي عملت فيك كل ده.. مين اللي دمرت لك حياتك ودخلت العالمين بتوعك في بعض..

أكد لي شكوكي حين ذكر صراحةً اسم تلك «المجهولة» التي كادت أن تنهي حياتي، لا أنكر أنني اندهشت قليلًا حين استنتجت هويتها، كانت الصورة أمامي طول الوقت لكنها كانت ممزقة مشوشة أجزاءها.. الآن فقط تتضح وتصبح يقينًا.. تابعت آدم على الشاشة ثانيةً..

- ومش محتاج أقولك ماتتصلش بالبوليس عشان زمانها زيفت موتها زي ما عملت قبل كده.

أكمل حديثه عن الفترة التي سبقت معرفته بي، وقبل أن يرسل لي الرسائل التي كان يترجاني فيها ليعمل معي.. كان قد عرف خبر إصابته بالسرطان، ويبحث عن إثارة أخيرة ينهي بها حياته بعد أن مل مغامراته مع رفيقي الإجرام: «شُكمان»، ورضا.. فعرض خدماته بهوية غير هوية «الخواجة» على Dark web، حتى وجدته تلك الملعونة.

كانت مهمته واضحة: أن يحاول التقرب مني طالبًا العمل، وفي نفس الوقت يحاول اختراق حسابي؛ الأمر الذي كان عسيرًا بسبب جدار الحماية الذي صممه «كريس برادلي» لهوية الكونت.. لكنه في النهاية استطاع اختراقي ومعرفة هويتي الحقيقية، وبدأت اللعبة..



لم يستطع آدم أن يمنع دموعه في الفيديو، قال لي بلهجة متوسلة:

- أرجوك سامحني، أنا ماكنتش متخيل إن الموضوع هيوصل للدرجة دي.. أنا حبيت حضرتك بجد يا أستاذ ياسر، واحترامي لحضرتك في الهويتين كان الحاجة الوحيدة الحقيقية.. وحياة مليكة تغفر لي.

استطرد في اعترافه، أخبرني أنه كان جاسوسها لدي، وأن زميليه رضا وشكمان هما من خطفا غرام ومليكة لأجلها بعد أن عرضت عليهما مبلغًا يكفيهما باقي الحياة، وعرضت على «الخواجة» مغامرة أخيرة قبل صعود روحه إلى السماء.. وأن شكمان كان هو من يحدثني في الهاتف بتعليمات منها بعد أن قرأت مذكراتي جيدًا ودرست شخصية «ياسر الطائي»، وعرفت كل شيء عن «الكونت» من حسابه المخترق.

كان «شُكمان» و»رضا» خلفنا في كل خطوة نقطعها؛ فكلما اقتربت من الحقيقة أبعدني آدم عنها.. وأن الخطة كانت ستكتمل حين يتمكن من إقناعي بمرضي، وبأن الكونت هو المسئول عن كل ما حدث، وأنه من أمر بقتل زوجة «ياسر» وابنته.. ثم يتم تزييف معركة في الفيلا أمامي تنتهي بمقتل آدم على يد المأجورين اللذين مثَّل دورهما شكمان ورضا؛ فأعيش في حالة من الجنون مماثلة للتي مررت بها. أكمل حديثه قائلًا:

- بس أنا غيرت رأيي بعد ما عرفت حضرتك واتعاملت معاك، وصورت الفيديو ده أقول لك فيه كل اللي أعرفه وقت ما حضرتك اتسجنت بتهمة قتل حمزة؛ اللي هي قتلته، وهي اللي بعتت لك الدرندلي يطلعك.. أنا ماعرفش دوره بالظبط بس هي



قالت لي إن اعترافه سهل يكشف لك هي مين، عشان كده شكمان ورضا هربوه.

ماكنتش عايزك تعرف الحقيقة وأنا عايش، وكنت متأكد إنك لما تخسر كل حاجة وتفكر بهدوء هتفهم كل حاجة..

أخبرني بمحاولاته مع شكمان ورضا لإثنائهما عن إكمال الخطة والانسحاب من تلك اللعبة، لكن الأموال أعمت بصريهما ورفضا مساعدة الخواجة في الانقلاب عليها، ومن المرجح أنهما قد تخلصا منه قبل أن ينجح انقلابه.. ولذلك ترك لي هذا الاعتذار المصور، اختتم حديثه قائلًا:

- أتمنى تقبل اعتذاري لأني أكيد دلوقتي محتاج عفوك أكتر من أي وقت، وصدقني أنا فعلًا معرفش هما فين دلوقتي.. بس هي قالت لي إنك هتعرف مكان مراتك وبنتك لو افتكرت كويس الكلام اللي اتقال في أول مقابلة جمعتكم.. وماتنساش تسأل عن أشرف.

***

تعجلت العودة إلى الإسكندرية لأقابل تلك الشيطانة التي سلبتني كل ما أملك ولم تترك لي إلا ثغرات قليلة في خطتها، ثغرات هدتني إليها وإلى مكان اختفائها.. وصفت لسائق الأجرة عنوان مَسكَني في محطة الرمل، صعدت السلالم مسرعًا، لكن هذه المرة لم أقصد شقتي، صعدت للطابق الأعلى حيث شقة سلوى التي كانت فيها مضى درك الزوجية الذي جمع أبي بأمها.. وقفت أمام الباب، وضعت صندوقًا صغيرًا بداخله قط أبيض بجوار صندوق



المهملات المجاور للشقة، فردت قامتي، وعدلت من وضع بذلتي السوداء، نظرت نحو باقة الورد البلدي التي أحملها معي، وطرقت الباب.

لم أندهش حين وجدته مفتوحًا، لأجد كل الأنوار مضاءة، كان كل شيء مرتبًا بعناية فائقة، وقد تحسن ذوق الشقة كثيرًا، ولأجدها في انتظاري.. نظرت لي مبتسمة، قالت بهدوء:

- قُلت لك هنتقابل قريب يا نصي التاني.

لم أتمالك نفسي أمام التصفيق لها.. قلت بإعجاب حقيقي:

- أنا باعترف إني انبهرت، مستحيل كنت أتوقع إن أنتِ اللي ورا كل ده..

أردفت بعد أن اقتربت منها بهدوء:

- آنسة داليا القاضي.. مبروك، أنتِ دمرتيني بنجاح!

تعمدت الجلوس أسفل البرواز المعلق بصالة الشقة، والذي يحتوي بداخله على صورة قديمة لزفاف عبد الحي الطائي وأم سلوى.. حاولت أن أتصنع التماسك، وسألتها عن مكان غرام ومليكة.. تجاهلت سؤالي وتلت عليَّ جملتي التي قلتها لها في أول لقاء جمعنا بحجرة التعذيب الخاصة بي:

- ماتخافش يا ياسر أنا معاك.

اقتربت منها بغضب، صرخت فيها مكررًا سؤالي عن أغلى ما لديَّ.. وضعت سبابتها أمام شفتيها وقالت مبتسمة:

- صوتك يا أستاذ.. مراتك وبنتك نايمين جوة.



أخرجت مسدسًا بحركة خاطفة، وجهته نحوي قائلة بلهجة جادة:

- اتفضل أقعد.

أومأت لي محيية، قالت بعد صمتٍ قصير:

- أنا حرقت مذكراتك بعد ما قريتها؛ زي ما حرقت كل حاجة في حياتك.. سامحني إني تطفلت عليك.. بس كان لازم أدرسك كويس.

أكملت بلهجة ماكرة:

- ده غير إني قدرت أخمن تفاصيل أنت ماذكرتهاش.. زي إن أكيد مش كل اللي قابلتهم في حياتك تقبلوا حقيقتك زي ما أنت كاتب، وإلا ماكنتش بنيت لنفسك هوية «الكونت».. وزي معاملة تلاميذك ليك؛ لما لقيتك مش ذاكر تفاصيل شغلك كـ «مستر ياسر».. وزي إنك مستحيل تكون طلعت بعثة أمريكا بمجهودك.

قلت بتصالح مع ذاتي لم أشعر به منذ ولدت:

- طلعت على جثة الوحيد اللي شاف الخير فيَّ.. ولولاه كان زماني كلب في زنزانة الطائي.. أتمنى يسامحني.

أردفت مبتسمًا:

- وعلى فكرة هو اللي نفى لي موضوع تعدد الشخصية اللي حاولتي أنتِ والخواجة تلعبوه عليا.. لأن «الكونت» لو كان خرج عن سيطرتي فعلًا أكيد كان هيفكرني بيه.

أضاعت إحساسي بالسيطرة حين قالت بلهجة ماكرة:



- وخمنت برضه إن حب علاء الدين ليك ماكانش مجرد عطف على طفل بيفكره بابنه اللي مات.

لم تكن لديَّ طاقة للرفض، قالت بهدوء وهي تشير لي كي أجلس:

- غالبًا أنت ممكن ماتكونش فاكر مش بتنكر عن قصد.. للأسف ذاكرة الإنسان انتقائية جدًا؛ وبتدافع عن صاحبها باستماتة.. زي ذاكرة صاحبك كده.

- آدم؟

- أنت ليك صاحب غيره؟ مايغركش القوة اللي كان فيها، الواد ده شاف كتير..

ترحمت عليه في سري، وقلت لداليا:

- اللي زي آدم دول مينفعش يكملوا في الدنيا، عايزين يعدلوا ميزان الخلق عشان يميل.

ضحكت متهكمة، وسألتني بتحدٍ:

- طبعًا ماحكاش ليك إزاي أهله ماتوا؟

أجبتها بصدق مستعيدًا ذكريات أول لقاء جمعني به:

- تفجير إرهابي.

ضحكت محطمة أعصابي، نظرت مباشرةً في عيني وقالت:

- ماقالش إنه كان بيجرب مخدر جديد، وفتح أنبوبة الغاز لحد ما اتخنقوا كلهم ونجي لوحده منها بمعجزة؟ ماقالكش إن صاحب عمره لما عمل حادثة بعربيته واحتاج دم من فصيلة نادرة آدم معرفش يتبرع عشان كان دمه مليان كحول؟!



لم أعرف هل أصدقها أم لا، جلست على مقعد مقابل لها، خبطت رأسي بكف يدي مستعيدًا تفاصيل تعذيبها:

- كل حاجة كانت قدام عينيا، أنا بس اللي اتخدعت بالأحداث، وعمري ما توقعت إن اللي وراها واحدة وفي سنك كمان!

أكملت حديثي مغمضًا عيني، مستعيدًا لحظة التجلي التي جاءتني في منامي:

- البرفان الغالي.. واستمتاعك بالتعذيب، ولما خلتيني أكرر نفس الجُمَل قدام الخواجة وهشام عدلي.. واختراق حسابي اللي نجح بعد دخولك الفيلا بوقت قصير.. والشركة اللي دفعت لي مبلغ كبير.. وأكدت لي إن اعترافك صحيح وإن الورق في مكانه بسرعة جدًا.

قالت موضحة:

- ما هي الشركة لازم تصدق على كلامي.. لأن أنا صاحبتها.

لم أعلق.. كان شعور أنني قد تم التلاعب بي بهذا الشكل مؤلمًا، وكأنها قرأت أفكاري فقالت بفخر:

- طول الوقت كنت بحاول ألفت نظرك للحقيقة.. بس أنت ماكنتش شايف، برغم إني كنت أقرب حد ليك.

ضحكت ضحكة قصيرة، وأكملت حديثها بتهكم:

- يا راجل ده أنا اتعمدت أنادي «آدم» باسمه يوم عزا سلوى.. برغم إني المفروض بشوفه لأول مرة في حياتي!

قلت مستعيدًا جزءًا آخر من الرؤيا التي أتتني حين كنت فقدت رشدي، ونبهتني إلى الحقيقة:



- إزاي ما جمعتش كل اللقطات دي جنب بعض في وقتها؟! أثناء تمثيلك دور الموظفة خبيتي ورق الشركة في أقرب بنك ليهم.. زي ما خبيتي مراتي وبنتي في أقرب مكان ليا.

سألتها مستدركًا:

- أنتِ اللي أجبرتي سلوى تتصل بيا يوم خطف غرام ومليكة؟

- ماكانش عندها خيار تاني.. هي كانت مخطوفة معاهم.. بس أنت اتلهيت في الخطف لدرجة إنك نسيت تسأل عنها.. الله يرحمها كانت بتحبك بجد.

أكملت شرحها قائلة بزهو:

- أنا أجرت اللي يراقبك أنت وكل اللي يخصوك.. ولما عرفت إن رافي طفش قلت دي أنسب فرصة أنفذ خطتي.. وكل اللي عملته إني حبست أهلك في الشقة دي.. وسِبتك تدور عليهم في كل مكان إلا بيتك!

- كنت بتخرجي إزاي والعمارة مقفولة من تحت طول الوقت ده؟

- سطح العمارة اللي جنبك مالوش سور.. فكنت بنزل منها، ومحدش فكر يسألني أنا مين.

- عملتي فيهم إيه طول الفترة دي؟

- عملت كتير.. ومش هقول لك أي تفاصيل؛ عشان ماتتألمش أكتر من اللي أنت فيه.. بس صدقني كله تم بطريقتك: دمرتهم من غير خدش واحد!

لم أظهر ألمي لما حدث لهما بسببي، فكرت أن أسألها عن كيفية



قيامها بكل هذه الأفعال، لكنني عدلت عن هذا السؤال حتى لا تشعر بانتصارها عليَّ، وسألتها بهدوء:

- ومن أين لكِ بكل هذا؟

- دكتور أنس عز الدين.. أكيد ماتسمعش عنه.

لم أرد، تركتها تكمل حديثها:

- أبويا.. كان دكتور كبير وأستاذ في الجامعة.. أنا اتولدت بمرض نادر؛ عبارة عن تسطح في عظم الجمجمة.. كان لازم يعالجني بأسرع شكل ممكن.. فاشتغل في نبش القبور وكذا تجارة غير مشروعة في مجاله.

أكملت قائلة أن أباها قُبِض عليه بعد أن كوَّن عصابة لتجارة الجثث، وترك لها ثروة صغيرة استطاعت البدء منها، بعد أن ترك لها سيرة غير طيبة، وأمًا ناقمة أصرت على تزويجها في أسرع وقت تجنبًا للفضيحة.. دون الأخذ في الاعتبار سنها الذي لم يتجاوز العشرين بعد.

نظرت نحو الغرفة التي تقبع بها غرام ومليكة.. أشعر بوجودهما، لكنني لست متأكدًا إن كنت أريد رؤيتهما الآن أم الاستمرار في الحديث مع داليا.. قلت لها مشككًا:

- بس نبش القبور مهما كان مربح مستحيل يخلي عندك كل الإمكانيات دي.

سألتها:

- اتجوزتي الدرندلي.. صح؟

- صح.



- إزاي شخص زي ده مليونير ومن عيلة واتجوز واحدة أبوها مسجون؟

- ما أنا غيرت اسم بابا.. وبقيت داليا الكاشف.

- وبعد ما زيفتِ موتك عشان تهربي بفلوسه غيرتِ اسمك تاني وبقيتي داليا القاضي؟

أخبرتني أنه كان معجبًا بها برغم فارق السن الذي يقارب العشرين عامًا.. وأنه ظل رفيقًا بها، تزوجها دون رغبة أهله، وظل يحارب لأجلها حتى خرج والدها من السجن وذهب لزيارتها في بيت زواجها، حينها تحول «الدرندلي» إلى وحش دميم المعاشرة؛ فظل يضربها ويمارس هيمنته الجنسية عليها، وأحيانًا ما كان يحبسها في غرفة النوم بمفردها لأيام.. فاكتشافه لكذبتها سمح لبهيميته بالظهور، وأسقط قناع المثالية الذي عاش متنكرًا وراءه، وأخفاه حتى عن نفسه، فانفجر خارجًا عن بروتوكولات عائلته وعن السياق الذي وُضِع فيه منذ أن كان صبيًا.

علقت قائلًا بصوتٍ خفيض:

- ومع أول فرصة زيفتي موتك، وهربتي من جحيم الدرندلي بعد ما خدتي جزء كبير من ثروته؟

ابتسمت بفخر، وأومأت برأسها إيجابًا.. سألتها مخمنًا:

- عشان كده قررتي تنتقمي من كل الرجالة اللي زيه.. وشوفتي فيَّ نموذج للسيطرة اللي كرهتيها؟

ضحكت بصوتٍ عالٍ، نظرت نحو السقف وهي تداعب خصلات شعرها قائلة:



- أنا انتقامي أبشع من اللي عملته فيك بكتير.. الحقيقة أنا حبيت اللي الدرندلي عمله معايا، حبيت شعور إني تحت سيطرة حد شايف حياتي ملك إيديه.. أنا أدمنت الإحساس ده.

- يعني اكتشفتي فجأة كده إنك مازوخية؟

- الوحدة.. الوحدة بتفتح للإنسان أبواب كتير للحقيقة، للنور.. طول ما أنت وحيد قلبك بيهد السد اللي قدام بصيرتك، وبيبدأ يشوف كل حاجة بنفسه.

أردفت بعد أن مالت بجسدها نحوي:

- أنا لولا الوحدة ما كنتش عرفت إنك بتكملني، وأنت لولا الوحدة ماكنتش وصلت لي.

استعدت سريعًا ما قرأته عن هذا الموضوع الذي لم أحتك به من قبل، تذكرت أن المازوخية نوعان؛ مازوخية عامة وأخرى جنسية.. في المازوخية العامة يكون الخضوع أخلاقيًا، فيُعرض الإنسان بها نفسه للمهانة بوعي أو بدون، ويجد متعة في أن يعيش دور الضحية المقهورة، ويبحث عن كل ما يهدم ذاته ويحطم احترامه لها..

قلت لها:

- كل اللي عملتيه في حياتك وفي حياتي كمان بينفي إنك مريضة بالمازوخية؛ أنتِ شخص ناجح وبتعرفي تسيطري على كل اللي حواليكي حتى أنا.

بدا عليها شعور بالضيق فانتهزت لحظة التراجع وقلت حاسمًا وجهة نظري:



- أنتِ يا دوب مازوخية جنسية؛ عجبتك التجربة اللي عيشتيها مع الدرندلي واللي كانت منافية لطبيعة تربيتك كطفلة وحيدة مدللة.. استهوتك بقى الإهانات اللفظية والجسدية؛ اللي عبرت عن اللي مريتي بيه في حياتك، وحشك دور المغلوبة على أمرها اللي قدرتي تخلصي منه بدري. وحبيتي تخوضي تجربة جديدة معايا.

- ممكن.. بس كان لازم تعرف الأول أنا أقدر أعمل إيه، وكفاية إني انتصرت عليك ودمرت لك ياسر والكونت.

قلت بصدق:

- وأنا معترف بده.. برغم إني اتجريت للمعركة دي غصب عني، بس أنتِ فعلًا انتصرتي، على الأقل لحد دلوقتي.. بس خليني أسألك أهم سؤال: أنتِ عايزة مني إيه؟!

ضحكت ضحكة خفيفة، وقالت بهدوء ناظرة في عيني:

- زي ما قلت لك محتاجة لك معايا.. عايزاك تكملني، وعايزة أرقي الكونت لرتبة أعلى.

طلبت منها أن تشرح مقصدها من آخر جملة، أخبرتني أن حياة ياسر قد انهارت ماديًا ومهنيًا وأسريًا.. وكذلك حياة الكونت بعد أن تم اختراق حساباته. لكنها تمتلك كافة الإمكانيات لإعادة الحياة إلى كياني الذي تهدم تمامًا، وأن ما دفعته من مال ونفوذ في عملية السيطرة على حياتي لا يساوي شيئًا مما تمتلك في الحقيقة.. فيمكنها تعويضي وتوفير وسيلة أفضل للتفريغ عن شهوتي وممارسة سيطرتي بشكل أعظم مما كان يفعل الكونت.. عرضت عليَّ هوية جديدة تمامًا؛ وهي «الماركيز» بحساب جديد على الدارك ويب، وبمقر



أفضل كثيرًا من مقر الكونت يوفر لي ممارسة تجارب أكثر بشاعة على البشر والحيوانات.. أخبرتني أن «الكونت» هو الدرجة الرابعة في سلم النبلاء، لكن «الماركيز» أرقى وأهم؛ وأن مبتغاها من كل هذا أن تصير تابعة وزوجة لي.. فتسخر كل ما لديها للماركيز نظيرًا لبقائه معها فقط دون غيرها.. أكملت حديثها قائلة:

- وأظن مفيش عرض أعظم من كده؛ فلوس وهوية جديدة، وحياة مراتك وبنتك.. وكل اللي تحتاجه هيكون تحت إيده؛ عشان يقدر يشوف شغله ويمارس هوايته العظيمة.. بناء متكامل مفيهوش غلطة.

سألتها بفضول:

- إشمعنى أنا؟ أكيد من خلال اللي عِشتيه شوفتي نماذج أبشع مني.

نظرت في عيني قائلة:

- معظمهم من جوه، بيمارسوا بشاعتهم عشان يداروا حزن جواهم، إنما أنت بتحب اللي بتعمله، ومكمل فيه بسبب تميزك؛ عارف إن مفيش غير كونت واحد بس.

كان عرضها غير متوقع، لم أفهم دوافعها إلا الآن، الآن فقط أدرك مقولة «من الحب ما قتل» لكن ما لديها لم يكن حبًا، كان هوسًا صريحًا بالكونت، ورغبةً في تعظيم أدواته.. كانت تريد مني أن أقتل الكونت وياسر معًا، قلت لها بهدوء:

- فيه أسطورة معروفة عن بنَّاء اسمه سنمار.. بنى قصر عظيم لملك عربي، وبعد ما خلص قال للملك إن فيه حجر في القصر لو اتشال من مكانه القصر كله ممكن يقع.. فراح الملك قتله.



فهمَت تلميحي.. فسألتني باهتمام:

- وإيه الحجر اللي ممكن يوقع كل اللي أنا عملته؟!

أجبتها مبتسمًا:

- أنتِ راهنتي على الخواجة، وأنا راهنت على آدم.. ورهاني كان الحجر ده، متخافيش أنا معاكي في إن الكونت لازم يموت، متخافيش.

لم يبدُ عليها أنها قد سمعت جملتي الأخيرة.. كانت منتشية بانتصارها المزعوم، وخطتها التي لم تُكشف إلا وقتما أرادت، سألتني إن كنت قد استمتعت بالقتل من قبل.. أجبتها أنني لم أقتل دون غرض إلا لمرة واحدة بحثًا عن متعة أعظم، لكن الأمر انقلب عليَّ؛ وشعرت أن ضحيتي هي من تسيطر عليَّ لأول مرة؛ فإن مات المحكوم فلا نفع للحاكم.. لم يبدُ على داليا أنها اقتنعت بكلامي، نهضت متوجهة نحوي، أخبرتني أنها كانت تخدعني فيما يتعلق بغرام ومليكة؛ فكلتاهما لم يمسسهما ضُرٌ؛ وضعت مسدسًا مزودًا بكاتم للصوت في يدي وقالت:

- لأول مرة من فترة طويلة هسيب لك حق الاختيار.. تبقى ياسر الفاشل المرفود من شغله واللي ماحدش بيحترمه، واللي اختفى في عز احتياج أهله ليه، ولا تترقى وتبقى «الماركيز»؟!

أردفت قائلة:

- المسدس فيه طلقة واحدة.. تقدر تضربها فيا وتبقى اخترت ياسر اللي كل مراكب حياته اتحرقت تمامًا.. وتقدر تسيبها مكانها، وتخرج تستناني في أي مكان لحد ما أبلغ مراتك وبنتك بخبر وفاة



أستاذ ياسر الطائي، وأبشر نفسي بميلاد «الماركيز».

مرت كل أحداث حياتي أمام عيني؛ كل ما أرغمت على فعله، واختياراتي المحدودة التي أجبرت عليها بطريقة أو بأخرى. رأيت الطائي وآدم وتمّام وعلاء الدين والكنعاني وهشام عدلي وكل من آذيتهم وآذوني. التقطت السلاح وقرّبته من رأسي، لمحت الترقب في عيني داليا، تحرك جانب فمها بشكلٍ واضح.. فأبعدت المسدس عن رأسي قليلًا، فكرت في الفائدة من وجودي، مقيمًا أنسب خيار يصب في صالح غرام ومليكة بعد كل ما مرا به.. وضغطت الزناد مقررًا أول خيار صحيح في حياتي.

***



بداية موفقة..

القاهرة ٢٠٣٤

- بابا.. هو ينفع نقرأ الفاتحة على روح واحد مسيحي؟!

هكذا سألتني مليكة التي أصبحت مراهقة الآن، تذكرت حالها وقت رحيل «آدم» منذ عشر سنوات.. لم أشعر بمرور كل هذا الوقت؛ كأننا بالأمس، وقت أن كانت مليكة طفلتي الوحيدة قبل أن يشاركها «مالك» في قلبي الذي لم يعد شابًا، بعد أن غزاه الشيب، كما غزت آثار الكهولة سائر جسدي.

أجبتها ناظرًا نحو اسم آدم المنحوت فوق قبره:

- عمو آدم الله يرحمه ساعدني أنقذ حياتك أنتِ وماما، وكان مسخَّر كل وقته في مساعدة المحتاجين.. فأظن موضوع الفاتحة ده ممكن نسيبه لربنا.

انتهيت من وضع الزهور فوق قبر «آدم حبيب» الذي لم يعُد «خواجة».. لم أفوت ذكرى سنوية من العشر التي مرت عليه، وكذلك لم يفعل «أشرف» الذي شاركني في تِركة آدم، ففتحنا مركزًا كبيرًا لصيانة الكمبيوتر، وأسميناه «الخواجة» امتنانًا لما فعله آدم معنا، استعنّا بخبرات من هم أقدم منّا، وبالقليل من الحظ، فتمكنّا



من تطويره في فترة وجيزة.. حتى أصبح العمل بالمركز حلمًا لأي مهندس كمبيوتر مبتدئ.

تركتني مليكة مع أشرف، أخبرتني أنها ستنتظرني داخل السيارة.. صافحته متسائلًا عن أحواله.. أخبرني برغبته في الزواج من إحدى العاملات بالمركز، كان يتحدث عنها باهتمام حقيقي.. فأعطيته مباركتي التي لا قيمة لها، وذكَّرته أن يسمي مولوده المستقبلي «آدم».

ودعت أشرف الذي انتظر في المدفن ليوزع نفحاته على الأطفال من متسولي المقابر.. ترحمت على آدم الذي غير مسار حياة أشرف، وحياتي أنا أيضًا، غفرت له كل ما ارتكبه في حقي وحق أسرتي حين تعاون مع داليا دون علمي.. كانت كإبليس؛ تدرك مكروهًا لكن لا يمكنك الخلاص منه؛ فتحاربه مرة وتطيعه مسرورًا مرةً أخرى، حتى تقوم ساعتكما.

أشارت مليكة نحوي حتى أسرع؛ كنت أعلم أنها تهاب زيارة القبور مثلي.. أثناء توجهي نحو السيارة لمحت سيدة عجوزًا أكلها الدهر أكلًا، افترشت الأرض ساندة ظهرها على أحد شواهد القبور التي رسم الصليب فوق جميعها، كان صغار المتسولين يضايقونها ويلعبون حولها، فصحت فيهم كي يبتعدوا، ووضعت في يدها رزمة كبيرة من المال، انهالت عليَّ بالدعاء، بصوتٍ أعياه المرض وأنهكته دورة الحياة، سألتني عن دعوة أحتاج إليها، فربتُّ على يدها وأنا أسلمها المال، وقلت لها بصوتٍ منخفض:

– ادعي لي بالستر يا أمي.



خفضت صوت مسجل السيارة التي شغلته مليكة، أمرتها أن تقدر حرمة الأموات.. أخبرتني أن أمها قد اتصلت لتبلغني باستعدادها هي ومالك لرحلة السفر التي وعدتهم بها في أيام عطلتي من المركز.. حذرتني مازحةً من أن «غرام» تفتح هاتفي لتقلب في محتوياته من آنٍ لآخر فأخبرتها بصدق أنني لا أمتلك شيئًا على هذا الهاتف لأخفيه.

ظلت مليكة جالسة إلى جواري أثناء رحلتنا إلى البيت، تهز قدميها بعصبية واضحة، وتقضم أظافرها حتى كاد لحم أصابعها أن يظهر.. ظننت أن هرموناتها تتلاعب بها، أو أنها تعرفت على شاب من النادي الرياضي أو من المدرسة الثانوية وتخشى مصارحتي.. نظرت لها مبتسمًا وقلت بهدوء:

- أنتِ كويسة يا مليكة؟ بقى لك كام يوم مش كويسة.

لم ترد، فترجمت صمتها أنه حيرة وليس إنكارًا.. قلت لها:

- على فكرة مالك قال لي على اللي شافه..

بدا عليها الفزع الشديد، راحت تقسم بأعظم الأيمان أنه لن يتكرر.. قلت بهدوء:

- أنتِ عارفة إنك غلطانة.. صح؟

- آسفة.

ضحكت ضحكة قصيرة لتغير الموضوع، قالت بلهجة مصطنعة:

- قلبك أبيض يا طائي.. بعدين ما أنت اللي قلت لي إنك بتكره القطط.. حصل خير بقى.

قلت لها بلهجة جادة:



- أخوكِ الصغير شافك وأنتِ رابطة القط بتاعك وبتعذبيه..

- أنا معرفش عملت كده ليه في «روني».. ده صاحبي من وأنا صغيرة.

سألتها باهتمام:

- بتحسي بإيه وأنتي بتضربيه؟

- بصراحة.. إحساس إني بتحكم في الحاجة الوحيدة اللي ملكي ده عظيم..

استدركت معتذرة حين لم تجد مني تجاوبًا مع ما تقول:

- بس وعد مش هعذبه تاني.

أجبتها بهدوء:

- الطبع بيطلع بعد الروح.

فكرَت في لهجة أخرى للاعتذار، قاطعت أفكارها قائلًا:

- الغلط مش في إنك عذبتيه.. الغلط في إن أخوكِ شافه!

هزت مليكة رأسها لتهاودني، حتى استوعبت ما أقول فاستدركت مندهشة، بدت عليها الحيرة مما قلت.. تذكرتُ الحوار الذي دار مع «داليا» في منزل سلوى قبل أن أحسم قراري بالخلاص من «الكونت» نهائيًا.. نبهتني مليكة إلى شرودي، فقلت لها بلهجة عملية:

- أنتِ مش فاكرة حاجة من الفترة اللي ماما كانت حامل فيها في مالك.. لما كانت قاعدة فوق في شقة عمتك؟ يوم ما صالحتها ببوكيه ورد، وجِبت لك القط اللي كان نفسك فيه؟



- لا الفترة دي بالذات نسياها، مع إني فاكرة حاجات قبلها؛ زي طنط سلوى وعمو رافي الله يرحمهم.. كل اللي فاكراه إني دخلت ابتدائي متأخر سنة بسببها!

أتذكر أنني سألت غرام أكثر من مرة عن هذه الفترة، فكانت تجيبني كل مرة بردود مبهمة كأن عقلها لا يريد أن يتذكر هذه الحقبة من الأساس.. رفضت داليا إخباري بما فعلته فيهما؛ وانطفأ فضولي تجاه المعرفة، تذكرت آخر ما قاله لي آدم والذي جعلني أحسم قراري يوم أن واجهتها..

«- هتلاقي مع أشرف فلاشة عليها bitcoins كتير، أنا ماصرفتش جنيه واحد من الملايين اللي اتدفعت فيك، وكل ماضي الكونت أنا مسحته تمامًا، أتمنى تقدر تبدأ من جديد..

افتكر أصلك واختاره.. الأصل لازم يعيش.. عشان يقدر يصنع صور جديدة.»

مددت يدي إلى علبة الأسطوانات الموضوعة إلى جواري في السيارة، أخرجت أسطوانة تضم بعضًا من معزوفات العود لمحمد عبد الوهاب، قلت لمليكة بلهجة حانية:

- اللي أنتِ فيه ده مش عيب، كلنا عندنا أهواء غريبة، أهواء لو شوفنا غيرنا بيعملها ممكن منقبلهاش منه.. الناس أمزجة.

بدا عليها الخجل، عقبت بصوت خفيض:

- بس أنا مزاجي ده غريب جدًا.

- ماتتكسفيش من نفسك، أنتِ ست الناس كلها.



أكملت حديثي مستعيدًا ذكرياتي مع «علاء الدين» في زقاق الحانة الذي لم أنسه لحظةً:

- أهم حاجة.. ماحدش يعرف اللي بتعمليه ده غيري، الناس لو عرفت مش هيرحموكي.. أنا هساعدك تحولي شعورك ده لحاجة أعظم بكتير..

أخبرتها برغبتي في أن أدربها على العمل معي، ردت أنها لا تحب الوقوف في مركز الصيانة ولا تحب أشرف كذلك.. قلت لها أن عملنا سيكون بعيدًا عن المركز تمامًا، سيصبح سرًا حتى عن أمها وأخيها، بَشَّرتها أن تستعد لمرحلة جديدة من حياتها؛ حيث ستقطع الكثير من الخطوات نحو ذاتها الحقيقية، مرحلة لن يعلم أحد عنها شيئًا سوانا، تردد في عقلي صوت يقول:

- مليكتي العزيزة.. أهلًا بكِ في عالم «الماركيز»..

تمت بحمد الله

الشرقية.. ٢ أكتوبر ٢٠١٧

عبد الرحمن جاويش

***



شكر خاص:

لكل من اقتطع من وقته ومجهوده لمعاونتي خلال رحلتي مع «الكونت»؛ في المجال البحثي أو في مراجعة الرواية ذاتها:

- جزيل العرفان للأعزاء: أخي الكبير و»أنتيمي» محمد عصمت، أ. منتصر أمين، أ. محمد الصفتي.

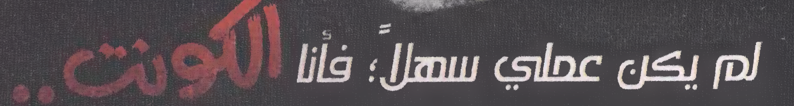
- د. محمد طه استشاري وأستاذ الطب النفسي بكلية الطب- جامعة المنيا، وعضو الجمعية الأمريكية للعلاج النفسي الجمعي، ومؤلف كتاب (الخروج عن النص) وكتاب (علاقات خطرة).

- أصدقائي ممن ساعدوني في إخراج هذا العمل بصورة أرضى عنها:

م. محمود شعبان، الباحث أحمد جاويش، أ رضوى أبو العباس، م. عبد الرحمن ممدوح، د. نورهان محمد، د. مصطفى عزت، أ. ريم رجائي، م. أحمد سليم، م. محمد خميس ، أ. فرحة محمد.

- لكل من عمل جاهدًا في الإعلان عن هذا العمل: دار تويا ممثلة في أ. هالة البشبيشي وأ. شريف الليثي، والمخرج نور الدين السعيد، والمصوِّر د. محمد ناجي عبدالله، والممثل وليد عبد الغني.





كان الألم عندي مجرد وسيلة لغاية أعظم، لم أحب يومًا التعذيب لذاته، لكنني أدمنت الأثر الذي يتركه داخلي؛ نظرات التوسل وصيحات الرجاء، الدموع التي ينبعث القهر منها. منحني كل هذا إحساسًا بالسيطرة التامة على ضحاياي.. أنا من يضع قواعد اللعبة، وأنا من يمارسها، أنا صاحب اليد العليا التي تقرر مصائرهم.

ارتبط لقبي على مدار التاريخ بالنبلاء من أصحاب المكانة الاجتماعية، كما ارتبط أيضًا بمن أطلقوا العنان لأبشع الغرائز البشرية.. لكنني سلكت طريقًا ثالثًا.

لم أتوقع يومًا أن تتبدل الأدوار؛ فأجلس فوق مقعد الضحية.. لأحيد عن مساري، وأخوض رحلة خلال أكثر بقاع العالم ظُلمةً: نفسي.

DESIGNS




ISBN 9776549535
9 789776 549531

